

ملفوظات الميرزا محمد باقر

نعمانی

والمیرزا محمد باقر

الجزء الأول

سنة ۱۳۲۷ هـ — ۱۹۰۹ م





قائد كتاب الحرية والأحرار
الأمير المرحوم مصطفى فاضل باشا الشير



ما كان أهناًني وأسعدني لو كان ينفع معشري قلبي
أنا لي فؤاد لا أنزهه لكن يراقب مايقول في

الى القراء

بهذا الكتاب أشياء . وقد فاتته أشياء . وفي أحوال العالم ما يمنع الإفصاح
بكل ما يدور بالخلد . على أنني لا أحب أن أخرج من هذه الدنيا قبل اظهار
ما عندي من الخوافي . فاذا وفقني الله الى أميئتي تلك كنت سعيدا .
حين تذهب دول الظلم ويدوق الناس نعيم العدل يقرأون مثل كتابي
هذا بارتياح .

واذا وهب الله أقوامنا من الترقى أكثر مما نالوه وبقيت أنا حيا بينهم
كلمتهم بما يخالج صدرى تصريحا لتلميحا .

مؤلف الكتاب

الى مؤسس بناء الحرية

الامير الجليل المرحوم مصطفى فاضل باشا

أيها الامير

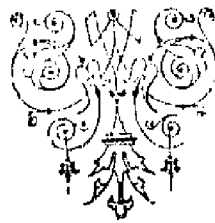
أنطقت كمالاً واصحابه واخترت الصمت . ولدت بنفسك غنياً وممت
لوطنك فقيراً . علمت محب الحرية كيف يغنيها فغناها . ثم طربت فشربت
كأساً هي الحمام . في حب حبيب هو الوطن . ما كنت شاعراً ولكن
خلقت الشعراء . فلما جئت في لداتي لم نجد ما نقول بل كررنا ما قاله الاسلاف
من تلامذتك .

لو أمست البلاد العثمانية كلها قبراً لك وحدك . وخيط كفنك مما
يتسرب من آفاق بنينا من الاشعة . وأقيم لك تمثال من الذهب أطول من
برج (ايفل) عشر مرات . وكتب مدحك على أديم الارض من شمال البلقان
الى جنوب اليمن لكان ذلك دون قدرك .

هذا كتاب فصوله كثيرة ولكنها فصلان . لي في كليهما شؤون . اما
الفصل الاول في بيان لمحنة الامة . واما الفصل الثاني فاستخراج العبرة من
تلك المحنة . وقد ذهب الشر وجاء الخير ولكن ضعت انت في الفترة .

هذا كتاب اهديه الى اسمك الخالد . لا تقرباً اليك بأمل دنيوى اذ
لا سبيل اليك . بل تشريفاً لى و لكتابى ثم اعترافاً لك بفضل لا يخالفنى فيه
أحد . فليطب مضجعتك . ولتغمدك الرحمة . وليسقى ثراك الفيث . أيها الامير
الفاضل الجليل مـ

ولى الدينه بكه



مقدمة

- ١ -

كتابي سر في الارض واسلك فيجاجها

وخل عباد الله تتلوك ماتلوا

فما بك من اكدوبة فاخافها

ولا بك من جهل فيزري بك الجهل

سيشهد من يتلوك ان كان عادلاً

بأن بنى حواء ماينهم عدل

للمؤلف

بين فروق ومصر نجي من الغيب تتراوح به الرسل ، فتقصر في بلاغه .
وتتحمله الذنائب ، فتعجز عن تأديته . لكل صاحبها لبانة ، ولكل لدى
الأخرى مكانة . شدت أواصر القربى بينها فأحكمت ، ثم رثت فتراخت ،
ثم دبّت بين الأم وبنتها عقارب الجفوة ، فكادت تنفرج مسافة الخلف .
وتنفصم عرى الوُد ، ولكن تدوركتا من حيث لم تحتسبا ، فباتتا على ريب
من أمريهما . فمتأمل في حاليهما يقول :

وكل مظهر للناس بغضاً * وكل عند صاحبه مكين

ومتسل بواحدة عن الاخرى ينشد :

تسلي باخرى غيرها فاذا التى * تسلي بها تغرى بليلى ولا تسلي
أما فروق ، فهي الغانية ، بزت حليها وحلاها . واستغنت بجمالها عن
تجملها . عروس الطبيعة الناضر . المنعمة الممنعة . تهب الصباية وتسلب الجلد .
للملوك مصارع من حسننها وللرعايا مصارع من ظلمها . يقيم على غرامها الى
الابد من نظر اليها نظرة واحدة .

واما مصر ، فهي الفتاة ، أنسها قريب وملاها أقرب . أكبر من
أمها سنًا وأقدم منها بالحضارة عهدًا . رائعة الخلق والخلق . عروب ، لعوب ،
نؤوم ، مكسال صادق حبها ، كاذب وعددها ووعيدها .

الفاتنتان تقباينان ، فتراجعان . ولا تستمران على قطيعة .

أما بنو فروق ، فغلوبون على أمرهم . قضى عليهم أن لا يتحاصوا من
الحياة الدنيا الا الهموم . يعيشون فيها ، لا يرون بها شمسًا ولا زمهريرًا
(ولا يسمعون لغواً ولا تأثيماً) عليهم ثياب من نار ، كلما شوت منهم جلوداً
بدلوا بها جلوداً . تتعاقب الآناء وهم سكارى ، حيارى ، كأن عهدهم بالحشر
قريب ، ينظرون من خلل اليأس الى بارق الامل

وكأنه برق تألق بالحمى * ثم انضوى وكأنه لم يلعب

يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم
قاموا . أوصدت دونهم أبواب القبول وحيل بينهم وما يشتهون . فايد
بسطة ضارعة بالذلة ، ووجوه عننت منقبة بالمسكنة ، وأبصار زاغت وفي
لواحظها نعاس الخمول ، وقلوب شقت وفي أشطارها معاني الشكوى . وما

يفنى التطلب : أقعدت العزمات وصغرت الهمم ، وفاضت النفوس . وراحت
الآمال ، وبوعد بين الشباب وبين الوصال .

أما لو أن زهور الرياض مقل ، وقطرات الطل دموع ، وأنفاس النساء
زفرات ، وأغاريد الطيور نحيب ، والأقاحي ثغور تناجي ، والبراكين أفئدة
تتقد ، والقيامات أنات الضمائر ، وخطوب الدهر أحزان بنيه ، لقل ذلك عند
وقوف المتأمل على أحداث اخواننا الشهداء . ألا بنفسى تلك اللحد ، صمت
نازلوها ونطقت صناديقها . . ألا مالمثل هذه الأفئدة البشرية هذه الشجون .
بلى هي قوى كهربائية لها من كل ويل تيار .

أما بنو مصر ، فغلوبون على أمرهم . ذاقوا مرارة الذل أولا ، ثم بدلوا
منها أرياشهياً وأوتوا رخاء وعيشاً معللاً جانبه . أسفرت لهم الحرية ، عدوة
الملوك وحبيبة الشعوب . راموها زرقاء ، فأنت حمراء . وماتلك بحمرة خجل
ولا حمرة دم ، ان هو الا الحياء يورد الحدود ويقصر الخطى ، فهم مغبوطون
وهم حاسدون . ذلوا لها حين استعصت ودلوا عليها حين سلسيت ، وأنسأهم
عذب الوصال مر الهجران .

ليقف من شاء من أبناء حواء على منارة من منارات فروق . وليدع طرفه
يرود تلك الهضاب في أبرادها السندسية وليفسح له مجالاً في مسارح خلّت
من أوانسها ، وليرم به الى قرارات كالدرهم . تلمع بكرة وتلهب أصيلاً .
مراودها الغزل ومسالكها العفاف . فاذا بداله (البوسفور) في ازرقاق
عبابه ، وتجمد أديمه ، وازدهار شطيه ، وإطلاع اقماره . فليرجع البصر الى
منازل كأنها لعب أو لعب ، كأنها بنيت بعضها فوق بعض . فلينصت هنالك

قليلًا ، وليسأل بملء فم عما سمع ورأى أما والله ليصيحن بملء فيه ، منشداً
قول المعري :

خفف الوطء ما أظن أديم ال * أرض الا من هذه الأجساد
رب دار كأنها قفص البلبل . في وسط حديقة كأنها طبق زهر . ثم فتاة
أفرغ الله نوره فتكونت منه . يدخل عليها داخل وهي غارقة في هو اجسها
فتقول له ما آخر أبي ؟ ما بطلاً بأخي لم لم يحضر هو وهو معلوم
فيقول لها أبوك نفي وأخوك سجن وهو ضاع بين الأزرقين ، السماء
و (البوسفور) . فلا أدري ، بل لا أود أن أدري ما يكون من لحظيها اذا
أسبلا بكاء وما يكون من ذلك الوجه اذا رفع في يأسه وحزنه الى السماء
وقال فيه مرة واحدة : آه !!!

وليقف بعد ذا من أراد على قمة الهرم الكبير في مصر ، وليتأمل بنت
ايزيس وأوزيريس ؛ أما والله لا يلبث ان يرى الوجوه الضاحكة . خلال
المغاني الآهلة فيبدو لتأمله فرق ما بين العاصمتين .

بفروق قصر وبمصر قصر . القصران مصدران للأحكام وموردا
للآمال . هما كشقي المقص : اذا افترقا أحاطا واذا تجمعا فرقا . هما الصرحان
تطل منهما المعالي ويشرف سلطان القوة . يقلبان ولا يتقلبان : على أيهما وقف
البصر خشع وأيهما حضر بخيال النفس هالها . ياداري العزة ما الخورنق

والسدير . ما يوان كسرى وما قصر الحمراء . ما ربع مية يطيف به غيلان وهو
معمور . بل ما ارم ذات الحماد التي لم يخلق مثلها في البلاد .
تطاوت الأيدي حتى انتهت اليها فما بقي مكان خالياً الا وطرقه طارق
متاب . أحيطا ، فنما ، فمزا ، فأرهبا . ثم اغترا ، فأعملا ، فأذلا ، فأغضبا .
ثم زادوا ، فأفنيا ، فأثارا . وما هي الا صيحة أخذتهما فتساقطت تلك اللبانات
الذهبية وقعقت هاتيك العروش وقضى الأمر . وكذلك يستدرج ربك
بمباهه من حيث لا يعلمون .

مضى زمان العمل وجاء زمان الحساب . وقد قال شاعر العرب :
فشككت بالرمح الأصم ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم
القاضي هو الحق . والمخاصم هو الامة . ومن كان نصيره تاجه وصو لجانه
فالامة نصيرها الله .

قلت (له) قبل اليوم بنحو الثلاث عشرة سنة من ابيات لي :
ضع الامر في موضع الاعتبار
فان الزمان زمان العبر
ولا يفرح بك زوال الخطوب
فكم اثرها من خطوب آخر

مصائب مرير اذا ما انقضى
تلاه مصاب عليك أمر
حياتك أمست حياة التساوى
فلست تساء ولست تسر
اذا ما أماني الهوى برزت
وكل خفي بها قد ظهر
وشام بصير وأصغى سميع
وراحت تروى المعاني الفكر
وقال زمانك كيف التحامى
وناداك دهرك أين المفر
هنالك تشكو كما كنت تشكى
ويجربى بما لا تشاء القدر
واليوم لا أجد ما أزيد على هذا المقال .

أضحت مصر منذ سنة ١٥١٧ ولاية عثمانية . عاشت سلسلة القياد ،
ابنة المريكة ، الا ما كان يأتي به بعض المتغلبين ، من بقية السيف ، من
ساداتها الاول منذ سنة ١٧٦٦ .

وفي سنة ١٧٩٤ أخرج نابوليون الأول من الجيش العامل في فرنسا .
فهم أن يقصد الى الملك العثماني لينظم مدفعات العثمانيين . لكنه استبقى
لفرنسا حتى سلط مدفعاتها على الهرمين في سنة ١٧٩٨ وهزم عنهما
مراد بك و ابراهيم بك . ثم أجفل الى بلاده وأخرجت جنوده الجنود
العثمانية والبريطانية .

وقد شآئت الاقدار أن يغنم مصر سليم الاول ويخسر ها سليم الثالث .
كما رفع فرنسا نابوليون الأول ووضعها نابوليون الثالث . وشتان بين سليمان
الثالث ونابوليونهم الثالث . ان سلطانا كان حراً وحكياً وعادلاً ولكن جنى
عليه الجانون .

فلما اطمانت مصر بعض الاطمئنان الى محمد علي الأول ، بعد سنة ١٨١١ ،
دخلت في تاريخ جديد .

فاذا تأملناها منذ أخذها العثمانيون الى يومنا هذا ، رأينا الغرابة فيها
من ابتداء سنة ١٨٩٢ وما تلاها من السنين . وسيأتي الكلام على بعض
نلك النوائب اشارةً لتخليدها .

وهبتني مصر تجارب ووهبتني فروق تجارب . وكتابي فيه مواهب
العاصمتين ومختصر من تاريخ القطرين وعبر من وقائع القصرين . فمن قال
فيه أنه دفتر الحسنات والسيئات فقد صدق ، ومن قال فيه أنه ديوان

السياسة فما أخطأ . على انى أتمثل بقول أبى الطيب :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت

منى بعلمى الذى اعطت وتجري



﴿ الجرائد المصرية في سنة ١٨٩٢ وما قبلها وما بعدها ﴾

كانت الجرائد المصرية الى سنة ١٨٩٢ معتدلة السياسة على اختلافها في مذاهبها . ولم تكن السياسات الا ثلاثة ضروب : عثمانية محضة مسالمة للاحتلال الانكليزي وهي التي امتازت بها جريدتان يوميتان (المقطم) و (النيل) وفرنساوية مصرية وهي التي اقتصت بها (الاهرام) و (المؤيد) ومصرية محضة مع انصاف المحتلين وهي التي سارت عليها جريدة الوطن .

فأما (المقطم) فقد ثبت على سياسته الى يومنا هذا ولم يبد منه ادنى تغير فيوآخذ عليه . وأما (النيل) فقد تغير في أواخر أيامه وظهر تغيره للعيان . وما غيره صاحبه بل غيرته أنا . على انه لم ينتقد السياسة البريطانية ذاتها بل استكبر حمايتها للاحرار العثمانيين ، ممن هبطوا مصر ليستمتعوا بحريتها ويحتشدوا بها على حرب الحكومة المستبدة المنقرضة . فكنت أنا وصاحب النيل رحمة الله عليه ننكر على الاحرار مساعيهم ونأبى مشاركتهم فيها . ومن هنا يتبين للمتأمل ان اختلاف (المقطم) مع (النيل) لم يكن الا من الوجهة العثمانية الداخلية . وذلك لأن أصحاب (المقطم) نشأوا في أعظم مدرسة غربية أسست في الشرق وهي الكلية الاميريكية الكائنة ببيروت ، وأخذوا

علومهم عن أعظم حكيم غربي فطن الشرق وهو طيب الذكر الدكتور
كارنيليوس فاندليك. فعرفوا التمدن المصري وبرعوا في العلوم الجديدة وأشربوا
الحرية فشبوا عليها وكانهم ولدوا في أوطانها. وصاحب (النيل) لم يكن كذلك.
فإن الرجل كان من الراسخين في العلوم العقلية والنقلية مما نخله إياها أحزاب
الفكر القديم. فكان مؤرخاً فقيهاً وكاتباً أليماً ولكن لم يخل قلبه من التعصب.
كانت نفسه الكبيرة لا تستحب النزوع عن القديم ولا تستطيع شيئاً من
الجديد. فاهتديت أنا برأيه ولكن وقعت في خطائه.

وأما (الأهرام) فكان صاحبه رحمه الله محميين بقوة فرانسوا. فلم يريا
من المروءة أن يخالفها في سياستها الاستعمارية. ولولا ما سبق منها من
الافراط في التعصب لها لكان عذرهما أوسع. على أنهما سعيا لخير مصر من
حيث ظنا أنه صواب. ولم ينصفا الانكليز بل أصرا على حربهم ولم يذكرا
للقوم يداً وإن جلت ولم يسترا لهم هفوة وإن صغرت. وأما (المؤيد) فقد
ظهر واهي القوى ، شديد المزجة ، خلق الجلباب ، جديد الهمة ، رابط
الجأش ، جميل الصبر يعانى الشدائد ويعاين المهالك ، رحب الصدر باسم الثغر.
فكان يزداد كل يوم شهرة ويمجد من اقبال الناس عليه وموآزرتهم له ما
يبعث نشاطه ويستعيد فتوته. ولم يرض صاحبه أن يعيش في الأرض مكباً بل
سار في مناكبها شامخ العرينين ، سامي الطرف ، بادي الخيلا ، ثم جنح الى
السياسة الفرنسية شيئاً على يد صديقه من قبل وخصمه من بعد المرحوم
مصطفى كامل ، رئيس الحزب الوطنى الأول ومؤسسه وصاحب الموسيو
(دلونكل) أحد ساسة الاستعمار في فرانسوا اذ ذاك. وقد أمسى (المؤيد)

مخالف (الاهرام) كما أصبح (النيل) مخالف (المقطم) .
فكانت جريدة (الوطن) وحدها تغني مصر كما تهوى مصر ، بل كما يجب
عليها لمصر . حفظت العهود ، عهود أجدادها الصيد الاول ، نسل الشمس
وخذ مت قومها كما أراد قومها . ولما كان الأقباط ، أولو مصر ، قومًا ممتازوا
بحب وطنهم وشرف نفوسهم وبعد همهم ومحبتهم الجدة ومجانبتهم المعاييب ، لم
تثن همتهم عداوات البعض من مواطنيهم المتعصبين . وكما هموا مجدهم على
قلوبهم وكثرة حسادهم وظلم حكامهم أعانوا جريديتهم فماشت لهم واستفادوا بها .
على أن هذه الجرائد لم تكن متممة بمثل حريتها اليوم . فان قانون
المطبوعات الذي وضع في سنة ١٨٨١ ونصب معه البارون مالورتي الشهير
مديرًا لقلم المطبوعات ، ضيق الخناق على أرباب الصحف والأقلام وسلب
الأمة المصرية حريتي الفكر والسياسة .

فكانت الجريدة من الجرائد تنشر الخبر لا يوافق سياسة الحكومة
فيأتيها الأئذار من الداخلية تنشره في أول عدد يصدر منها بعد وروده .
واذا أئذرت مرتين الغيت في الثالثة . وقد يحكم عليها بتعطيلها شهرًا أو أكثر
أو أقل وقد تلغى بغتة . وكل ذلك على ما يبلغ ذنبها وجناتها السياسية . ولكن
لم يطل أمد هذا الظلم . وأعلنت حرية المطبوعات في وزارة الرجل الحر
مصطفى باشا فهمي وكان ذلك في أواخر سنة ١٨٩٢ على ما اظن . ثم أتت
الوزارة الرياضية فهمت برفع هذه الحرية فلم تفلح وذهبت غير مأسوف عليها .
غير أن الجرائد المصرية لم تشبه اخواتها في الغرب بحال من الأحوال
لا في عهد أسرها ولا بعد عتقها . وسبب هذا النقص اتحاد الصحافيين على

استرضاء الشعب . فهم يرون أن الشعب المصرى لا يحب في صحفه الا أن تكون هكذا . وفاتهم أن الجرائد هي ألسن العقلاء تنطقها الحكمة ولا يستميلها الهوى وأن الواجب عليها أن تقود لا أن تقاد .

وكم أسف أبجده عند ما أتذكر ماضى الشباب . أيام كان الفتى منا شغله مقالة يكتبها أو قصيدة ينظمها لتذكرها له الصحف السيارة ناعته اياه بالفاضل والاديب . أيام كان الشاب منا يقضى ليله في معاورة ولهو وسماع ثم يصبح فينادى في الصحف باسم الوطن ويدعو الى مكارم الاخلاق . واذا صادف من أديب غرة انبرى له طالباً مناضلاته طامعاً في مساجلاته ، اقتساماً لشهرته ولكي يقال انه ناظر فلانا فغلبه . كانت أمامنا ساحات المطبوعات متباعدة الاطراف ، مباحة الحمى . نجول فيها كما نحب . تقول فنجد من يسمعنا ونهذر فنلقى من يشاركنا . فيوماً نحن أعداء (قوم) نحض الناس على مقاتلتهم ونزين لهم مناواتهم ونحبب اليهم بغضتهم . ويوماً نحن أنصارهم نقديهم بالأرواح ونبغض من يريدهم بسوء . ذلك باننا دخلنا أبواباً لم نكن اهلنا لدخولها وادعينا السياسة وما كنا الا فتياناً لا يعلم الواحد منا أحوال نفسه . فكيف كان يتسنى لنا كشف غوامض حارت فيها الدهاة وأخطأها أهل الصواب .

هكذا ، يأتي على المرء حين من الدهر يؤلمه تذكر ماضيه ويحججه . وما أشد عصر الشباب اغراء للشباب . وليت هذه العظات تنال رخيصة فيستعاض بها ما خسرتة الحياة على قصرها . الا أنها غالية أثمنها الاعمار . وهنا لا أجد بداً من الاعتراف بأن حرية الجرائد اليوم بلغت أقصى

غاياتها . ولكنها أساءت الى الأدب والأديب . فقد منحت الجرأة لقوم
من الأميين والبعيدين عن معالى السياسة فصرت الافلام بما يضر وعجزت
عما يفيد .



✽ السياسة الانكليزية بمصر ✽

في سنة ١٨٩٢

في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ جاء من (قينا) الى رئاسة مجلس النظار بمصر
تلغرافا هذا نصه :

« ان نبأ وفاة سيدى ووالدى قد أدهشنى . فهو مصيبة عظيمة »
« على عائلتى وعلى القطر المصرى بأجمعه . ومتى وصلتتى منكم الاخبار »
« الاكيدة عن الوابور الذى سيعود لسفرى من ترليستا ، أسافر بلا »
« إبطاء وأخبركم بالتلغراف عن ساعة السفر . واننى على يقين أن الأعمال »
« تستمر سائرة على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم ريثما أصل »
« اليكم » .

كان هذا التلغراف رجع الصدى لآخر مثله نعى توفيقا العادل الى عباس
البار . فرددت ألسن الكهول قول الشاعر القديم :

هنا تحاذك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما

وكررت ألسن الفتیان قول الشاعر الجديد شاعر الاميرين :

بين ماضى الأسى وآتى المناء قام عذر النعاة والبشراء
نبأ معذر نفي بفضله به ضناً فكان السفينة فى الأنباء
حتى اذا ازدهمت الجموع وتأهبت عابدين للترحاب بالأمر الفقى ، ألهم
جنى القريض ذاك الشاعر الجديد الهامه فقال :

ان خيلا حملن سيزوستريس الى مصر أولى الجياد بالخيلاء
فردت الشيبه المصرية بقوله :

وطنى قبلتى وأنت امامى بك فيه لوجه ربى اقتدائى
ثم خفت الأصوات وتطلعت الأعناق فدوت المدافع من القلعة .
فاذا هى تحيات يزفها محمد على الكبير ، من مرقدہ العالى لابنه الامير ، بالنيابة
عن أبنائه المصريين .

هنا اضطرت انكثرا أن تغير سياستها التى سارت عليها بمصر من
سنة ١٨٨٠ الى هذا التاريخ المتقدم ذكره . وكانت تلك السياسة قائمة على تأييد
المقام الخديوى وحفظ القطر المصرى من أن تمذ اليه يد الطامع ، وأن تصلح
شؤون مصر ويزداد عمرانها . وقد رأت من ود الخديو المرحوم توفيق باشا
وصدق ولائه ماذال لها الصعاب . فاشتركت معه واستعانت به على القيام
بجلائل الأعمال . وبات العرابى ومن خدعهم فى سيلان يتحسرون على مصر
ولسان حالهم يقول :

فهيئات هيئات العقيق ومن به وهيئات خل بالعقيق نواصله
فأما السياسة البريطانية الجديدة ، فلم ترد فى تغيرها على زيادة الالتباء
لسياسة عابدين الجديدة . هنالك شرخ الشباب وخطر المقام وقلة التجربة

وكثرة المطامع استدعت ذلك الانتباه حتى قال طبيب الذكر للورد
(سالسبرى) في ١٠ فبراير سنة ١٨٩٢ :

« ان الحكومة الانكليزية لاتدع مصر فتتسلط عليها دولة أخرى
أو تقوم فيها الفتنة . »

ولقد قال (أرل ددلى فى خطبة خطبها فى ٩ فبراير سنة ١٨٩٢ بعد خطبة
العادلة الفاضلة الشهيرة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى : (انا على ثقة
أن سمو الأمير الجديد سيكون كفؤاً للقيام بأعباء ملكه على توالى الأيام) .
على أن المعية المصرية أخذت تتهياً لسياسة جديدة بما تدرجت فيه من
التغيير الجديد ، قبل ذلك بأيام .

ففى ٢٥ يناير سنة ١٨٩٢ عزل المرحوم خليل بك ثابت التشرىفات
الثانى بالمعية ، وموسى بك عصمت معاون التشرىفات . وفى ٢٧ يناير سنة ١٨٩٢
صدر امر عال بقبول استعفاء ثابت باشا وذى الفقار باشا . وقبل ذلك أى
فى ١١ يناير أحيل على المعاش احمد باشا الياور الخديوى الأول وعين بدلا
منه عبد الله باشا فوزى . وأحيل على المعاش أيضاً على بك ثابت قوماندان
المراسلة الخديوية وعين مكانه محمد بك توفيق (هو محمد باشا توفيق الذى
توفى بعد أن نال رتبة الفريق .) وفى ٥ فبراير من السنة عينها أحيل على المعاش
على بك حافظ رئيس قلم الترجمة وعين مكانه احمد بك شفيق (هو الآن
احمد باشا شفيق) .

ثم حلت النقمة بسبعة من عملة التلغراف بالمعية ، فصدرت الارادة
بفصلهم جميعاً من أعمالهم وعينت ادارة السكة الحديد فى القاهرة سبعة

غيرهم وذلك في ٨ يولية سنة ١٨٩٢ .
وكان الناس يستشعرون بتجدد في أحوال المعية كلها كما وقع ذلك
التجدد في تغيير رجالها . فباتوا يتوقعون يومه بصبر اضطرارى ونظر
اختيارى حتى آذن صبحه بابتسام . وانى لذا كر فى هذا الفصل ، قبل
الدخول فى بيان شىء ، صورة التقرير الذى سيره السير أفلى بارنج (هو
اللورد كرومر) الى طيب الذكر ماركيز (سالسبورى) ليكون توطئة لما
سيتلوه من الكلام .

صورة التقرير

منقولاً تعريبه عن مجموعة المقطم الشهير

مصر القاهرة فى ٩ فبراير سنة ١٨٩٢

مولاي .

كانت عادتي قبل سنة ١٨٩١ ، أن أبعث الى فخامتكم أو الى أسلافكم
بتقرير سنوى فى مالية الحكومة المصرية ولكنى فى السنة الماضية كتبت
أول مرة تقريرين ، أحدهما فى المالية المصرية فقط والآخر فى تقدم الاصلاح
الادارى الذى تم بوجه الاجمال فى القطر المصرى مدة السنين اليسيرة
الماضية . وقد قصدت فى هذا التقرير الذى أشرف بمرضه على فخامتكم
أن أوضح ، بالايجاز ، النتائج التى أدركتها مصر ، سواء كان فى المالية أو فى
الادارة العمومية بعد تقريرى الماضى فى ٢٩ مارس سنة ١٨٩١ .



المغفور له الخديو السابق

أهم الحوادث السياسية التي حدثت بعد كتابة تقريرى الماضى فى ٢٩
مارس سنة ١٨٩١ ، وفاة سمو الخديو السابق رحمه الله : وذلك فى ٧ يناير
سنة ١٨٩٢ ، بعد أن مرض أياماً فلالاً .

وقد كان رحمه الله فى مقام عظيم المصاعب طول أيام اشتغاله بالسياسة .
فانه ارتقى سرير الخديوية فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٩ وهو يومئذ ابن سبع
وعشرين سنة ، كانت البلاد قد أمست على شفا الدمار ، بسبب الاسراف

والتبذير في المالية وسوء الإدارة العمومية. وكان نظام الجيش قد احتل اختلالاً عظيماً ، بسبب الحوادث التي جرت قبل تنازل اسماعيل باشا . فثار الجيش وتمرد بعد ارتقائه رحمه الله بزمان قصير ، واقتضت الأحوال مجيء جيش أجنبي لرد النظام . ولم أكن أنا بمصر في الثورة العرابية . ولكني كثيراً ما سمعت الثقافة الأكفأ يتكلمون عن تصرف الخديو المرحوم في تلك الشدة ويطنبون في مدحه اطناباً عظيماً . ولم يزل مركزه بعد الاحتلال البريطاني محفوظاً بمصاعب عظيمة ، وإن كانت مختلفة عن المصاعب الأولى في نوعها . فإن سموه امتاز بكونه مصلحاً مستديلاً . وكان خبيراً بأحوال بلاده ، يعلم حق العلم بأن اصلاحها يجب ، بحكم الضرورة ، أن يتم تدريجاً . وكان يدري جيداً أنه لا بد من استخدام عدد يسير من الأوروبيين المنتخبين ، مدة من الزمن . وذلك مع شدة رغبته في ترقية أبناء وطنه الى المناصب التي يكونون فيها محل الاعتماد وتلقى عليهم العهدة والمسؤولية . أما الخدمة التي خدمها الموظفون الأوروبيون في الحكومة المصرية للقطر المصري ، فالناس كلهم يعترفون لهم الآن بها . وهم أقل كرهاً لوجودهم عندهم . وأقل حذراً وتخوفاً منهم ، بالنسبة الى ما كانوا عليه قبلاً .

فاقتضى في غضون ذلك أن يكون هناك شيء كثير من حسن السياسة والتميز لاجراء معظم الاصلاح على يد الأوروبيين بلاإساءة الى أهالى البلاد ولا مس حاساتهم . وحسن السياسة هو ما اشتهر به الخديو المغفور له وفاق فيه . فكان من جهة يشد أزر مشيريه الأوروبيين ويؤيدهم تأييداً لولاه ، لما جاءت مساعيهم في تحسين أحوال البلاد بنتيجة تذكر . ومن جهة لا ينسى

ان المنظمات الاوروبية الشورية والادارية يجب أن تغير في الصورة والجوهر وتكيف بحيث تصير صالحة لحاجات الأمم الشرقية .

وكان رحمه الله ، يعلم أيضاً أن أعظم الخطر التي يجب اجتنابها هي الاسراف والتبذير في المالية ، والاستبداد في الحكومة . فإذ لك جمل علم الزمان الماضي نصب عينيه . فكان في معيشته العمومية أول من يكره غيره الاسراف والتبذير ويؤيد سلطة القانون ، كما كان أيضاً في معيشته الخصوصية التي هي حرية بأن يقتدى بها من كل الوجوه .

فلهذه الأسباب وغيرها مما تيسر سرده يحق لأبناء مصر ولكل الذين يهتمون بأمورها أن يندبوا فقيد مصر الذي عاجلته منيته فاخترمته قبل أوانها . لاسيما وأنها وافته حينما زالت المصاعب التي خصت بمخديويتها في بداءتها ، وابتدأ يحنى ثمار جده الدائم الشديد وجهده الثابت الجهيد ، لتحسين أحوال مصر في السنين اليسيرة الماضية .

وزد على ذلك أيضاً أنه منذ سنة أو سنتين ، زاد نصيبه الخصوصي في تولى الأمور وادارتها بنفسه ، فتوفر الخير والفائدة لبلاده . وكانت الثقة به آخذة في الازدياد والتعاظم ، في نفوس الموظفين والوطنيين والأوروبيين الذين مازجوه ، وفي نفوس الأهالي عموماً ، وكانوا يزيدون كل يوم اعتباراً لصدقه واستقامته وصحة حكمه وحسن تمييزه . والحق يقال ، ان الناس على اختلاف طبقاتهم ، حزنوا حزناً حقيقياً على وفاته في شبابه .

وأضيف على ماتقدم ، أن سموه طالما شكر وأثنى في حديثه معي على مافعلته حكومة جلالة الملكة لانقاذ بلاده من الفوضى في أيام الفتنة العراقية .

وقد كان سمود طول أيام حكمه على غاية الصداقة والمودة مع حكومة جلالة
الملكة ومع الانكليز الموظفين في الحكومة المصرية . وكان يعلم حق العلم
أن الغاية الوحيدة من السياسة الانكليزية في الديار المصرية انما هي خير
المصريين ورفاهتهم . وعلى ذلك كان يجري في معاملاته معهم ومع سواهم .
ومما يزيدني رغبة في ايفاء سمود حقه بهذه الشهادة هو أنه نظرا الى
صهوبة مركزه أخطأ كثيرون حقيقة تصرفه ولم يصيبوا في فهم البواعث
التي كانت تبثه على أفعاله . واذا قلت ذلك فاني أقوله عن ثقة بعد تقادم عهد
العلاقة الشديدة التي كانت بيني وبين سمود .

ولما توفي الى رحمة ربه خلفه بكره سمو البرنس عباس باشا حلمي على
عرش الخديوية عملا بنص فرمان الشاهاني الصادر في ٨ يونيو سنة ١٨٧٣ .
أما فرمان الناطق بتولية سمود فلم يأت من الآستانة حتى الآن ولكن
جلالة السلطان بادر بعد وفاة الخديو السابق فاعترف له بالخلافة الشرعية
على الخديوية . الخ ... ويتلو هذا الكلام ثناءً على مقام الامارة الجديدة . ولولا
طول التقرير لذكرته برمته في هذا الفصل .

ويستدل من هذا وما يتلود ، أن السياسة البريطانية كانت الى عام ١٨٩٢
سياسة ود وصفاء . قام العراقيون على أمير البلاد عصياناً وطغياناً ووقفت
الحكومة العثمانية وقفة الغريب لا تدري أى طريق يجب عليها أن تسلكه .
وقد عرضت عليها انكلترا ارسال جنودها العثمانية ارهاباً للعاصيين وعقاباً ،
ووعدها ان تحرس لها جنودها بدوارعها . فصدرت الارادة السلطانية بارسال
عدد كاف من الجنود العثمانية التي كانت اذ ذاك بجزيرة كريد . الا أن المرحوم

الشيخ أسعد ، وكيل القراشة ، وشى الى السلطان بأن الأسرة الخديوية
اتحدت مع الانكليز على اعلان الاستقلال المصرى والنداء باسم الخلافة
لتوفيق باشا . فصدرت ارادة سلطانية ثانية نسخت الأولى . وبقي الجنود
في كريد كما كانوا . وكتب الشيخ أسعد الى العرابى وأعوانه يحضهم على
الثبات ويعدهم بجعل الامارة المصرية في نصابهم ، اذا هم تمكنوا من طرد
هذه الأسرة من مصر . فلما يئس الانكليز من انتباه الحكومة العثمانية
وارعوا المتمردين كلوا الثغر الاسكندري بالسنة المدافع وهبطوا مصر ان
شاء الله آمين .

فلما كانت الامارة الجديدة التى ظهرت في عام ١٨٩٢ ، وسبق منها
ما سبق من التغيير الدال على تغير القلوب ، وجب على الانكليز الانتباه .
ولما سقطت الوزارة الفهمية الأولى وحلت محلها الوزارة الرياضية ،
حسب المخلصون لمقام الامارة أن قد تم لهم ما يريدون وأن الزمان رجع الى
شيمة الوفاء وتاب عن الغدر . ولكن لم تلبث هذه الوزارة أن أشارت على
الامارة برأى كله خطل . فكان انتقاد الامارة على الأعمال الجندية بما لا يوافق
المجاملات السياسية مفضياً للقواد الانكليز الذين يدربون الجيش المصرى
ويصلحونه . فاستغنى السردار كتشنر باشا ومن هم تحت أمره من الضباط
واضطرت الامارة الى الاعتذار خطأ وشفاهما . وكانت الامارة استدعت
رئيس الوزارة الرياضية بالتلغراف سائلة اياه رأيه . فأشار عليها بالاعتذار وقفل
راجعا من ساعته .

ولم تكتف الامارة المصرية بهذا القدر من اعلان العداء للمحتلين واطهار

الاخلاص لجماعة من اهل البطالة والمرافين . فاتخذت بدار الامبراطورية
العثمانية من تعتمد عليهم وتحمل الهدايا اليهم . ومن هؤلاء عزت العابد وعبد
الله النديم والمرحوم جمال الدين الأفغانى ولا إخال أن في أكثر الفضلاء ، من
المشتغلين بمثل هذه الأشياء ، من يكون نسى سفر الامارة الى الآستانة ،
متقدمة جماعة من أهل الشبيبة المصرية ، معتمدة على آراء من ذكرت من
رجالها . وقضية المضبطة التي قامت لها القيامة اذ ذاك معروفة . وما أريد
من هذا كله الا تجديد الصلة بين التابع والمتبوع في الظاهر ، وبث الفتن في
الباطن .

ثم ظهر مصطفى كامل وراح ينتصر بالمسيو دلو نكل أحد أعضاء مجلس
الامة الفرنسية وناظر المستعمرات في فرنسا في أواخر سنة ١٨٩٤ تقريباً
وكان هذا الوزير ووزير الخارجية اذ ذاك ، المسيو هانوتو ، من أضداد الاستعمار
الانكليزى . ولم تكن فرنسا اقتضت بنصيبها من البلاد المغربية بدل البلاد
المصرية . فرحب الوزيران بالشاب المصرى واستخدماه في آرائهما . فكان
لهما أشد من البنان طوعاً وأكبر من الظل اتقياداً . فخلق مصطفى كامل من العدم
وخلقت السياسة البريطانية الجديدة معه . ولما بدت على تلك السياسة التي
كانت آية في الولاء والسلم آثار الاشمئزاز ، بلغ الخوف من القلوب مبلغه ،
حتى لقد اضطر جماعة من أولى الحماسة الى انكار المضبطة متقدمة الذكر
وكانوا يريدون الاحتجاج بها على الاحتلال عند القصر السلطاني .

فراى كبار الساسة في انكلترا بذل النصيح أولاً والارهاب ثانياً .
فكلم اللورد كرومر مقام الامارة مراراً ، ناصحاً غير مخادع . فلم يجد ذلك

نقماً ولم ينتبه أحد الى ما في هذه السياسة العرجاء من الخطاء العظيم . ثم تبدلت
وزارتان ، احدهما لم تدم أكثر من الأربع وعشرين ساعة ، ورجعت
الوزارة الفهمية في حكمتها وسداد رأيها . فعاثت تعاني الشدائد وتجاهد في
في الاخلاص للبلاد جهاداً . غير أنها لم تفز كل الفوز ، اذ كانت الحيل التي
يتدبرها جماعة خافية عنها . ولو خيرت لاختارت طريق الاصلاح
مع الوقار .

واني لأعجب من قوم حببوا الى الامارة الاستمرار على سياسة العداوة
للمحتلين . وأذكر جيداً أني لاقيت بعض وجهائهم (والأمانة تقضى بستر
اسمه في هذا الكتاب) . فقال أتدري ما يراد بالمحكمة المخصوصة ؟ قلت
وما أدراني ذلك . قال هي ضربة على الامارة . ولو بقي عبدالله نديم بمصر
الى اليوم لما أقدم هؤلاء على أمر كهذا . قلت له اقدامهم على طرده من مصر
دليل على احتقارهم له ولشيئته . وتركته لا يجير جواباً . ومثل هؤلاء أسسوا
الاحن في قلوب المصريين ولقنوههم أقوال السوء وغشوا الامارة وآلوا بها
الى ما لا أحب بيانه في هذه الفصول .

على أن المحتلين أصرروا في طلب العفو عن العراقيين من الامارة ، وما
زالوا بها حتى اجابتهم اليه . وقد أرادوا أن يعرفوا الامة أنهم قوم لا تحمل
صدورهم دخلاً وأنهم لا يستثمرون أحقاداً . ولا أظن أن رجلاً يشفق على
بنية اشفاق اللورد كرومر على المصريين . فهو أبو حريتهم ومصدر انصافهم
ومورد سعادتهم الا أنه كان يخدم من لا يحبونه .



✽ المرحوم عبد الله النديم وأستاذه ✽

لا أذكر هنا ترجمة الرجل لكي لا أخرج عن الصدد . فليتسمها من يطلبها
في مظانها . وأنا إذا ذكر له ما أعرف من أحواله ومقاصده ، مبين بعض ما تيسر
من تقلبات الأيام معه . فقد كان له أشياع يأثرون بأمره ويسرون
تحت علمه .

إن عبد الله النديم انتحل لنفسه السيادة وجاراه إلى تسميته باسمها
جماعة من محبيه . ولكن اتصل بي ممن حضر مجالسه وسمع حديثه وألم

ببعض أموره أنه لم يكن في طباعه ما يشبه طباع السادة . وما كان الأرجاء من الرجال ، ذكي القلب ، شديد العارضة ، ذوب اللسان ، سريع الخاطر ، حاضر البديهة ، ظريف المحاضرة ، حاو الشائل . وكان كذلك جريئاً على من يخافه ، كثير الوقعة بمن يعاديه ، محاسداً أهل الفضل ممن هو دونهم ، سهل الغضب ، صعب الرضاء مدمن الهجاء ، دائم السخط . فمن صاحبه على حذر منه فاز بوجهه ، ومن وثق به ضاع وضاعت ثقته معه . قرض الشعر فلم يملك له ناصية ولا فاز منه بسهم ، ورام الزجل فوفر منه حظه وحلا في فيه نشيده . فكان يرتجله ارتجالاً ويسابق أهله فلا يشقون له غباراً .

هذا عبد الله النديم صاحب (الطائف) و (التنكيت والتبكيك) من قبل وصاحب (الأستاذ) من بعد . اختفى بعد ثورة المرابين . وكان حارثهم ابن حلزة أو عمرهم بن كلثوم . رغا فتجمعوا وعقر فتفرقوا . ثم آوته قرى الريف ، فبات كأبي زيد السروجي يحترف الحرف ويتنقل في الأزياء والأشكال . فيوما هو واعظ ويوما هو ماجن ويوما هو عالم ويوما هو خليع . وما زال كذلك يطوف في البلاد حتى تعرفه بعضهم فوشى به إلى الحكومة فجيء به إلى نظارة الداخلية . عليه غبرة ترهقها قفرة . فأظهر الذلة والاستكانة ووعد بالتوبة والانابة . فزين بعض شيعته لمقام الأمانة المصرية أن تعفو عنه بعد ذلك فعفت . فبدأ بعدئذ في نشر (الأستاذ) . وبيان النديم مشهور ومألوف تفهمه العامة وتبتذله الخاصة . ولو مسح على كلامه بشيء من جزالة اللفظ وسمو المعنى وأمعن النظر في غلطاته فاجتنبها لصح ان يعد من كبار الكتاب . فقد شهدت له ببعض الذوق السليم وأعجبنى ترسله . وقرأت له في (الأستاذ)

مقالة عنوانها (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) فعلت أن البيان سجيية في الرجل .
وكتابه المسمى (كان ويكون) يجوز أن يقال فيه أنه ابن قريجة وقادة .
ومن المعلوم عند أهل الدهاء ، أن حزب العرابي وان تمزق شمله بعد
نكبة صاحبه ، بقي محتبئاً في مكان خوفه اختباء الأفاعي في جحورها .
وكذلك الفزع يستولى على أهل الدعوة فيلجم أفواههم ويكبهم على أذقانهم .
فلما عاد النديم وأعاد لهم نغماته ، تطربوا وعرتهم هزة أفلتو بها من صرا بطهم .
فقال فصدقوا ودعوا فأجابوا . وما زال في غلوائه وهم في غوايتهم . يدعو
الى الفتنة ويحض على الثورة ، والامارة تحبوه مايقوّم أوده ويطلق لسانه
حتى آل أمره الى الطرد . فترك مصر مأسوفاً عليه من أشياعه ، مغضوباً
عليه من العقلاء .

وقد اخطأ اللورد كرومر وقد يخطئ ، عطاء الساسة . فطلب من الامارة
أن تكلمه في الخروج . فكان كلام الامارة له كلاماً يدل على قصر في
النظر وخطئ في الرأي وضعف في الارادة ومجاملة حيث يجب العدل . وظن
اللورد كرومر أن عبد الله النديم اذا دام على نشر (أستاذه) حدثت ثورة
في البلاد . فأراد الاقتصاد في المكارة والاجتناب للفتن . ولو كنت أنا في
مقام اللورد لتركته يقول حتى ينفد ما عنده . فان للباطل جولة ثم يضمحل .
وليس بمصر قوم يقدمون على الثورة ولو كانت مداعبة . وان قوماً ناروا ،
أو أثيروا ومعهم خمسمائة ألف مقاتل ، لم يصبروا في ميادين الحرب الا ساعات
معدودة . لأشد من النعائم اجفالا . وأسرع في الهزيمة من الظباء عدواً . فلا
يقومون الا اذا مد السباط وصفت الصحون .

مضى النديم رحمه الله تعالى ، واستخلف بعده آراء مشى فيها على أثره
أشياعه . وقد جرى لي معه شأن ليس هذا محل ذكره ولربما جاء كلام عليه
في سياق الحديث مما يلي الفصل الحاضر . وإنما أحدث بيننا الخلاف أنه
كان عدواً للعثمانيين . وهو من قدماء من يقولون (مصر للمصريين) ونحن
نقول مصر للعثمانيين . ويظهر من أمور كثيرة أن مقام الامارة المصرية وثق
بالنديم ثقة لا يتخللها الريب . فكان يحسبه قادراً على كل شيء . ومن أجل
هذا قال أكثر الأمراء من الأسرة الحاكمة على مصر : ان مقام الامارة يقرب
منه النديم لأنه عدو أسرته وجنسه . وبهذه السياسة المضحكة آل الأمر الى
الاعتماد على مصطفى كامل . وقد كان كامل ممن يرددون نغيات النديم .
وانما ميز المقلد عن المجتهد المامه باللغة الفرنسية واستطاعته بيان آرائه
للغربيين . ولم يفز النديم بمثل ذلك .

وقد أخبرني من لايتهم بكذب ، أن مقام الامارة المصرية اتخذ النديم
وسيطاً بينه وبين ييلديز ، في أمر المصاهرة وسيأتي ذكرها . وكاد يفلح في
سفارته ، لولا أشياء دسها عليه خصم من أخصامه بالآستانة ، وبذا بطلت
الثقة أو كادت .



﴿ حزب تركيا الفتاة ﴾

ملك من الملوك ، شديد البطش ، قاسى الفؤاد ، دائم الحقد جرى في غضبه ، خائف في حيلته ، مطلق اليدين على أمة تتوجع ولا تدري مكان وجهها ، يبعث بأصره الى رجل من رجاله فيجرده من ماله ونشبه ويسلبه عزه وسلطانه ويخرجه من بين أهله وجيرته ويسجنه صاغرا . كل ذلك لنصح نصيح به أو قول صدق فيه أو حق عرف حبه له أو ظلم أبى أن يعين عليه . ثم يفرق أهله ويشرد أولاده ويقفل باب داره ويختم عليها رجال الشرطة بالشمع الأحمر ويمسى الرجل وذووه خيراً من الأخبار . هذا هو الاستبداد .

دولة عظيمة . جم تراؤها ، رغد عيش أبنائها ، يتقلبون في النعم تغورهم باسمه وألحاضهم غير زائفة ، يتسابقون ولكن الى المجد . يتنافسون الا ان تنافسهم في الفضل . ربوعهم أهلة وخيراتهم عميمة . لا يخافون مسيطراً الا كتاباً هو القانون ولا يتقون . مادياً الا الأجل المحتوم . أيديهم مطلقة في عمل ما يفيد ، مغلوله عن عمل السوء . تحفض الملوك رؤوسها أمام اراداتهم وتنصاع الحكومات الى اشاراتهم . لا يعرفون الحزن الا وصفاً ولا يجهلون من السرور طعماً ولا شكلاً . هذه هي الحرية .

الاستبداد الذى اشتكاه العثمانيون هو أكبر مما جاءت به هذه السطور

والحرية التي كانوا يقنعون بنيلها أقل بكثير مما مثله في الكلمات المتقدمة .
نعم كانت الأمة تريد شيئاً ولا تدري ما هو . كانت تشكو ولا تعلم
ما يشكيها . بل كانت لا تطمع أن تعلمه . فلما حل ميقات الخلاص انتفضت
فتساقطت من عليها نبال الظلم ووقفت مستبسلة لا ترجو الا الله ولا تريد الا
الوطن . حتى اذا ذاقنا وصال الحرية واستمتعت بحملها وشبابها علمت انها
كانت تن من أجل ذاك ودرت أن هذا مالا بد منه لحياة الامم .
بحسب أكثر الناس أن أبناء تركيا الفتاة محدثون . كلا ثم كلا . هذا
فريق عريق مطلبه مترق بترقي الأجيال . وأول من هاجر من الاراضى
العثمانية ناقماً هو الأمير (جم) الذي يسميه الأجانب (زيزيم) . وهو ابن
محمد الثانى من ملوك آل عثمان . ولد في سنة ١٤٥٩ . وهاجر مغلوباً من أخيه
بايزيد الثانى في سنة ١٤٨٢ وراح الى أوروبا تضيفه السجون وتتقاذفه أيدي
الملوك حتى قضى في أسر البابا (اينوسان) الثامن في سنة ١٤٩٥ مسموماً . على
أن هجرة (جم) لم تكن من أجل اصلاح ولكنها كانت النموذج الاول .
الا أن الامه العثمانية ، وان اتتبتها النوائب وتعددت فيها آفات
الاضمحلال ، أسعد الله صراراً يقوم تداركها وانتشلوها من وهديتها . واذا كان
(الصقولى) الشهير مجدداً بناء هذه الدولة فان (محمداً الكوبرلى) انالها
في سنة ١٦٦١ من الثراء والجاه ما لم يفز بمثله معاصره (ريشليو) . وقد شاء الله
أن يسير فيها على أثره ، بل أن يفوته ، حفيده (مصطفى الكوبرلى) الشهير
الوطني الذي لمع نجمه بعد سنة ١٦٩١ وما هو لاء الرجال تركيا الفتاة . فعلموا ولم
يقولوا . أصلحوا لأنهم أرادوا ولم يطلبوا الاصلاح لانهم قدروا على فعله .

أما مذهب التجديد الحق وقلب الإدارة العثمانية القديمة الى ادارة عثمانية جديدة على منوال الادارات في الممالك المتقدمة ، فأمر لم يكذب يخطر على بال أحد من قدماء العثمانيين قبل سليم الثالث . فانه أول سلطان بل أول عثماني ألهم هذا الرأي ، رأى القلب من القديم الى الجديد . ولى الملك في سنة ١٧٨٩ بمده عمه عبد الحميد الأول . فراه مضع الأركان بادي الضعف فقطن لوجوب الاصلاح وأوشك يشرع في انجازه ، لولا أن تعجلته الصروف بما لم يكن في الحسبان . فدخل الجيش النمساوي بلغراد والجيش الروسي بنهر اسماعيل ودارت رحى الحرب حتى اضطر أن يرضى بهدنة (ياس) سنة ١٧٩٢ ودخل بونابارت مصر واحتل فرنساويون بر الشام فاستعان على طردهم بانكرا واستخلص مصر من غاصبها في سنة ١٨٠٢ وقد ثار الوهابيون في أرض الحجاز وثار على باشا (التبه دنلي) في يانية وثار الصربون وقامت القيامة في داخل البلاد وانهمك هذا السلطان الجليل باطفاء هذه الفتن حتى أتى عليها . ثم رأى أن لا بد من ابطال الجنود (اليكيجرية) وجمع جنود مرتبة مدرية على النسق الاوروبي . فقد أيقن أن لاخير في أولئك الجبابرة الذين ظهرت سطوتهم في النهب والقتل والاعتداء على اخوانهم من بعد ما افتضحوا وخذلوا في حرب النمسا وروسيا . فأسس ثكنات عديدة وشاد (الخبره خانه) والمهندسخانة ونظم بعض الفرق من الجنود الجديدة . وبدا ثار اليكيجرية عليه وخلصه في سنة ١٨٠٧ ثم خنقوه في سنة ١٨٠٨ بأمر من مصطفى الرابع الذي ولى الملك من بعده . فقضى سليم الثالث شهيد الاصلاح وبقي عمله ناقصاً الى أن أتته السلطان محمود وطهر البلاد حتى لم يترك فيها من

اليكيجيرية أحداً واستراح واستراحت معه الأئمة . ومن هنا صبح اننا ان نعد
سليمان الثالث أول مؤسس لتركيا الجديدة أو تركيا الفتاة فعلاً .
ثم شاءت الأقدار أن تنال البلاد العثمانية نصيبها من التقدم على يد
الرجل الحر ، الشهير ببيانه ودهائه مصطفى محمد رشيد باشا . ومن عجائب
النوادر أنه ولد في سنة ١٨٠٢ هـ هي السنة التي نهادن فيها سليم الثالث مع
الفرنساويين بعد اخراجه اياهم من مصر . ولم يكن لهذا الرجل في صباه
من يمينه ويريه سوى أمه ولا من يحميه في شبابه سوى ختنه على باشا
المعروف (بالاسبارطه لى) وذلك الى سنة ١٨٢٦ . وقد عرف فضل نفسه
وعرف السلطان محمود فضله بعد سنتي ١٨٢٨ و ١٨٣٣ . وكان يرتو باشا يريد
أن يستخدم رشيداً في اصلاح هذا الملك فلم يمهله الدهر الى انجاز ارادته ونكب
بالنفي ثم بالقتل وبقي رشيد من بعده واهن القوى واهى الأمر . وقد
اختص بمودة انكثرا وولائها . ومن أجل ذلك انتهى من فرنسا من العدوان
ما أحبط كثيراً من مساعيه . وما لقيه من أعدائه المقربين من السلطان كان
أشد وأنكى . ولولا هؤلاء السفلى الذين يتزاحمون على أبواب السلاطين
ويتخاصمون على المكاسب لاستفادت الأمة من جد أعاضمها ولم يذهب
نصيبهم في غير جدوى . كذا بلى رشيد بحساد أبطلوا أعماله وحالوا بينه وبين
خير البلاد . ولم يزل يتولى زمام الصدارة ثم يبارحها من سنة ١٨٤٦ الى سنة
١٨٥٧ حتى قبضه ربه اليه . فهو ثاني المجدين بعد سليم الثالث وأول من
هذب اللغة العثمانية واستخلصها من حوشى الكلام ومستهمجنات المعجمة وفتح
باب الاصلاح اللغوى لشناسى الشهير .

ولقد جاء بعده رجالان عظيمان . أحدهما على باشا وهو نابغة المحررات الرسمية في اللغة العثمانية . نشأ في عز رشيد المتقدم ذكره وانتسب إليه وتفرد بحذقه ودهائه . ولى الصدارة في نحو سنة ١٢٨١ هجرية وبقي يفاخرها ويمادها خمس مرات . وكانت ولايته الصدارة خامس مرة في سنة ١٢٨٣ وبقي فيها الى آخر عمره . ولئن فاز على باشا في تذليل المضاعب اليونانية التي ظهرت في سنة ١٢٧٤ فلقد خاب في معضلة كريد التي أتت في عهده صدارته وقفل غير فائز منها بعدما قصد إليها بنفسه . وكان على باشا من القائلين بالترقي في المؤلف والاعراض عن المستجد . وكان يؤثر رضا السلطان على رضا الأمة . وكان يطارد أنصار تركيا الفتاة الذين وجدوا في عصره حتى لقد قامت الحرب بين كمال بك مع ضيا باشا وبينه . كلاهما عاداه وطات الحروب واشتدت الخصومات فألفاه أعداؤه خشنا عند المجس وصعباً لدى المراس مادام حياً ومثله فؤاد باشا الشهير الذي ولى الصدارة في سنة ١٢٧٨ فكان أول ما أتى به من جلائل الأعمال أن سعى في عزل مصطفى فاضل باشا من نظارة المالية ووشى به الى السلطان حتى أوقع بينهما العداوة والبغضاء وحرّم بذات الأمة من أبي الحرية وموجودها . ولبعض الكتاب في فؤاد هذا مبالغات لا طائل تحتها . ولم يكن الرجل الا من أنصار الفكر القديم . وقد مات بعد ما اختل عقله بالغا من العمر خمسا وخمسين سنة .

على أن أبا الحرية وصاحبها الأمير الجليل المرحوم مصطفى فاضل باشا نال الشرف وحده في مجاهدة الاستبداد . فكان هو ورشيد باشا قطبي المجد في الملك العثماني . ولكن تكاثرت عليهما الأعداء وقلت الحيلة وبقي

الأخلاف من بعدهما أن يسيرا على أثرهما .

ولى الأمير فاضل نظارة المعارف ثم نظارة المالية لا يتقاضى راتباً ولا يراقب كسباً . بل جاد بقناطير من الذهب ورثها من أبيه . فأهدى المعرض الأول الذى أقيم بالاستانة العلية خمساً وعشرين ألف ليرة وأهدى السلطان مراداً الخامس خمساً وسبعين ألف ليرة . وهاجر من عاصمة الملك يؤم بلاد الغرب حتى استقر به النوى فى باريس سنة ١٧٦٥ . وكان استصحب معه الشعارين الكاتبين الشهيرين كمال بك وضيا باشا . فجاهد بحاله ورأيه وجاهد صاحبه بقلبيهما ويراعيهما . فهذا قصور الظلم هذا . وسار على طريقه شهيد الحرية والوطن مدحت باشا الشهير . وما زال يجاهد ويسمل حتى تمكن من خلع عبد العزيز فى قصة معروفة يطول شرحها . وأجلس على سرير الملك مراداً الخامس .

فبينما يجتهد الأمير مصطفى فاضل مع صاحبيه اجتهد أبى حنيفة وصاحبيه ، اذ أتى عبد العزيز ، وقد تخلص من على وفؤاد بموتيهما واستخلص لنفسه محموداً نديماً المعروف عند العثمانيين بنديعوف . وانما سمي بذلك لأنه كان صنيعاً أغناتيف وأول من جعل السياسة الروسية رابحة السوق فى الماين . فانطلق هذا الخوون فى زمان صدارته يرتكب من الموبقات ما لم يسبقه اليه سواه . استغوى السلطان عبد العزيز حتى أغواه وحارب به الحرية والأحرار . ثم طاع مدحت فى سماء الصدارة فعنت الوجوه وشخصت الأبصار .

ولا بد لي من ذكر شيء من لائحة أبى الأحرار المرحوم الأمير مصطفى فاضل ، قبل الكلام على مدحت وأعماله هذه اللائحة أنفذها الأمير مصطفى

فاضل الى السلطان عبد العزيز حين مهاجرته الى باريس وأودعها من الحقائق والكلام الموجه مانزل على المايين نزول الحديد المذاب . وهذه اللائحة كانت كاعلان حرب من حزب تركيا الفتاة الذي تأسس اذ ذاك ، على السلطان المستبد . قال مؤسس الحرية الأمير فاضل بعد الديباجة :

أصعب ما يدخل قصور الملوك هو الحق . ومن يحيطون بهم يخفون الحق حتى عن أنفسهم . لأن هو لاء لما عاشوا في مركز الحكومة وبين لنتها ، حسبوا أن المشقة التي تكابدوها الرعية هي من فتورها . وهم يزعمون أن وقوع الدول في الضعف هو من حوادث الكون التي لا حيلة في درئها . لا بد من جرأة في الصدق ، ليبصر الحق ، من غير وقوع في الأوهام الباطلة . ولا بد من جرأة أكثر من ذلك لبيان الحق للملك . وهذا الصدق لم يتخط عبدك أبدا . واثباتاً لذلك أرجع الى ذاكرة جلالتك ومن كانوا سبباً في نفى الى ديار الغربة .

نعم ، لم تهياً الى الآن خدمة ترى الآثار البادية لهذه الصداقة واستعدادي لها . أي لم أتمكن من خدمة صالحة تستوجب اصلاح وطننا واعادة الحياة اليه . ولكني أول من أمارط الحجب عن وجوه الدول وعرض سيئات حكومتك وجراحاتها لذاتك الهايونية . وجل أفكار عبدك متجهة الى خدمة ذاتك الشاهانية . واني ، لا خلاصي لذاتك الهايونية ومحبتى لوطني ، لم يبق لي صبر للتفرج عن بعد على الأسواء التي أحاطت بنا ظاهراً وباطناً . واذا كنت على ثقة من المروءة التي اتصف بها قلبك الشاهاني عددت من وظائف التبعية أن أئين هذه الأسواء مرة أخرى ، غير كاتم منها

واحداً ، لنجد لنا سبيلاً الى خلاصنا في حينه .

مولاي صاحب الشوكة ، ان ما يقوم به في دولتك من أعمال الفوضى
وعاياك المسيحيون ، هي كلها من أعمال أعدائنا في الخارج . على أن الإدارة
الحاضرة أيضاً لها من ذلك نصيبها الأوفر . لأن أعمالاً لم يكن بها بأس فيما
سلف من الأزمان ، تلوح اليوم وكأنها ظلم وجور على الرعايا من كل جنس .
والأوروبيون يحسبون أن المظلومين والمتهنين والمحقرين كل التحقير في
تركستان هم من الأمة المسيحية المحكومة . وليس الأمر كذلك . ان المسلمين
ولا تحميهم دولة من الدول الغربية ، سحقوا ومحقوا أكثر من الملل غير
المسلمة . المسلمون كابدوا هذه الكرب الى الآن بما انصفوا به من النخوة
في الصبر والانتظاره . أما الأوروبيون فلا يعلمون ذلك . على أن المسلمين ،
لما كانوا من دم ذاتك الشاهانية التي بيدها زمام حكومتهم ، يعدون محبتهم
وطاعتهم لعرش سلطنتك من الأوامر القرآنية . ولكن اذن لي يا مولاي
صاحب الشوكة ، أن أقول لك : انه لم يبق للملة الاسلامية جلد ، لا على
الاخلاص ولا على احتمال الكرب . ان أصوات السخط وان عولجت
بالأسكات ما عولجت ، أخذت ترن في كل صوب . فانزالهم اذن الى هذه
الدركة من اليأس مضر بنفسك وبهم .

ان من سيئات أصول الإدارة الحاضرة التي ربما كانت على ما يخالف
رضاءك الشاهاني خاصة ويخالف رضا الوكلاء ، أيضاً ، بل من أنواع الظلم التي
لو علمت به ذاتك الهمايونية لأزاعته ، أن أعراض التناقض بدأت تفسد
في سلالة الأتراك يوماً بعد يوم وأن البعض من عبيدك الصادقين الذين

يفتخرون بأنهم من هذه السلالة العلية يرون قلة هذه الأمة فيأسفون أسفاً
حقاً . ولئن كان السبب الأصلي لهذا خطأ الأصول العسكرية ، إلا أن الأمر
الذي يخيف عبدك أكثر من ذلك ليس هذا . بل الذي يخيفني جداً من
أحوالنا الآتية هو ، كما يرى في الملل المحكومة ، ازدياد سوء الأخلاق الذي
عرض لامتنا العثمانية وتمكنه كل آن وانتشاره .

مولاي صاحب الشوكة ، محاباؤنا قبل أربع مائة سنة ، امبراطورية
الشرق من على وجه الأرض وجاؤوا البلدة المشهورة التي اتخذها قسطنطين
مقراً لملك العالم في أبهتهم وجلالهم وسكنوها . فما كان هذا الشرف التاريخي
الذي أحرزوه ناجماً عن غيرة دينية أو شجاعة عسكرية ، بل كانت الفيرة
الدينية والشجاعة العسكرية عكساً لاشعة أخلاقهم المالية ، وإنما نالوه لأنهم
كانوا مطيعين قوادهم . ولكن هذه الطاعة كانت قائمة على أساس حرية
اختاروها وقبلوا بها من أنفسهم وكان قلب كل منهم وعقله حراً فيما يختار .
ولا أدري أية حرية فطرية وأي شمم غريزي اجتمعا فيهم واستحدثا لهم
نظاماً وجعلوا أخلاقهم الحية ومشاربهم في حالة من الاطراد . هذا هو السبب ،
سهل لهم الظفر بدولة عظيمة قامت فيها حكومة الظلم وأضحت الذلة والمسكنة
وكل المعاييب الأخرى دستوراً للعمل .

هذا ما تيسر نشره من لائحة الأئمة الأمير الجليل مصطفى فاضل وكنت أود
تعريبها برمتها إثارة لدرر حكمها وإقراراً بفضلها لولا ضيق المقام . ولمدحت
باشا واسماعيل كمال بك ومراد بك لوائح عديدة رفعت إلى عبد الحميد الثاني
من بعد ، سخر بها وبكاتيبها وزاد اسرافاً في الدماء واستمرء للظلم .

وقد كان في خلع عبد العزيز والبيعة المراد . وعظما لعبد الحميد ، نهته
الى العناية بذاته دون ملكه حين أفضت السلطنة اليه بعد أخيه مراد . رأى
الشعب موعلا في ظلم الجهالة لا يدري من نعم الحياة شيئا . وبصر قوما من
نهباء العثمانيين يقودهم مدحت أبو الدستور . فقال أستميلهم كلهم بالدين حتى
إذا خضعت رقابهم وملكت نواصيهم أعمت فيهم الشفار القاطعة
واقتطفت رؤوسهم اقتطافا . وكان مدحت أخذ عليه عبدا بخطه أن لا يحيد
عن أسلوب الدستور وأن لا يستبد برأيه . فرضى بذلك ساكن « يلديز »
وأصدر إرادته بإتخاذ القانون الأساسى الذى كان اشترك في تحريره كمال بك
وضيا باشا وحرفه سميد باشا وفتح مجلس الأمة في سنة ١٨٧٧ الى أن ثبت
قدمه . وكان اسم مدحت يكاد يغطى على اسم السلطان . فدبت في قواده
نيران الحسد وأكبر أن يعلوه أحد رعيته مجداً وسودداً ويسلبه محبة الأمة
ولا يدع له من الملك الا تاجاً أذهبت تألقه الأيام وأبلى جدته العصور .
فأضمر له الشر ، ولكن كيف يقوى على ذلك ومعه رقيبان لا يفعلان
عنه ولا تسام ذمتاهما بأعلى المهور ، وهما كمال بك وضيا باشا . وكانا جملا مستشاريه
ومراقبيه . فدعا مدحت ذات يوم الى قصره وقال ان وجود رقيبين عليه
يخفض جانبه ويذهب بهيئته ويحقره فى أعين أمتة . ولعبد الحميد فى مثل هذه
المضايق حيل لا تحذله . ومدحت وان عرف بسعة العقل وخلص الطوية
وكثرة التجارب لم يكن من نظراء عبد الحميد فى مكايده . فدخلت عليه الحيلة
ورضى بما نوى سلطانه واستكان .

وما لبث السلطان العثمانى أن استطار كمالا وضيا كلا الى بلدة يحتكما



✽ على باشا ✽

ظاهرًا وبييت عانيها باطنًا. واستشعر مدحت بعاقبة الأمر وكاد يقضى ندمًا ولات ساعة مندم . ظفر الجبار أول ظفر وهدم سدين قوين بينه وبين الاستبداد . فبقي على طاغية الشرق إلا أن يتخلص من مدحت أما بسلم وأما بحرب ، ولا سبيل إلى أحد الأمرين . فأقام يترقب الفرص وفي العين قذى وفي الخلق شجا . فلما كانت سنة ١٨٧٧ وجعل الجنرال اغنايف مندوب روسيا في الاستانة يقترح مطالب كلها فضول وأبى نواب الأمة قبول تلك المطالب ، طاب السلطان نفسا وتحفز للوثوب على فريسته . فأعلنت روسيا الحرب المشهورة وخرجت الدولة العثمانية مكسورة القوادم منهوكة القوى . وعقدت معاهدة (سان استفانو) وكان مجلس الأمة تفرق جمعه ومدحت أسقط من مقام الصدارة وطرد من وطنه . إلا أنه بادر إلى برلين وما زال يسمارك

حتى استرضاه بمقد موتمر برلين بعد ما أقنعه بالحجج الدمغة بأن زوال الملك العثماني يفضي الى فقدان التبادل في أوروبا ويؤول الى حرب ملك الحرث والنسل وتأكل كل غارب ومنهم .

هكذا هزم الجيش العثماني . وتفرق نواب الأمة . فمنهم من ضافته السجون ومنهم من أدلى الى قاع البحر أو نفى الى الولايات البعيدة أو هرب ومكن من الخلاص . فطاب الوقت امدو الدستور والمقيم بالاستبداد وبقى القانون الأساسي ينشر كل سنة في التقويم العثماني الرسمي (السالنامة) وفجر بميثاقه من ينتحل لنفسه اسم الخلافة لرسول الله .

ولما كان هذا السلطان مرزاً بحب النفس والجاه والمال ، شديد الجبن ، دائم الوسواس ، قليل الثقة بأشد رجاله اخلاصاً ، كثير الارتياب لا يزول من قلبه الحقد ولا يفارقه حب الانتقام ، سل للأمة سيف البغي فجندل سراها وأذل أعزتها وجعل سافل ملكه عاليه . فألقت له الأمة الطيبة بمقاليد الأمور وأذعنت له أيما اذعان .

ولما أصبح الاوائل من رجال تركيا الفتاة وقد انصدع شملهم لم يبق منهم الا من غلب عليه الخوف فأثر السكوت على مضض أو فتنه المال فاختار النفاق ، حتى لقد صار جماعة من علية القوم وفضلائهم من رجال القلم جواسيس ووشاة وأغدقت عليهم الهبات وفسدت الطبائع فتم الولد على أبيه وعادى الأخ أخاه وخان الأمين الأمين وراجت أباطيل التعصب فتزلزل حملة العثمانيين والطيايس الى سدرة الملك حيث يدر النوال وترفع الأقدار .

وانما تهم رجال تركيا الفتاة على الملوك العثمانيين جهلهم وخبولهم وما ألفوه

من البذخ والترف وما جروا عليه من ظلم الرعية والتأله عليهم وانكارهم على الأمة ما تطلبه من العدالة وهي أصل الحرية والمساواة والاخاء . واستكبروا أن يكونوا كالمملوك في البلاد المتمدينة . وأبناء المملوك عندنا لا يربون على ما يفتح أذهانهم ويهذب أخلاقهم ولا يتقنون من العلوم الا مبادئ في أمر الصوم والزكاة والصلاة ولا ينظرون من الكتب المؤلفة الا في كل قديم منها مشحون بما لا يسهه العقل مثل (آلتى يارمقى) و (أنوار الماشقين) و (علم حال) ولا يتعلمون الا مالا يذكر من اللغة العثمانية في كتب مثل (التحفة الوهبية) و (بند عطار) و (كلستان) و (بوستان) ولا يلقنون الا بعض كل ما كان غريباً من جيده ورديته . ثم هم يرون كيف يعيش آباؤهم ومن هم فوقهم سنًا . فينغمسون في المالاهى ويقضون أيامهم بين الأ بكر العون من الولا ئد فى قصف وعزف ومعاقرة ولهو وهم بمعزل عن أمور الملك ولا يأذن لهم بمماناتها أحد ممن ولى الأمر خشية ورقبة .

أما رجال الدين وهم عيال الرجال فينبشون عن منسوخة الأحاديث وغير الصحيح منها فلا يروون للملك الا ما كان حثاً على طاعتهم مثل قولهم (قلب السلطان بين اصبعى الله يقلبه كيف يشاء) وقولهم (الملك ملهمون) وقولهم (اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة) . كل ذلك يفسدون به أخلاق المملوك تقريباً الى جفانهم واستجداء لحبواتهم فما يخرج هؤلاء الا يدخل السائلون المادحون ، ونسبيهم مسامحة شعراء ، ليمدحون الظالم سفاك الدماء وناهب العباد فيقولون له : (ان بين غلائلك فعدلا من الله وبين جنبيلك لروح القدس . يا مجزل العطاء ومولى النعم يا من

يخصب بأمرك المحل وتجري الرياح . وتنقاد لمشيئتك الأقدار وتحسد السماء الأرض إذ كانت موطننا لأقدامك ، يا ظل الله وباني الكون ، يا من عتبه فوق الأفلاك .) الى غير ذلك مما يستحى من ذكره ويشمئز من سماعه كل من كان في فؤاده مثقال خردلة من العقل أو الانصاف . ولا يكتفى أمثال هؤلاء بما أجهلنا قليله بل يختلفون لأنفسهم ما يمكن في قابو الملوكة مكانهم ويعلمها ويتحكمون به على الأمة وهي غافلة عنهم . فيروون مثل قولهم (علماء أمتي كأنبيا بني اسرائيل) ويأتون بآيات من القرآن العظيم لا تصدق في أحد منهم كقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وفيهم من بلغت به القحجة الى أن قرأ لفظة الجلالة مضمومة والعلماء مخفوضة ففسر الآية الكريمة بغير معناها الأصلي . أما الحكومة العثمانية فلم تشبه حكومة في الوجود . وما انتظم لها أمر في ماضيها ولا في حاضرها . ومثل رجالها كمثّل سكان الخيام في زمان الجاهلية . إذا وليهم سيد عاقل واتخذ بطانة خير وحاشية عدل انعش نفوس محكوميه وأحي موات آمالهم وإذا وليهم غاشم جب منهم الغارب والسنام وإذا هم مضض الذل ومرارة العذاب . تجبي أموال الرعية بلا حساب فيضيع بعضها في جيب الجاني وبعضها في جيب من هو فوقه . فلا يبقى لبيت مال الدولة الا ما تصدق به عليه السارق والناهب . فضالة ينفق جانب منها على طرب الملوكة ولذاتهم وجانب على المقرين من الفرائقة ويبقى الموظف الصغير صفر اليد أو تدرك أمره رحمة فينبذ اليه بما يسد به رمقه .

فالى مثل هذا نظر رجال تركيا الفتاة وتوقعوا منه سواً وأحبوا أن يقدوا ملكهم ووطنهم بأرواحهم .



• ﴿ فؤاد باشا ﴾ •

واذ كان الأوائل من رجال تركيا الفتاة فنى أكثرهم ولم يبق من شيعتهم من يعول عليه كما تقدم ذكره فى هذا الفصل أخذت جماعة من الناشئين الأحداث ممن تأدبوا بأدب كمال وتعلموا من كتبه الخالدة على ممر الدهور واستناروا بآرائه وآراء من كان معه ، تنوب عنهم . فكانوا يتشاكون فيما بينهم مما يرون من سوء المصير . وقد ابغضوا السلطان لما اقترف من الآثام ولحنثه بيمينه . وكان كلما أحس السلطان بنهضة سلط أعوان تقمته فشرذ دعاها وبدد سرايتها وكاد لها كيدا . ولقد بث الجواسيس وفتح أبواب السعاية والنميمة لكل خامل الذكر عاثر الجدل لئيم الأصل . فمن دله من هؤلاء اللؤماء على نبيه ليذهله وفاضل لينتقصه وعائل يؤيم أهله ويبت يخرجه على صاحبه أجزل عطاءه ورفع منزلته . ولقد أقصى عن دار الملك كل أريب صادق وفى

وقرب منه كل خوون ممقوت .

فلما حدثت المذابح الارمنية التي وقعت في سنة ١٨٩٥ حنق أكثر أنصار الحرية من العثمانيين واستمعوا ان يدعوها نمر بهم غير متألمين . فكان فيمن حنق على الحكومة الحميدية مراد (الطاغستاني) . رفع كتابا طويلا الى عبد الحميد أدمج له فيه وصف التهلكات المحيطة بالملك العثماني وأبان له عن مصير الظلم . الا أنه أحس بالشر وعرف أن عبد الحميد لا يترك جرأته بالأحساب . فخرج من الآستانة طالبا نجاته . فنزل بمصر وأصدر فيها جريدته (ميزان) التركية التي كان يصدرها بدار السلطنة قبل دخوله في خدمة الحكومة وكان السلطان أمرا ذاك بتعظيمها لما نشر فيها من الرئاء لكمال بك الأعظم شهيد الأدب والوطن . وكان لمراد منزلة كبرى في قلوب كثيرين من تلامذة المسكتب الملكي لأنه كان معلما لهم في التاريخ . ففاضت جريدة (ميزان) من الشهرة والارهاب بما أفرع عبد الحميد على سريره . ثم قضت الصروف على مراد بالخروج من مصر فسافر الى (جنيف) وأعاد إصدار ميزانه هنالك وألف جمعية لمكافحة الدولة الظالمة وجعل نفسه رئيساً لها . وإذا ابتلى الله العثمانيين بالحسد وحب الرئاسة في مثل تلك الاوقات نشأ الخلف بين مراد وبين أحمد رضا . كل رأى نفسه أولى من صاحبه بأن يستقل بالاثرة ويتفرد بالسيادة وكل رأى في مناوأة الظلم رأيا لا يشا كل رأى صاحبه . فأخذوا يتراجحان ويتباريان حتى استرجع مراد الى الآستانة بعد ما ترك لاسمه دويًا في أرجاء أوروبا والممالك العثمانية ملأ الأسماع وكاد يستولى على القلوب . وتفرقت من بعده جمعيته ولم تقم لها قائمة منذ ذلك .

ورأى عبد الحميد في رعيته أمارات الضجرواستشعر من أذ كياه الأمة
انتباههم فعمد الى قوته يضرب بها ضعفهم وغفله الله عن اصطناعهم بالجميل
واخضاعهم بالعدل وسياستهم بالحكمة ، وزين له البنى أعوانه وقربوا منه أسبابه .
فضاعف عدد الجواسيس واستبد على الناس فداخلهم حتى في وليماتهم ومناحاتهم .
ففنى صبر المتعاملين وخاف العقلاء ، عاقبة هذا الجور . فاجتمع فريق من الفضلاء
وألّفوا (جمعية الاتحاد والترقي العثمانية) في نحو سنة ١٨٨٩ . وجعلوا مركزها
الاعظم بسلانيك . ومركزها العظيم بمناسير ؛ ونهض أنور ونيازی يتقدمان
صفوف المجاهدين في سبيل الحق ويستصرخان بكل صادق الود ثابت العزم
من كبار الأمة وأهل نجاتها حتى كان هذا الانقلاب .

نعم وفّت الجمعية وأبطالها بسهمهم فوفى الله بعهده . وانما قرب لهم الأسباب
وسهل لهم ادراك الطلبة افراط عبد الحميد في الظلم ومبالغته في الاساءة . وقد
آنس ذلك قبولا في طبيعة الرعية للخير واستعداداً للمجد واستحقاقاً للفخر
فقويت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة .

واذا لم يشأ رجال الجمعية المقدسة وبطل الحرية نيازی الكبير أن
يقولوا شيئاً في تاريخ الجمعية وكيفية تألفها واعتدروا بأن هذه أسرار لا يمكن
افشاؤها فاولى رجال التدوين ، امساك القلم عن الخوض في هذا الباب تفاديا
من الشطط واجتنابا للوم الأصدقاء .

(مذابح شهداء الحرية من اخواننا الأرمن)

مثل هذا الفصل يحتاج الى أنامل (روبنس) مصور اللوح الشهير الذي سماه (مذبح الأبرار) . فان أنامل الشاعر المجيد والكاتب المبدع لا تنفى بفرض ولا تأتى بفائدة فى وصفه . الكلام على مذابح والمذابح فيها جثث والجثث معصفرة بالدماء والدماء تجرى على بطاح والبطاح بها حجارة صلبة وهشيم يابس ونهر دافق ومشهد العين غير خيال الفكر والفكر يستمد من العين فهي ينبوع العلم والفكر مجلى المعانى . فليكن الكلام على قدر الامكان لا على قدر الواجب .

البلاد العثمانية تعمرها أمم شتى ، متباينة الأجناس ومختلفة المذاهب . جمعت بينهم القوة وفرقهم العدوات . فهم اخوة يسكنون داراً واحدة ويستظلون بسماء واحدة وينهلون ويعلمون من مياه متجانسة منذ سبعة أعصر ، ولكنهم مع ذلك متنافرون . يسقيهم وطهم بكل صاف نهر ويسقونه بالدم المسفوك . أم على مقربة من الموضع الذى يزعم أهل القصص أن قابيل قتل هابيل فيه فعدتهم الحال بمرض أحد الآباء ، قتل الأخ ل أخيه ؟ أم اختاروا سبيل الجناية حباً فى الجناية ؟

السلف أخطأ الحكمة ولم يحسن السياسة . كذا قال التاريخ ولا بد من تصديق التاريخ . هم أحبوا الأنبياء وشاؤوا أن يكونوا كالأنبياء السنأ لا قلوباً وحالا لا ذاتا . فما اختاروا من قصة موسى الا عبادة العجل ولا من تاريخ

عيسى الا الصليب ولا من وقائع العدائى الا حال أبى لهب . تشاغلهم بأنفسهم
لم يدعمهم يرون غيرهم وصيحاتهم منفرهم عن سماع أصوات الأمم . حتى اذا
تضاءلت شمس الشرق ولم يكف شعاعها لانهارة ربوعها وطلعت بأفاق الغرب
شموس كثيرة وقفوا وقفه المجهود ينظرون الى بعض . فاذا بهم دامية اظفارهم
دامية أنيابهم دامية لهواتهم بادية أجسامهم تعلوها أطمار بالية رثة . حسبوها
بقايا ثياب فاذا هي قطع اكفان !!!

قال قائلهم هلموا نطلب علما . صدق القائل . لله در القائل . ما أ كبر
عقل القائل . وما هى أن أنشئت المكاتب وفتحت المدارس وألفت الكتب
على النمط الجديد وقالوا مالنا وللاديان تلك أمور بين الخالق وخلقه . القلوب
الواح محفوظة لا يقرأ ما فيها الا الله . وما نحن الا اخوة . وحدة حال ووحدة
مصير لا يتفقان . فغم ذلك الصفاء أهل الدين أولى التمسك ، من يعمر
المساجد ليستغنوا بها عن تكاليف المنازل فيتخذونها مساكن ويشيدون الزوايا
والتكايا ليصيبوا فيها ما كلهم وأقواتهم . فهبوا يغالبن المخلوق باسم الخالق
وأنت الدولة الحميدية وشيد صرحها الممرد (يلديز) . فوجدوا منه أكتافا
موطاة للمزاحمين وآذانا سمعية للواشين قالوا . النبي يا صر . قال وأنا خليفة
أفعل . قالوا : الدين يفرض . قال : وانا حاميه أقوم بما فرض . وماذا فعل لادر
دره ؟ جعل بيوت الحكومة كالمساجد ترن على سلامها أصوات المؤذنين
وصير المكاتب كالمدارس الدينية تقام فيها الصلوات وتقرأ كتب الدين
ويزرع التعصب في قلوب الشباب فتتمو معه نفوسهم وترسخ عليه طبائعهم .
فكان المفطر منهم في رمضان يزرع في السجن والقاتل مطلق السراح يمشى

في الأرض مختلفاً .

— ألا تخشى يا ولي الدين أن تغضب المتدينين بهذا الكلام ؟

— كلا .

— ألا تجده سابق أوانه ؟

— كلا .

— اتجراً بعدها أن تسكن البلاد العثمانية ؟

— نعم . لأكثر فيها من مثل هذا الكلام . وليست وحيداً في انصافي .

وأهل الانصاف عددهم كثير .

— اذن فأنت جدير بالرئاء .

— ربما رثيتني اليوم وحسدتني غداً . اذا سكت الكاتب الحرائثي عشر

عاماً ثم لقي الحرية ينطق بمثل ما ترى . فلا تقل سكت دهرأثم نطق كفرأ .

ولكن قل

وذو الشجر القديم وان تسلي * محب حين يلقي الماشقينا

أرى حولي أحرار العثمانيين فأغنيهم بغنائنا . ولكل اصرى غناء يطربه .

ثم الحروف التي توصف بها الدماء تكون حمراً . فلنرجع الى ما كنا بصددده .

تعصب أكثر العلماء وجهل الرعية وظلم الحكومة أتى البلاد بثلاث

مذاهب مختلفة : أولاها مذبة الشام . وقعت في سنة ١٨٦٠ . أضرم جاحها

وأجزل وقودها أحد الباشاوات بأمر من الباب العالي . فطلبت انكاثرا

وفرانسا من الحكومة العثمانية تحقيق الأمر وعقاب من ثبت عليه جريمة

التعريض . فذهبت الى الشام هيئة محققة اشترت رضا الباشا وسارت على



﴿ البطريرك نرسيس ﴾

ما أمرتها به الحكومة . غير أن انكلترا وفرنسا لم تقنعا بذلك وأصرتا على طلب التحقيق . فتبين ذنب الباشا . فطلبت هاتان الحكومتان اعدامه ليكون عبرة لغيره . وكان سفير انكلترا في الآستانة اذذاك (أرل رسل) ومعتمدها في بر الشام (اللورد دوفرين) . فزعمت الحكومة العثمانية أن قتل الباشا قد يستثير المسلمين ويدفعهم الى قتل المسيحيين عامة انتقاما وتشفيا وربما تعدى ذلك الى رعايا الدولتين . فكان جوابهما الاصرار بعقاب الباشا . فأعدمته الحكومة التي أوعزت اليه بالفتنة ولم تحدث هنالك أشياء مما ادعت تخوفها منها .

ثم وقعت مذبحه البافاريين في سنة ١٨٧٧ . وقد هي الباب العالي زعماء
الفتنة وذهبت مساعي (اللورد بكسفيلد) غير مجدية تماماً .
ثم جاءت المذاهج الأرمنية ولا بد من إعادة النظر قليلا في أسبابها لكي
يتسنى لنا استخراج نتائجها .

أكثر الناس لا يعلمون ما حمل بعض اخواننا الأكراد على مباغضة
اخواننا الأرمن فهم يلتمسون الأسباب ولا يجدونها . وان من تلك الأسباب
التي خفيت عنهم أن قبائل من الأكراد كانت فيما مضى من الزمان أرمنية
ثم آثرت الدين بدين الاسلام ابقاء على حريتها وتوحيدها لنيل رغائبها . فبزت
قديمها ودفلت في جديدتها . الا أنها ظلت محقرة عند أخواتها مرزاة في
غلواتها . فمن هذه القبائل المتغيرة قبيلة (ماميقون) الكردية . كانت من
امارة (ماميقونيان) الأرمنية وقبيلة (بكران) الكردية . كانت من اماره
(باقرا دونيق) الأرمنية وقبيلة (ريشقون) الكردية . كانت من اماره
(رويشتونيق) الأرمنية . والمتأمل في توافق الأسماء لا يرى مناصاً من التسليم
بصحة مارواه التاريخ .

ولم تزل الأضغان تتزايد بين هذه القبائل واخواتها الأرمنية حتى أدت
الى التقاضي الى السلاح . واذ لم يكن عند الاكراد ما عندهم اليوم من السلاح
الجيد والعدة الوافية كانوا يهزمون أعداءهم تارة ويهزمون أمامهم تارة أخرى
ولكن عقلاء الأرمن أوجسوا من دوام هذه المعارك شراً . فأحبوا أن يحلوا
الوفاق محل الشقاق وأن يستعوضوا بالاتحاد عن الخلاف . وأول من اتبعه
منهم لهذا الرأي الصواب هو البطريرك الشهير (نرسيس) وبين سنة ١٨٧٨

وسنة ١٨٧٩ قام وفد من بيكوات الأكراد يريد القدوم الى الآستانة
للمذاكرة مع البطريك في هذا الباب . فلما أحس بذلك عبد الحميد أكن
للبيكوات من اغتالهم في طريقهم وأحل بهم الردى . وهكذا خابت آمال
(نرسيس) الحكيم .

ثم عنّ لعبد الحميد أن يتخذ سداجة الأكراد وعداوتهم الأرممن ذريعة
للايقاع بالأرممن وليجعل للرعية ما يصر فيها عن الاشتغال بأعماله ويستزيد لنفسه
قوة يركن اليها عند الفزع الأكبر . فاستحدث الآليات (الحميدية) من
أخلاق وزمر . فمنها الكردية وهى الأكثر ومنها العربية ومنها الجر كسية .
وجهزهم بالسلاح الجديد وأمدهم بالميرة وكل ما يحتاجون اليه جما وافرا .
وحين فاز الأكراد بهذه الأهبات وباتوا مدججين سلاحا والأرممن معازيل ،
رجحت كفة الأكراد فى الضراب وخفت كفة الأرممن وعليهم دارت
الدائرة . هذا ما يتعلق بالأرممن مع الأكراد .

ولكن يجب أيضا النظر الى المذابح الأرمنية من جهة أخرى .
الأرممن كابدوا من ظلم المسلمين والحكومة المستبدة لاسيما فى طريق
بر الأناتولى مالا تصبر عليه القلوب وحملوا من الضيم ما تكل عنه المتون .
ولكنهم أبناء الشرق ، وأبناء الشرق نفوسهم أبية . فندشطوا الى العمل فى
جد متواصل طلبا لما يستخلصهم من اذلال اخوانهم اياهم . فما وجدوا سبيلا
هو أقرب الى المراد وأنفذ الى النجاة من طلب العلم والصناعة والاستفادة
من معجزات العصر الجديد . فكان منهم المهاجرون الى أقاصى البلاد
والمتراحمون على أبواب المكاتب والمتنافسون فى تشييد مكاتب أرمنية . وما

برحوا يترا كضون الى الاستنارة بأنوار المعرفة حتى توافوا الى مشرق نورها
ومطلع نيراتها وهم كلما زادوا توغلا في العلم زادوا معرفة بأساليب الحياة فغيروا
مارأوه غير صالح من قديم العادة واستبقوا ما كان صالحا . فما مضت اعوام
قلائل على نهضتهم هذه الا برزوا على مواطنهم من المسلمين . أما المسلمون
فلم يربدوا النزوع عن ميراث السلف الا قليلا وعادوا الاستفادة من علوم
الغرب واقتفاءه في ترقيه شائنا لكرامة الدين . وعند التفاضل ظهر فرق
الامتين وأحرز الأرمين نصيب السبق . فكان هذا داعيا الى حسد المسلمين
لهم وامتعضهم منهم : والأرمين عرفوا حدا ما عليهم للحكومة ومالهم عليها .
فرضوا أن يهبوها حقها وأن يطالبوها بحقوقهم وكبر هذا على الحكومة لانها
كانت لا تحب النصفة وكبر على المسلمين لأنهم لم يكونوا يعلمون أن للأرمين
حقا على الحكومة وهم يعلمون أن الحق لا يكون الا للمسلمين دون سواهم .
نم كان في جماعات المسلمين رجال رزقوا العلم واشربوا حب الوطن اعترفوا
لاخوانهم المسيحيين بالحق وأرادوا انصافهم وودوا مشاركتهم في مطالبهم .
غير أن قلة العدد خذلتهم في مناوأة الحكومة والسلطان الظالم وظلوا في أعين
الجهلاء بمنزلة الأعداء .

وكانت بمدينة (وان) شركة اسمها (مياتسيال أنكرجون) وممنها
الشركة المتحدة . أسست لاستحضار ما تحتاجه المدارس الأرمنية من كتب
ودفاتر وأقلام وقراطيس وغيرها من الأدوات المكتبية وجعلت لهذه الشركة
شعب في سائر الولايات العثمانية ونصب لها مديراً رجلاً من جلة الفضلاء
اسمه (مغرديج پورتقاليان افندي) . ولما رأى تخلى المسلمين عما يرمى اليه

بنو جنسه واستعكم اليأس من فؤاده وأفئدة من هم على شاكلته من نجباء الأرمن أسس جمعية خفية في (وان) سماها (جمعية آرمناقان) وذلك في سنة ١٨٨٠ . وجعل أساس مقصدها حماية الحقوق الأرمنية من الضياع . وفي سنة ١٨٨٥ قبض عليه وعلى أحد رفاقه في سعيه وهو البطريك السابق المرحوم (خريمان) أفندى وأخذوا إلى الآستانة وكان وشى بهما البعض إلى السلطات . ولما لم يجدوا ما يرجح التهمة عليهما أدخلوا سبيلهما فساد (پورتقاليان) أفندى إلى (مرسيليا) وأصدر فيها جريدة باللغة الأرمنية سماها (أرمينيا) وهي لا تزال تنتشر إلى اليوم وانتقل مركز الجمعية أيضاً إلى (مرسيليا) وهو كائن هنالك إلى يومنا هذا .

وفي سنة ١٨٨٥ حين كان البطريك السابق (أورمانيان) مطرانا بأرضروم ، أحست الحكومة المتقلبة ان قد أسست هنالك جمعية أرمنية اسمها (خنجاقي) . فأخذت إلى الآستانة أناساً كثيرين لتستطلع منهم سر الجمعية وما يتعلق بوجودها . فلم تقف منها على عين ولا أثر . وسافر (أورمانيان) إلى الآستانة وبقيت الحكومة بين الشك واليقين في التصديق بوجودها . وانما أسست هذه الجمعية ببافيس وولى رئاستها رجل من رعايا الدولة الروسية اسمه (نظريك) ثم جعل فرع تابع لها في أرضروم .

وقد الفت بعد هذه جمعية (طروشانيان) أو (طاشناقساغان) في (جنيف) . واذ كان أكثر أعضائها من الأرمن التابعين لروسيا ، لم تكن محلاً لشقة اخواننا من الأرمن العثمانيين . وهذه الجمعية تميل أيضاً إلى مذهب الاشتراكية . وهناك جمعيات أخرى لا أعلم من أحوالها ما أثره بالذكر فلا

أرى مندوحة للخوض في أعمالها .

الخرج يعلم الحيلة وتوالى العقاب يستولد البغضاء ولو كان عدلا . فكيف به اذا كان ظلما ودوام الاساءة يحول دون استمادة الصفاء . هذه ثلاث قضايا ضرورية فرغ العقلاء من التخالف فيها . لما حقت على اخواننا المظلومين ، عملت جمعياتهم بفحواها . وفي سنة ١٨٩٠ قامت جمعية (خنجاك) بواقعة (قوم قبو) وهي براعة الاستهلال في النهضة الأرمنية . وفي سنة ١٨٩٦ قامت جمعية (طاشناقساغان) بواقعة البنك العثماني . كلتا الواقعتين وقعت في عاصمة الملك العثماني لتكون بمشهد من أعين سفراء الدول وبحضرة عبد الحميد . أرادت الجمعيتان الأرمنيتان أن تعلمتا حكومة الاستبداد أن الشعب الأرمني تقض عنه تراب الذل وأنه يأبى الاستمرار في طاعة كلاًها تكلف . فجاءوا لسائر اخوانهم العثمانيين بمثال من النخوة كان يجب أن يحذوا على منواله . غير أنه لم يقر عيناً بذلك سوى فريق من رجال الحرية أضجرهم الظلم . أما الباقون من المتعصبين والجهلاء ومن أسعدهم الاستبداد وعلت أقدارهم في دولته . فقد أغضبهم ذلك وأقبلوا بجمعوهم يقتلون الأرمن . فكثرت المذابح وحمى الوطيس بين العنصرين المسلم والأرمني بعد أن كان الأمر بين الأرمن والحكومة وذهب كثير منهم غدرا اذ لم يكونوا من جمعية من الجمعيات الثائرة ولا من شاركوها في أمر من الأمور .

فلما وقع القتال بين هذين العنصرين العثمانيين زاد اكلاهما بعداً عن صاحبه ونبتت بينهما الاحن . فعلم الأرمن أن لن يكون مقام رغد في البلاد العثمانية وعدوا أنفسهم غرباء فيها . فكان منهم المطالب باحياء دولة (أرمينيا)

ليعيشوا فيها منفردين. وكان منهم من يؤثر الصبر ليرى ما سيكون من عاقبة
البغي. وكان منهم من يحب الهجرة الى أمريكا وأوردها تاركاً وراءه وطنه
واخوانه، يأساً لاهجراناً وفراراً لآخولاً. فأدى ذلك وما تلاه من تعمم القتل
والسبي فيمن هم بالاناطولى من الأرمن الى توسط الدول الأوروبية وطلبها
من الحكومة المستبدة كف أذاها عن المسيحيين وانفاذ ما نهدت به للدول
من الاصلاحات. فلم يجد كل ذلك نفماً. وجملة ما احتال به عبد الحميد على
الحكومات المتعدية حتى خدعها تنصيبه لبعض ولاة الاناطولى معاوين
من مسيحيين ومسلمين وفتح باب الهجرة لمن يريد (ترك التبعية) من
الأرمن. وهو أمر يراد به ظاهره دون حقيقته. فكم رأيت جماعة من الأرمن
يطرقون أبواب الحكومة طالبين الاذن بالسفر الى أمريكا، فيطالبهم رجال
الحكومة بما يكون عليهم من جزية ومال. فاذا فعلوا ذلك كلفوهم اثبات
برائتهم مما عساه يكون صدر عليهم من حكم وأعيق عن الانفاذ أو لم يكن
انتهى من المحاكم. فاذا كان هذا طالبوهم بضمان على أن لا يعودوا ثانية الى
الى الاقطار العثمانية. فاذا جاؤا بذلك الضمان أمروهم أن لا يدعوا وراءهم
مالاً ولا عقاراً ولا أهل قرابة وأن يدعوا في دائرة البوليس صورهم
القطوغرافية ليعرفوهم بها اذا عادوا. وبعد هذا العذاب الطويل يسمعون من
وقاحة المأمورين وشتيمهم وانتهازهم ما تندى له الجباه. ثم لا سبيل الى انجاز
شيء مما سبق ذكره الا اذا جاء المهاجرون بالدرهم وبذروا في الجباء تبذيراً.
ولربما خرجوا مسافرين ومعههم نساؤهم وبناتهم فتتلاحق بهم خيل
الاصوص ويحيط بهم جماعة من السفلى فيصيبهم من مكر وههم ما يعيقهم عن

الخلاص . وويل لهم ان رجعوا يومئذ مستصرخين ببدل الحكومة أو طالبين خلاص من سبي منهم . اذن تقوم عليهم القيامة ويعظم الخطب . وقد صدق أحد شعراء الحماسة اذ يقول :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى	بنو الاقيطة من ذهل بن شيبانا
اذن لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة ان ذو لثة لانا
قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وان كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر فى شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن اساءة أهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق نخشيتة	سواهم من جميع الناس انسانا
فليت لى بهم قوماً اذا ركبوا	شدوا الاغارة فرساناً وركبانا

من الوقائع ما تروع القارىء ، وتستطير له . فكيف بكتابها وهو يتكلم منها ما لا يقوى على تسطيره طوراً رحمة وطوراً حياء . والأنباء الآتية من الأقطار البعيدة يحسبها البعض مبالغاً فيها ويحسبها البعض مخترعة ، ولكن الذين يظنون بها المبالغة أكثر . فمن سمع فى سائر البلاد ما نزل بالأرمن من المصائب قال هذه من مكر الأرمن ولم يشأ تصديقها . ثم هناك أناس يقولون لنا ان الأرمن أعداء لنا ويزعمون أنهم هم المعتدون دائماً وأن المسيحيين لا يخلصون للمسلمين وداء ولا يصفون لهم سريرة . وينعتونهم لنا بالكافرين وأهل النار وغير ذلك من كلام الجهل والجنون ، وبسطاؤنا يصدقون هذه الباطلات حسن ظن منهم بقائلها ولبعدهم عن مواضع العلم وفهم الحقائق .

فإذا ذكرت لهم تلك الفظائع لم تهز منهم موضعاً من قلب . ومنتهى انصافهم أن يقولوا ان الأرمن جنوا على أنفسهم .

هذا كلام قد يعذر عليه الجاهلون من السوق والمحرومون من نعمة العقل ولكن ماعذر جماعة من المؤلفين وأصحاب الصحف ورجال الرأي اذا قالوا ذلك . أما والله وددت أن اطوع القلم في جماعه ولكن أخاف ما أثور القول .

المذاهب الأرمنية التي كانت بالآستانة وبغيرها من أقطار الأناطولى ذكرت في حينها . فمنها ما جاء مفصلاً في الجرائد وطيرها البرق في روايات مختلفة ومنها ما كتب في رسائل خاصة بها . والتزام الإيجاز في هذا الكتاب يمنع استعادة ذكرها . غير أن هناك أشياء قد لا تكون ذكرت بل ربما كانت خافية عن كثيرين ممن يستقصون مثل هذه الوقائع ، أذكرها لتكون أمثلة لما كابده اخواننا المظلومون . وهذه النوادر أرويها عن شهداء ممن عرقهم بسيواس .

لما اتصل بأهل سيواس ماجرى للأرمن . افرقوا فريقين . فأما فريق المسلمين فأخذ يتأهب لمحاربة الأرمن اذا بدر منهم اعتداء عليهم وأما فريق الأرمن فذهب خاصتهم الى جماعة من الأجانب يسألونهم ان كان هناك ما يخيفهم . فذهب هؤلاء الأجانب الى خليل رشيد باشا والى سيواس اذ ذاك واستطلعوه جليلة الأمر . فقال لهم ان الأرمن معتدل في نصابه وأن لا خوف من وقوع أمر جلال وأنه ساهر لتنام الرعية . ثم شاع بين المسلمين ان الأرمن على أهبة دائمة وزعم جماعة من الرعاع أن أرمنيين أبصر اربع سيدات

مسلمات في الطريق فاعترضناهن وقالوا لهن غداً نقتل رجالكن ونتخذ بهضكن
ساقيات وبهضكن ولائهم . فزاد ذلك من حقد المسلمين والأرمن لا يعلمون
شيئاً مما يقال عنهم من هذا القبيل . غير أنهم باتوا يتوجسون خيفة حين بدت
على المسلمين امارات الغضب والفتوا عنهم الوجوه . وما مضى بمدداً طويلاً
زمن حتى قام المسلمون وأعمالوا في الأرمن القتل والقتل ودخلوا بيوت
التجارة وأكثرها في بناء عظيم اسمه (طاش خان) ، أبوابه من الحديد .
فما زالوا يضربون تلك الأبواب بالمعاول ويرمونها بالرصاص حتى انفتحت لهم .
فما تركوا هنالك شيئاً . وتلاحق الجنود والوالى يصيح بدار الحكومة ليكفوا
وهم لا يكفون . وبعد قتال دام يومين ، كفت المذابح . ومما تقشعر منه
الابدان أن بعض أولئك الوحوش كانوا يذبحون من عثروا عليه من الأرمن
بالمناشير . وقد رأى قوماندان الرديف الفريق محمد خلوصى باشا الذى توفى
منذ عامين أناساً من المعتدين أحاطوا بأرمنى وكان يصنع له أحذية وله
قبله دين لم يوفه . فاستجار الأرمنى بالقوماندان وقال يا مولاي عبدك
يقتلونه ولا ذنب له . مرهم بحق مروءتك أن يهبوا حياتي لأولادى الصغار .
قال القوماندان أنت كافر وأولادك كفرة وأشار الى من أحاطوا بذلك المسكين
أن يجهزوا عليه ففعلوا . وقد انتهز السفلى هذه الفرصة فاختطفوا البنات
ونهبوا المال نهباً لمأ . . فترى اليوم أكثر تجار الأرمن وقد أصبحوا
لا يملكون قوت يومهم وأثرى بما لهم المنهوب غيرهم من اللصوص فأمسوا
من التجار .

ولو كان المسلمون أنصفوا إخوانهم المسيحيين بل أنصفوا أنفسهم

واتحدوا في القيام يدًا واحدة على الحكومة المستبدة لنالوا حريتهم منذ أعوام
مديدة ولا استبقوا محبة اخوانهم .

نعم غضب الأرمن من المسلمين عامة ومنا معشر الترك خاصة ولا
يبعد عن العقل أن يكونوا اتفقوا بينهم أن يتخذوا أعداء . فاذا صبح ذلك
فهو أمر حادث ولستكنهم لم يكونوا كذلك . فباطلما بكوا البكاثا وشاركونا
في ضرائنا ومنعناهم أن يشاركونا في سرائنا . وكانوا يظنون أننا شركاؤهم
في التشكي من استبداد المستبدين فأرونا صاغرين لا تأتي حراكا ولا ننطق
بلوم . ثم لم نبت أن نخضبنا إلا كف بدماء نحن أحوج الناس الى حقنها .
كثير من الأرمن تركوا جمعياتهم وشاركونا أحرارنا وقالوا نحن عثمانيون
فلتكن رغائبنا عثمانية وخالفوا بعض القائلين من أبناء جلدتهم باحياء (ارمينيا
الجديدة) وقالوا هذا محال ولو كان لما أفاد .

فمن فضلائهم الذين فقد منهم العثمانيون دعاء مجد رفيع وسيف نجدة
ماضى الفرارين ، الشاعر الاديب الفاضل المرحوم (ناربي لوسينيان) . مات
في سنة ١٨٩٤ مسموماً . هذا النابغة هو من رجال الرهبانية وله آثار تفتخر
بها الأوطان . كان صادق النية حرا النزعة عثمانياً جسماً وروحاً . ولكن استكثره
عبد الحميد على العثمانيين كما استكثر غيره فسقاه الردى وأسكت يراعاً نحن
أحوج العباد الى صبره .

كفى كفى . ولنختم هذه الصحيفة السوداء وليكفنا منها أن نستشهد
بها علينا الايام . فاذا قرأها العثماني الصادق فليتخذها ذكرى وعبرة واذا قرأها
غير العثماني فليشق ان هناك ناقلين كثيرين مثل كاتبها . واذا التقى حر يقيم

من أيتام هذه المذابح وقال انا ابن من ذبح بالمنشار ، أو رأى فتاة في أسرة
 لا لبسة سواداً كنجم الثريا يبدو في الظلام وقالت أنا بنت من طعن في فؤاده ،
 أو قرب مجلسه من سيدة أيم وكان محباً لزوجها وقال لها أين صديقي فلان
 فاعرورقت عيناها وقالت له قتله ابن عمك فلان ، فليطأى الرأس وليقل
 لا لبسن معكم ثياب الحداد ولا أهين عرضكم ولا تكونن لكم أخاً ومعيناً مادمت
 حياً . وإذا وقف على قبر قفر الجوانب في بلقع يغلي هجيره وتسفى الرياح
 عليه المور فيقل عليك السلام أيها الاخ الشهيد ، الأرمي المظلوم ، نعم ما طل
 حيث كنت ولا وتر لك دم فلان جار عليك المتعصبون فلينصفن من
 بملك الأحرار .

﴿ جرائد العثمانيين الأحرار بمصر وغيرها ﴾

عشق الحرية أضنى أفئدة العثمانيين وفي الغرب ناس كادوا يسأمون
 وصالحها . والعشق يصقل الفكر ويرى اللسان ويسير الأقدام . وعلى قدر امتناع
 الشيء تكون الصبوة اليه (أعز شيء على الإنسان مأمعاً) . ولا غرو ، ان
 ابن ورقاء على فننه ، والريح في هزيرها والماء في خريره والشجر في حفيفه نعم
 والرعد في زجله والليث في زثيره كل ينشد الحرية . فكيف ابن حواء وفيه
 من كل مخلوق خلق مودع في باطنه باد في ظاهره .

عرفنا (هوميروس) في (الياذته) وسمعنا (دانتي) يندب (بياتري)
 وفهمنا (شكسبير) من (روميو وجوليت) وقرأنا (غوطا) في (فوست)

وسمعتنا (هوغو) وهو يجهر (بالاصوات الباطنية) وتلوونا ما جاء به (نامق
كمال) في (سلسلته) وانشدنا مع (شوقي) قوله

صوتى جبالك عنا اننا بشر * من التراب وهذا الحسن روحانى
فاذا كل يغنى الحرية وكل يناديها . وهل فى العشق ما يستدر عبرة أو
يصعد زفرة لولا امتناع الحرية .

ما زالت الحرية ، منذ كانت ، تطرق باب كل قواد فيفتح لها ، حتى طرقت
باب فؤاد عبد الحميد اكثر من ستين عاما فلم تقدر على فتحه .
الحرية طافت بلاد الله ، فكما دخلت أرضا اعتقت المعتقلين فيها . فلما
طرقت تركيا اعتقلت فى سجنها (بيلديز) .

الاستبداد استنجد (فالاريس) و (نيرون) و (الحجاج) و (جنكيز)
و (هلاكو) و (تيمور لنگ) على الحرية . فهزمتهم معه وقهرته معهم . ولكنه
حين استنجد عبد الحميد دام نصره عليها ثلاثا وثلاثين سنة .

لو لم يكن على وجه الارض اثم أخذوا الحرية من ملوكهم قسرا وان
هذه الأثم تشارك عبد الحميد فى استنشاق الهواء لكان غير فان . فأما وقد
نالت رعيته الحرية وأتفه راغم فلن تطول أيامه .

كريهان يؤذيهما طيبان . الجمل يؤذيه ريح الورد وعبد الحميد يؤذيه
نسيم الحرية .

ولقد حكم عبد الحميد الأجساد ولم يحكم القلوب . اشترى طاعة بعضها
برهبة بطشه والرغبة فى دنائره وأبى عليه بعض القلوب ، وبذا هان عليها
سلطانها وحقر فيها ذهبه . فخرج قوم عليه بأقلامهم حين دخلوا حصونا لاتنالهم



✽ الشاعر الحر الشهير المرحوم ناربي لوسينيان ✽

فيها أسيافه فقالوا فيه ما يخلد مع اسمه خلود الدهر وفتحوا عيون الغافلين الى
عيوبه . وما سكنت العاصفة التي عصفت بأنفاس (كمال) ورجال عهده
الاهاجت غيرها . ولا حاجة بنا الى ذكر كل صادق وباعث فيتسع لنا الميدان .
وحسب القارىء الكريم أن يلم بالأهم فيكفيه طلب المهم .
كاتبان من كتاب العهد الجديد من عهدي الحرية عليهما السلام . أحدهما
جاور ربه وآسفاه وهو خليل غانم وثانيهما لا يزال حياً والحمد لله وهو
محمد قدرى .

فاما غانم فهو أبو المقالات الرنانة في جريدة مشورت الفرنسية وغيرها .
جاهد جهاد لا وان ولا متخاذل واشتدت وطأته على الظالمين فطلبوه بكل
حيلة وحاربوه بكل شر فما فتنوا له لباً ولا زعزعوا له جأشاً .

وأما محمد قدرى فقد كان يكتب في «المقطم» جريده العثمانيين ويذيل
مقالاته بامضاء « محمد قدرى العثماني » ثم كتب في جريدة « قانون أساسى
التركية » وجريدة « القانون الاساسى » العربية . وهو صاحب الكتاب
التركي المشهور الذى سماه « استنصاف » . حاول عبد الحميد ارجاعه الى
الاستانة أو اسكانه فأعياه ذلك . وقد قال بطل الحرية (نيازى) فى (خواطره)
التي نقلها الى العربية مؤلف هذا الكتاب ان كتاب (استنصاف) وغيره
من كتب الأحرار فتحت قلبه وشددت عزيمته لخلاص وطنه .

ولقد ظهرت جرائد كثيرة فى أوروبا ومصر وأمريكا ، واتحدت كلها
فى الحملة على حكومة الاستبداد والمطالبة بما للأمة من حق مهضوم . وأسس
هذه الجرائد واشتغل بتحريرها وإفاضة الحكم فيها جماعة من نجباء العثمانيين
وأولى الرأي والمنزلة الرفيعة بين فضلائهم . فمنها التي دامت على ولائها للحق
وواصلت جهادها فى سبيل الحرية غير مستضعفة فى كفاح ولا محجومة فى
مزدحم . ومنها التي انقطعت عنها وسائل البقاء فسكتت وتركت صيحاتها
ترن فى آذان الدهور .

وانى لذا كر فى هذا الفصل كل جريدة لم أنس مبلغ جهادها وتارك
مالاً أذكر وقائعها وأرجو أن لا يحسب ذلك منى سوى زلة زلتها غير مختار
وهذه الجرائد هي .

(مشورت) التركية والفرنساوية . صدرتا في باريس ثم صدرتا في جنيف أنشأها احمد رضا رئيس مجلس المبعوثان الآن .
(المشير) العربية أنشأها بالقاهرة واختص بتحريرها صاحبها صديقي القديم سليم سر كيس .

(عثمانلي) أنشأها في (جنيف) صديقي الدوكتور عبد الله جودت واشترك في تحريرها مع المرحوم اسحق سكوتى ونورى أحمد وطونهلى حلمى .

(لسان العرب) كان يحورها المرحوم الشيخ نجيب الحداد (پنتى) وجريدة (قوقوماو) وهما لجماعة من الأحرار لم يذكروا أسماءها . وكان عبد الحميد لا يفضيه شئ ، مثل كلمة (پنتى) ومعناها الابله الذليل .

(النبراس) كان يحورها الفاضل الجاويش (بصير الشرق) أنشأها رشيد بك وكان يحورها مع الدوكتور اسماعيل ابراهيم . وكانت تصدر باللغتين التركية والعربية .
(ييلديرم) ومعناه الصاعقة كان صاحبها ابراهيم ادهم .
(جورجونه) كان يحورها الشاعر التركى الشهير اشرف .
(سنجق) كان اصدرها احمد صائب . ثم استبدل اسمها فصيره (شوراي امت) .

(ميزان) كان يصدرها مراد الطاغستانى بالتركية بمصر ثم اصدرها في (جنيف) .

(امل) كان يكتبها المرحوم حسن فهمي .
(اجتهاد) أصدرها صديقي الدكتور عبد الله جمودت بعد ان ترك
جريدته الأولى (عثمانلى) وجاء مصر . وكانت تقبل ان يكتب فيها بكل لغة
وهي منتشرة الى الآن .

(ترك) كان يكتب فيها الدكتور ان نجم الدين عارف المنسترلى وشرف
الدين مفهموى .

(قانون أساسى) التركية و (القانون الاساسى) العربية كان يكتب فيها
الخواجه محمد قدرى الممانى ومؤلف هذا الكتاب .

(الانذار) كان يحررها يوسف حمدى يكن شقيق المؤلف أيضاً .
وقد ظهرت بأوروبا وأمريكا جرائد جليلة القدر عظيمة الخطر مثل
(كشف النقاب) التى كان ينشرها بياريس الامير أمين ارسلان و (كوكب
أمريكا) و (الايام) وكلتاها صدرت بأمريكا .

كل هذه الجرائد طالبت حكومة الاستبداد بحرية الامة وشدت في
ذم ظلم عبد الحميد ودعته الى الانصاف وخاطبت العثمانيين فى الالتباه الى
ما هم صائرون اليه . فطاردها الظالم مطاردة من لا يعرف السأم وأكثر من
اتخاذ الجواسيس وجعل المراقبة الشديدة على البريد وبالغ فى منع هذه الجرائد
من الدخول فى البلاد العثمانية لئلا يقرأها أفراد الامة فيتنبهوا الى أعماله
ويكونوا مع الاحرار يدأ واحدة عليه . ثم حاول أن يستغوى من يكتبون
الصحف وان يستجلبهم بالمال وتمكن من نيل مأربه مع البعض منهم ولم
ينجح مع الآخرين .

أما (مشورت) فكانت من حزب الإصلاح الدينى ومثلها (ميزان) .
فان صاحبيهما ما استعاننا على عبد الحميد الا من الوجهة الدينية . و (القانون
الاساسى) كذلك . وسبب اتخاذها هذه الخطة انه لم يمكن مخاطبة العثمانيين
الا باسم الدين وآسفاه .

أما (عثمانلى) و (اجتهاد) و (المشير) فكانت جرائد من الطبقة الأولى .
وقد سبقت لى مناظرات مع صاحب (المشير) قبل دخولى فى فريق
المطالبين بالحرية ، أظهر فيها من قوة الحججة وحسن البيان وشدة النفس ما خيل
لكثير من الناس أننا أعداء وما كانوا يعرفون أننا نقضى أكثر
أوقاتنا معاً على أحسن ما يكون من الاخاء . وسليم سر كيس رجل ينذر مثله
فى رجال الصحافة . وكانت جريدته محبوبة عند أولى الذوق السليم مطلوبة
من ذوى الادب والظرف . لان صاحب (المشير) كان يتخير الفصول ويجيد
الكلام . فما ظهر عدد من جريدته الا رأيت فيه كل ما يطيب للنفس ويخفف
على السمع . وانه لشهم جرىء اذا جاءه وعيد زاد اقداً ما وان سيم فى ذمته
أعرض عن النفائس اعراض الكريم . فهو من أنصار الحرية الذين يفتخر
بهم الوطن . هو صحافى منذ أكثر من عشرين سنة يشهد له (لسان الحال)
و (المشير) و (المؤيد) و (مجلة سر كيس) . ولقد عانى من طاردة الحكومة
المستبده مالا يصبر عليه سواه . بعثت وراءه من يغتاله قتلاً فسلمه الله من
شره وطلبته من الحكومة المصرية فكانت قلامة ظفـره أمتع من عقاب
الجو . وقد سجن مرتين فلم يزد السجـن الا رفعة فى عيون الفضلاء
والسجن ان لم تغشه لدنيته سواء نعم المنزل المتودد

وأما (ميزان) فإن صاحبها مراداً رجل له علم بالتاريخ وهو معدود من الطبقة الثانية من الكتاب . جاء مصر والناس فيه ثقة وللحكومة العثمانية منه وجل . فكانت (ميزان) كالصاعقة المنقضة على رأس عبد الحميد ، منعتة الكرى وكادت تفلح فيما تسعى إليه . دعا عبد الحميد ناظم باشا ناظر الضبطية . اذ ذاك الى قصر (يلديز) وقال له :

— ما أكبر ذنبك وما اصغر هممك . أمرتك أن تطارد كل من يقرأ (ميزان) ، والتقارير تأتيني بأنها تجيء الى فلان والى فلان . اكد اطاعتك لسلطانك ؟ قال ناظم :

— يشهد الله والناس بما أجد في مطاردة (المفسدين) ولكنى لا أدرى ما أصنع . وكما أمرت رجال الشرطة بالانتباه وادمان النظر في ذلك وجدت نسخ (ميزان) في جيوبهم وخرج ناظم وهو كاسف البال ضائع الرشد . غير أن مراداً كان معجباً بنفسه متكبراً دائماً الازدهاء لا يدين للحق فلم يحسن البداية ولا النهاية .

ومن الجرائد التي عوضت ما خسرتة الامة بفشل (مشورت) التركية وخيبة صاحبها ميزان . جريدة (عثمانلى) سابقة الذكر . وقد كان تأسيسها في سنة ١٨٩٧ . ثم تلها اجتهاد ولغتها تركية وكانت تقبل كل مقالة تأتيها بآية لغة كانت . وصديق الدكتور عبد الله جودت هو مؤسس (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية) وسكرتيرها . وانه لمن الفضلاء الذين يزنون عقد الحرية . ماشئت من أدب رائع وخلق مطبوع ونفس صريحة وعقل راجح وضمير لم يتطرقه الرياء ولم تهتم اليه الالهواء . حرّ متناه في حرّيته . يقول الحق ويعلم

انه ضائره فلا يبالي عاقبة ولا يخشى حسابا .
و (القانون الاساسى) كان له شأن يذكر . ففيه سیرت هذا القلم مجاهداً
وقلت لعبد الحمید (فلا هزن به أركان قصرک هزاً) فلم تدعنى الايام أصدق
وعدى وأقوم بوعیدی وهزت (يلديز) وأمالت عماده قنابل الأحرار .
فاذا كان دوى رعوودها رجع ماصرت به الا قلام فالحمد لله ولا فخره . وان
كانت منبعثة من أفئدة أمة أجملت الصبر حتى تنفست عن البارود فالفخر
أعظم .

وجريدة (الانذار) التى كان يكتبها شقيقى يوسف حمدي يكن كان
لها دور وله شأن . فكم بالقصور من أعداده ، جمعت من (العتبة الخضراء)
ورفعت الى العتبة العليا . واذا كرهننا منها هذه الايات التى قالها صاحب
الانذار فى العدد الرابع الصادر فى سنة ١٣١٧ وفيها اشارة لا تخفى على
الليب قال :

اذا صبحا النائم من نومه	وهم ذو الهمة فى يومه
عادت لنا أيماننا مثل ما	نرجو وعاش المرء فى غنمه
ياقوم هبوا هذه رقدة	طالت وذو الاثم على ائمه
حكم رشاد الدين مقصودنا	وانما الاقبال فى حكمه
فليحتكم هذا وظلامنا	أراحنا الرحمن من ظلمه

كانت هذه الصحف حجة على الغرب تدحض ما يتهم به الشرق من
خنول واستسلام للظلم . كان الشعب العثمانى يشن فتكذبه ملوك أوروبا وساستها
الذين اشترى قلوبهم عبد الحمید بمال الرعية . فيخطبون على منابر التمدین بما

يظنون به الظالم في عيون من لا يعرفون ظلمه ، وهذه الجرائد تقول لا واثق
المظالم انتم غير صادقين وتبين لهم وجوه ظلاماتهم مستندة في دعواها على
الظاهر من الأعمال دون الخفي ثم كان لأصحاب الصحف العثمانية الحرية احبة
وأعوان يحتالون في ادخال تلك الصحف في الأقطار العثمانية بوسائل دقت
عن افهام المراقبين والجواسيس . وكانوا يطلعون عليها كل من يأمنون جانبه
ولا يخشون منه وشاية من خطائهم فتحدث أقوالها الحققة في نفوسهم مالا
يحدث الغرام وتلعب بألبابهم كما تلعب بها بنت الكرم . وبذابات الأكرهون
من عقلاء العثمانيين متحدين قلوباً وآمالاً . متواطئين بلسان الحال على احتقار
المصر الحميدي .

ويشهد الله وكل محب الحق أن اخواننا العرب ، لاسيما مسيحي السوريين
منهم كانوا أشد الناس ضجراً وأعظمهم أنفة من احتمال الذل . فهم الذين
ناقت نفوسهم الى الفضيلة المصرية من وراء حجب الاستبداد ، فأقبلوا على
مصر وعلموا اخوانهم المصريين انشاء الصحف واتخاذ المطابع واحتراف
الأدب المصري واصطفاء الحرية . هذا مع أنهم محرومون في بلادهم من
التمتع بمثل هذا النعيم . غير أن حب المعالي في أكثر النفوس طبع لا تطبع
والأفمن علم الطير ترجيعه ومن وهب الببل حب الورد ، ولما طال عليهم
احتمال الضيم هجروا أوطانهم وضربوا في أقطار الأرض يجوبون قاصيها
ودانيها ، يحلون من منازلها أهلها وخاليها ، أعوانهم عزائمهم وبضاعتهم عقولهم .
فحيث عثرت جدودنا انتهضت جدودهم . فكان (المشير) وهو جريدة
أسبوعية ، صاحبها غني علماً فقير كيساً ، منتشرراً كجريدة يومية . فتذهب نسخته

البرازيل وفيلادلفيا وسائر أقطار أمريكا وأوروبا وآسيا . والبلاد المثمانية كان يدخلها في غفوة من أعين الرقباء . وكان يرأسه بعض الأعالى من رجال القلم ورجال الرأي ممن لا أصرح باسمائهم اذ لم أستأذنيهم في ذلك . وما لبث المشير أن أعاش صاحبه وعاش بفضل صاحبه .

وجرائدنا التركية لم تدم كثيراً اذ لم يكن في مصر والبلاد الخارجية أناس كثيرون يقرأون اللغة التركية والذين يقرأونها أو يفهمونها من الأتراك الذين استوطنوا مصر من الأزمان السالفة لا يهمهم من السلطان الا كونه سلطانا . وهم يعتقدون أن لاحق للامة في مشاركة الملوك في أعمالهم وان الرعية عبيد للملوك أمروا بالطاعة لهم وان ظلموا والشكر وان أساءوا . يتحدثون بذلك في مجامعهم وبايديهم السبح وأمامهم النارجيلات (الشيشات) يمتصونها حتى تستطلع حبابها . يؤتى لهم بالشاي منقوعا وبين يديهم جماعات من المشايخ منهم المدعون لعلوم الكيمياء القديمة ومنهم أولياء الله الناطقون بالغيب (بالسرياني) ومنهم المتصوفون من اتباع الرفاعي والكيلاني ومحي الدين العربي والبكطاشي والمولوي ومنهم أئمة الشرع ورواة الأحاديث والمفسرون . كل هؤلاء يكفرون الأحرار ويدعون لعبد الحميد ويمدون أنامل أكلت أطرافها حبات السبح يجرون بها دراهم أعوانهم عدا بظلا وجشعاً ولو ما كانوا يؤثرون حب عبد الحميد على حب العادل الحميد .

فمن من هؤلاء القدمات الصلحاء الاتقياء يشك في صدق الحاج السيد الشيخ زيد مثلاً وهو لا لبس عمامة كأنها كيوان وفي يده عصاً كأنها عمود الصبح وعليه جبة خضراء كأنها ملأه الربيع وفي رجله خفان أصفران كأنهما سفينتان

من النحاس الأصفر وفي عنقه سبحة هي أطول من ألفية ابن مالك ، ثم يصدق ما جاء به سليم سر كيس وهو رجل مسيحي ماقرأ على شيخ ، أو يؤمن بما يقول به غيره من أحرار الترك والمرب وهم متعلمون في أوروبا أو البلاد العثمانية على معلمين أتوا بهم من أوروبا . والمسلمون من اخواننا المصريين كانوا ولا يزال أكثرهم متمسكين بتلك الآراء القديمة . فأحر بأولئك العثمانيين المقيمين وراء جبال الأناطولى أن لا يرفوا من الدنيا الا مقدار ما يرون في بلادهم . كل هذه المصائب كانت عواقب دون نجاح المجاهدين من الأحرار .

قلت ان صحف المجاهدين كانت تنتهى الى من يقرأونها من أنصارهم في غفلة من عيون الرقباء ولم يكن ذلك دائماً . فكثيراً ما وقعت بأيدي قوم من الكاشحين تسابقوا بها الى قصر الملك وأسلموها الى حملة المرش وأسلموا من جاءت من أجله الى الزبانية الموكلين بتعذيب العباد . فألقى منهم في البحر من القى وسجن من سجن ونفى من نفى . بلى وبما تذرع قوم الى نيل أمانهم باتهام آخرين زوراً وبطلا وادعائهم عليهم بأنهم يرسلون أصحاب (الأوراق المضرة) أى الصحف الحرة . فباؤا بالهبات والوسامات والرتب . وقد فتح هذا الترغيب باب التنافس في مصريين من يحبون الرتب والألقاب من سراتها وأغنيائها فتزاحموا بالمناكب عن ابتياع ما ينشره الأحرار من الجرائد والكتب ، يجمعونها في صناديق عليها أقفال من الحديد يرسلونها الى القصر الحميدى أو يستصحبونها معهم ليتقدموا بها الى معبودهم الفانى . ورأى ذلك بعض السفلى فتشبهوا بالأحرار في انشاء الصحف وتأليف الكتب . ولقد

كان أكثرهم لا يعرف الكتابة فيستكتب غيره بأجر يسميه له . وعشاق
الرتب يجزلون لهم العطاء ويكتبون الى القصر السلطاني أنهم ساعدوا في
اسكات المفسدين اعداء « أمير المؤمنين » وأنهم استرضوا فلانا وسيرتضون
فلانا .

ومما ينبغي ان يدمج في كتابي هذا ليتلوه أخلافنا على ممر الدهور ، أن
دار الامارة المصرية كان لها في هذا المترك راية القائد . فقد سال منها
النضار حتى فاض عن الأثف وعلق بالأقدام . وكم من بريد بين مصر
وفروق يروح واحد ويفتدى واحد وكم من رسائل وسفراء أحسنوا البلاغ
واقبلوا فائزين . يارب صندوق ترى ظاهره فتخال به ذخائر وتحفًا وهدايا
مما يهدي به الملوك وما حشوه الا أوراق مشتراة غلب عليها كاتبوها أو
أخذت ممن لا يحرص عليها لولا الخير المفاض .

ومن أجل هذا قامت الحرب عوانًا بين الامارة والأحرار كما سيجي
خبره في الفصول الآتية واشتد النزاع .

وبينما تدور هذه الأدوار اذا بأنور ونيازی بطلي الحرية وغيرهما من
حماة حقيقتها وخلصانها يتدبرون ويفكرون . واذا كانوا تورثوا من نامق كمال
وفضلاء زمانه قليل كتب وأخبار . بعثت نبذتهم وحششت نخوتهم جاءتهم
هذه الصحف الحرة كالأدوية للمرضى . ولكنها شفقتهم من داء الخمول
وابتلتهم بداء العشق ، عشق الوطن وهو أقتل للأجساد وأحفظ للنفوس .
قد استشفيت من داء بداء وأقتل ما أعلك ماشفا كا

﴿ فرار مراد الطاغستاني ﴾

« من الآستانة الى مصر وسبب ذلك »

مراد رجل من أهالى طاغستان . هاجر من بلده قاصداً الى عاصمة السلطنة العثمانية وهو فى مقتبل عمره وعنفوان شبابه . لا يملك من الدهر الا همومه ، يزجى راحتي الفقر والأدب . وما كان الأديب صفة بل كان الأديب رغبة .

كان قدومه الآستانة فى صدارة المرحوم (محمد رشدى باشا المترجم المعروف بالشروانى) فى نحو سنة ١٢٩٣ . فلاذ بركن هذا الصدر واحتفى بجاهه وأقام بيابه وأكب على طلب العلم ما استطاع له طلباً . فأصاب منه حظاً غير قليل ونظر فى التاريخ فأحاط به علماً واشتغل بالأدب فأجاد الكتابة حتى أنه ليعمد من رجال الطبقة الثالثة بل الطبقة الثانية أقرب اليه . وجملة مايجوز أن يقال فيه أنه بعد أن أبطل له عبد الحميد جريدته (ميزان) التى كان يصدرها بالآستانة بسبب رئائه للأديب الأعظم نامق كمال . أدخل فى نظارة المعارف ثم أخذ يتدرج فى الترقى حتى انتهى الى وظيفة (قوميسير الديون العمومية) براتب شهرى لا يقل عن المائتى ليرة . ولم يكن بعاصمة السلطنة العثمانية من يجهل شهرة مراد ولا من لا يثنى على حرите ويمجّب بيانه . وألوف من تلامذة (المكتب الملكى) أقاموا على تمجيدده واطرائه اذ قرأوا عليه التاريخ وهرفوا منه أحوال من سلف من الأئمة وعرفوا من كتابه

الذى ألفه لهم في هذا الباب مترجماً أكثره من اللغة الروسية ما أتاهم بأجزل الفوائد .

ولقد نال مراد من اقبال عبد الحميد عليه وعنايته بأمره مارفعه فوق كثير من نظرائه والراجهين عليه . حتى خال العامة من العظماء أن قد حان لمراد أن يولى الصدارة .

فلما كانت المذبحة الأرمنية التي وقعت في سنة ١٨٩٤ تقمها مراد فيمن تقمها من العثمانيين الأحرار ورأى الملك العثماني رهينة مهالك لا تسهل تفديته منها . فكتب لائحة مطولة أبان فيها ضجيرة العقلاء وسخطهم ولأم السلطان لوماً لا يجرأ عليه كل امرئ ، ورفعها اليه وتحتها توقيع وخاتمه . وكان مراد حمل لائحته الى قصر عبد الحميد ولم ينفذها مع أحد . فدفعها الى من دفعها اليه وقال له اخبر مولانا السلطان أنني مقيم هنا ببابه على انتظار ما تقضى به ارادته . ويروى البعض أنه مثل في حضرة السلطان فلقى عتاباً رقيقاً خاف على نفسه عاقبته وأيقن أن عبد الحميد لا يتركها له وأنه اذا عاتب انساناً عاتبه في حياته وضربه في عمره . فخرج من بين يديه وهو غير آمل أنه ملاق أهله فما انتهى الى باب القصر الا تنفس تنفساً كادت تتصدع له أضاعه . فأسرع الى بيته واشتغل ليلته باتخاذ أهبطه للسفر . فما أشرق الصباح الا ودع أهله وبنتيه وخرج متنكراً لائذاً بالهرب وسهل الله له أسبابه . فما أحس به أحد ولا علمت الحكومة المستبعدة بهربه الا بعد أن أجاز ساحة سلطانها وبعد عن أيدي أعوانها .

ما خلت أن عبد الحميد وجد بفرار أحد من العظماء ما وجد بفرار مراد .

وذلك لأسباب منها مكان مراد بين رجال القلم وشهرته التي عرفه بها الخاصة
والعامة وكثرة تلامذته وهم بلا ريبة على رأيه ووظيفته التي عرفه فيها كثيرون
من الأجانب وأنها وظيفة ذات شأن في الدولة العثمانية ثم وقوع هربه في
زمان اشتداد المشكلات بعد المذبحة الأرمنية . وقد قرأ عبد الحميد لأثنته
وعلم أن مراداً يعرف أشياء اذا هو وصفها ببيانه المألوف وأذاعها بين الناس
أفسد على الظالم سياسة ظلمه . فاتقد الجبار غيظه وسقط في يده .

أما العثمانيون فذهب كل جماعة منهم مذهباً واختلفوا في ذلك أقوالاً
وأراء حتى لقد كان فيهم من ظن أن عبد الحميد أتهده سرّاً في حاجة يقضيها
له في البلاد الأجنبية وأنه تواطأ مع مراد على أن يكون سفره هرباً مبالغة
منه في حفظ السر وكتمانه . إلا أنهم عرفوا خطأ زعمهم بما رأوه من مطاردة
السلطان حتى لمن كان يعرفه معرفة غير صميمية . فتفرقوا الى فريقين فريق
يرى أن مراداً كافر نعمة وأنه خائن وأنه مدفوع الى عمله هذا بيد عدو في
ثياب صديق . وفريق يرى أن مراداً قام بما يجب عليه نحو وطنه وأن مثله
بعيد عن أن تستهوى له المطامع وأن تستغويه الأهواء .

وأما الأجانب فقد أعجبوا بمراد وواقفته أيما إعجاب واعترفوا أنهم
كانوا أساءوا الظن بالعثمانيين حين وصفوهم بالاذلاء الاغبياء الذين تهمل
نواجذهم كلما وقعت سياط المتغلبين على ظهورهم . وكان أكثر الناس فرحاً
وابتهاجاً أصدقاؤنا الانكليز . فان فيهم من وهبه المال الجزيل عن طيب
نفس وذلك الواهب الجواد هو ادارة جريدة (التيمس) المشهورة على ما يقال .

﴿ حال الأحرار وجمعياتهم ﴾

« بعد هرب مراد من الآستانة »

ما و طئت قدم الطاغستاني أرض مصر الا ابتسمت ثغور الأحرار
وانتمشت أرواحهم وتجددت آمالهم . فالتفوا حوله وحشدوا تحت رايته وورضوه
لهم زعيما ولمذهبهم اماما ولكتائبهم قائدا . وقالوا هو الصمصامة العضب
لا تقل مضاربه ولا تقى دونه السابغات . ولما رام الكلام سكنت لديه المتكلمون
وأوسعوا له من مكان الأستاذ فظهر ولسان حاله يقول .

لقد علمت قيس بن غيلان أننى * اذا قلت (أما بعد) أنى خطيبها
فصدر العدد الأول من (ميزان) باللغة التركية يقل معانى كالوحي فى
ألفاظ كالرسل ، تتلى على الظالم فيخشع لها قلبه وتزور جوانبه . وتقلت بعض
الصحف الكبيرة فى مصر وغيرها فصولا كثيرة من فصوله وكاد يتعزى
الأحرار بمراد عن كمال وبدا الخذلان فى جانب من يعارضون الأحرار
ويكذبونهم (وكنت أنا من الفريق المخدول) . وجاءت الرسائل برقية وغير
برقية تطالب فيها الحكومة العثمانية الحكومة المصرية بإعادة مراد الى الآستانة
أو طرده من مصر أو عدم الإذن له بإصدار جريدة فيها . فلم ينل عبد الحميد
من لجأحه سوى الفشل وسوء المصير والفضل فى ذلك للورد كرومر حبيب
الأحرار ومصلح مصر ورجلها العظيم .

وقد كان فى إدارة جريدة (القانون الأساسى) خاتم منقوش عليه

باللغة التركية هذا الكلام: (عثمانلى اتحاد وترقى جمعيتى) ومعناه (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية). كان الأحرار يكتبون أوراقا فيها وعيد وانذار ينفذونها الى قصر عبد الحميد ليخيطوه وينقصوا عليه أيامه. وكم ورقة أرسلت مختومة بهذا الخاتم وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت. انخلع لها فؤاده وقضى ليلة سليم لا تبرئ أو جاعه رقى أبى الهدى ولا تنامه. وانما حفر هذا الخاتم ليكون للجمعية التى كان يراد انشاؤها بمصر تابعة للجمعية (الاتحاد والترقى العثمانية) المؤسسة اذ ذاك بباريس. فسافر مراد الى اوربا وبقي الخاتم مهملًا بمصر. وهذا يدل على أن هذا الاسم كان استقبط في زمان الطاغستاني وأنه لم يكن للجمعية الاتحاد هيئة تابعة بمصر الا قبل اعلان الدستور ببعض السنين.

أسست جمعية تركيا الفتاة برئاسة مراد فلم تعمل عملاً يذكر. لأن مراداً كان قوولاً ولم يكن فمولا. وانه ليبذو له الصواب في رأى رآه غيره فلا يقره بل يجهد نفسه في جرحه وردده أثرة منه أن يكون لا آخر عليه حق التقسيم في فضل. سحجية تلك فيه لا يستطيع النزوع عنها. فلما انتظمت جمعيته أحب الاستبداد بالأمر ولم يرض أن يكون لغيره كلمة مسموعة. وكان اذا هم بعض الاعضاء ببيان رأى يراه في عمل من الأعمال قاطعه وأوماً اليه بكفه يأمره بالسكوت. وبذا جانب كثير من الأحرار مراداً وشيعته وراهم أمره وحذروا قلبه. على أن الأحرار كبروا في أعين الناس وبدأت على أعمالهم بشائر الفوز واتخذهم عبد الحميد شغله الشاغل وهمه المبرح فسرر الاليالى لكيدهم وتدبر الحيل للايقاع بهم وأحس من نفسه العجز عن الاستمرار على عداوتهم ولو دام لهم ذلك الصبر والجهاد لنالت الأمة العثمانية حريتها

من منذ ذلك العهد .

هذا والا جانب عن أعمال الأحرار كانوا يسمون حزبهم حزب (تركيا الفتاة) وكان العثمانيون يدعونهم بحزب (الرئون ترك) أى الترك الفتيان . ولم يكن لاسم (جمعية الاتحاد والترقى العثمانية) شهرة ذائعة تسترعى الاسماع وتملأ القلوب الا فى أواخر أيام الاستبداد حين أخذت تخاطب الحكومات وتجهز بعداوتها للحكومة الحميدية .

على أن مراد لم يحسن العمل الا فى انتقاد الحكومة المنقلبة . فقد أجاد فيما كتبه كل الاجادة وأخرس مناظريه . فكان الفضل فى كل عمل وان جل ودق راجعاً الى مراد دون رجاله وأنصاره وكان عالم العثمانية مطوياً فى شخصه . فلما فاز هو فاز حزبه ولما هزم هزموا معه . وليس من الصواب أن أقول هزم . فقد كان فى مأمن من الهزيمة ولكن غلبه اليأس بتأدى الاجتهاد وأضجره طول الاغتراب وتجدد جنينه الى الأهل والسكن ثم ربأ بكبره أن ينازعه فيه منازع . فقليل له فى العودة الى عاصمة الملك العثماني وهو فى تلك الحال فأجاب بالرضى وأسلم نفسه وأنصاره وانقضى أمره .



﴿ وقع ما كتبه الأحرار ﴾

« على دوائر الظلم بالآستانة »

لم يهمل عبد الحميد شاردة ولا واردة مما كتبه الأحرار في صحفهم وأسفارهم إلا أحاط به خبراً وأحصاه عدداً ونظر فيه وتأمل قريبا وبعيدة وفكر في جليته وخفيه . فما رآه حجة عليه تطف في ازالته غيره مظهر أنه أزاله خشية من هجاء الأحرار وما لم يكن كذلك تركه على أصله غير مبدل من حاله شيئاً . ولكن أمرين كانا شديدين على نفسه شهوة ولزوما : اعلان الدستور والتخلي عن الاستبداد . هذان أمران ما حدثته نفسه أن يرضى فيهما الله ولا عباده . وكان كلما ذكر له خصومه مثلبة من مثالبه غلت مراجله وهاج غضبه في خوف تبدو على وجهه آثاره وإن بالغ في تكتمه :

ولقد قال الأحرار في صحفهم أنه منع الجرائد العثمانية عن ذكر اسم (محمد) عند الكلام على النبي (صلم) وكان الأمر كذلك . ولكنه لما رآهم يكثرون من تعبيره بهذا الأمر انتهى عنه وذكر الجرائد بعد ذاك اسم النبي صريحا . وإنما أراد بفعلته هذه تكذيبهم ليحدث الشك في قلوب من يقرأون أقوال الأحرار .

وقالوا عنه انه يخاف أبا الهدى لأن عنده صورة فتوى بخلمه مخومة بخاتم شيخ الاسلام المرحوم الشهير (عرياني زاده) وأن أكثر الداخلين في

الطريق الرفاعي ينتصرون لأبي الهدى . فلما بلغه قولهم هذا أضمر الشر لشيخه المحبوب . وفي ذات يوم أمر به فجاءه وبين يديه بمضى الوزراء والمقررين . فقال له عبد الحميد : بلغنى عنك أنك تفهم الناس أنى أخافك على نفسى وأنت تقدر على مناوأتى . هذا وأنت غرس نعمتى وإن قدرك لأحط عن أن يسمو إلى تراب قدمى . ثم بصق على وجهه وأخرجه من حضرته وبقى بعد ذلك أبو الهدى شهوراً لا يطرق له باب ولا يوطأ له بساط .

ومن هذا القبيل ما أورده هنا على سبيل الفكاهة وتمة للفائدة . وهو أن عبد الحميد كان اتخذ (منيراً) سفير الدولة العلية في فرنسا سابقاً ، سيفاً يضرب به الأحرار . فكان سفيره وكان جاسوسه أيضاً . وكانت ظهرت في (جنيف) منذ عشرة سنين قبل الآن جريدة هزلية تصويرية باللغة التركية تدعى (بهبه روحى) . وصدر عدد من أعداد هذه الجريدة وفي الصحيفة الأولى منها صورة عبد الحميد وقد جلس على كرسيه وأمامه رجل من بطائه في يديه صندوق كبير عليه عدد كثير من طوابع البريد . وتحت الصورة هذه المحادثة :

حامل الصندوق — أرفع إلى أعتاب مولاي الأعظم هذا الصندوق الذى أرسله عبده المخلص (منير بك) سفير الدولة بباريس . فقد أودعه كل ما استطاع جمعه من (النوريات المضرة) التى ينشرها (الرئون ترك) أعداء الدين والدولة لتصدر ارادته الشاهانية بإحراقها .

عبد الحميد — لا تزال التجارب تزيدنى كل يوم إعجاباً بعنبر وثقة بولائه . وليت لى كثيرين مثله يغالبون أعدائى ويتقدمون إلى بصدق الحب والولاء ،

فأجزل لهم المكافأة وأحبوهم المزيد . هلم الى هذا الصندوق وافتحه لا نظره ما فيه من عجائب هؤلاء الأغرار .

وفي الصحيفة الثانية من ذلك الممدد، عبد الحميد وقد استلقى على ظهره فوق كرسيه وفتح ذراعيه وقطب حاجبيه وامتقع لونه وبرزت مقلته وانقلب وجهه فكانه اسفنجة مبتلة والصندوق مفتوح وقد خرج منه صاحب (به به روحى) وفي يمينه سدس يصوبه الى صدر عبد الحميد ورجل بطانته باهت عاض بسباته . وتحت الصورة علامة الاستغراب تلوها اصفار كثيرة هكذا :

..... !

ولما وقعت هذه النسخة بيد عبد الحميد كتب الى (منير) يأمره أن لا يرسل اليه صندوقا كما تقدم ذكره الا بعد أن يتحقق بنفسه مما فيه وأن يحكم قفله ويختم بخاتمه

وكان لما يكتبه الأحرار وقع آخر في نفس عبد الحميد أدركه كل فطن عارف بأحواله ومختبر حقائقه . وذلك أن الأحرار كثيراً ما كانوا يشيعون في جرائدهم أنه مريض وأنه يود أن يعتزل الملك . فكان يبادر الى تكذيبهم في جرائده لأنه لم يكن يرضى أن يشاع عنه أنه مريض ولا انه على نية الاعتزال .

وكان الأحرار يختلفون أنباء لا أصل لها . فيكتبون في صحفهم ان فئة منهم على أحسن أهبة وسلاح سيظهرون قريباً بالآستانة . فتذهب جماعة منهم لاستخلاص السلطان مراد ، وكان معتقلاً بقصر (چراغان) ، وتذهب جماعة

الى خلع عبد الحميد وسجنه مكان مراد . فتصل هذه المصنف الا ستانة فتقوم لها القيامة ويشتهد الهول ويطلق رجال الشرطة يترافضون يمنة ويسرة صعداً وصحباً يطلبون تلك الفئة التي أخبرت عن ظهورها الجرائد الحرة فثاروا وانفرا متجمعين الا اتقضوا عليهم وأمسكوا بتلابيبهم وجروهم الى رؤساء الشرطة يستنطقونهم . فكان هذا وما مثله من الفصول المضحكة في مسرح الادارة الحميدية .

وكان عبد الحميد وأعوانه يتسلون عن ادراك أمانيتهم في جلب الاحرار والانتقام منهم بأن ينتقموا من اخوانهم الذين هم في قبضة أيديهم . فها اتهم أحد من أولئك المساكين بمراسلة الاحرار أو أخذ صحفهم أو الكلام عنهم تلميحاً أو تصريحاً الا أخذوه الى دار التعذيب فاثقلوا قيوده وشددوا وثاقه وأروه من صنوف الأذى ما يقضى به نخبه بين أيديهم . وانما كان يجرأ عبد الحميد على تلامذة المدارس ممن لا يتوسم فيهم القدرة على الكتابة ولا على الهرب وكذلك من لاشهرة لهم من صغار المأمورين . أما الذين يبلغه عنهم أنهم من رجال القلم ومشاهير الكتاب فيكفيه منهم أن يتوعدهم ويبت لهم من يراقبهم ويأتيه أخبارهم . وربما ضاقت الحال ببعض الأدباء ولم يجد سبيلاً لاستزادة راتبه فيكتب الى عبد الحميد يقول له : ان اشتداد الأزمة عليه ومراقبة الجواسيس له وتكاثر الأعداء يضطرونه الى ترك وطنه واختيار الغربة . وأن مثله لا يعاني كبير كد في الاسترزاق بعلمه وفضله اذا يعم أرضاً يعيش في أكنافها أمثاله . فاذا اتصل هذا الوعيد المستظرف بالملك الأحمر بأدرك لوقته فاستدعى المتوعد الى قصره وأجزل عطائه ورفع درجته ووعدده خيراً .

كان فخرى بك المصرى متهمًا عند السلطان بأنه من حزب تركيا الفتاة .
ولقد سأل السلطان مراراً واستعطفه كثيراً ليأذن له بالسفر الى مصر ليصلح
شؤونه ويتمهد أراضيه وأملأكه . فظن السلطان أن فخرى بك يريد السفر
ليتحد مع الأحرار في محاربتة . وإذا كان فخرى من أهل الثراء والفضل
أيقن عبد الحميد بصحة ظنه . فلما زار الآستانة سمو الخديو في سنة من السنين
توسط في الاستئذان لفخرى بك فقال الاذن وأحضره معه على يخت المحروسة
فانتبه لذلك أحد الادباء الفقراء ورأى فرصة لا تسنح كثيراً . فاستكبت أحد
المصريين الذين كانوا هربوا من مصر الى الآستانة تقريراً يقول فيه للسلطان
ان الكاتب المعروف فلاناً كتب كتاباً الى فخرى بك المصرى يعده فيه
بالسفر ليحقق به . وأن قد جعل فخرى راتب ذلك الكاتب عشرين جنيهاً
شهرياً وأن الكاتب على أهبة السفر . وقال اذا كان أمير المؤمنين يشاك في
صدق عبده هذا فما عليه الا أن يصدر أمره الى ادارة البريد العثمانى في (غلطة)
ولا يلبث أن يؤتى له بذلك الكتاب . فأخذ المصرى المتجسس تقريره ورفع
الى عبد الغنى (اغا دار السعادة) اذ ذاك . فصدرت الارادة الى ادارة البريد
وجىء بالكتاب وظهر صدق الجاسوس . فجاءه شكر من السلطان على اخلاصه
ولم يحسن عليه بمطية أبداً . وجىء أيضاً بالأديب المتهم وسئل عن الأمر
فاعترف معترداً بشدة الحاجة وما يعانى من ضيق ذات يده . فأمر له السلطان
بمطية سنوية قدرها خمسون جنيهاً وأدخله في ادارة الأملاك السنوية براتب
لا يقل عن العشرين جنيهاً . فلما بلغ الجاسوس ما جرى ، أسرع الى صاحبه
فهنأه وطلب له المزيد ثم قال له :

كنت — وعدتني بأن تعطيني نصف ما تأخذه من السلطان. وقد أخذت
خمسین جنيتها ، فهات لي النصف .

الكاتب — لم يجر بيننا كلام مثل هذا واني لأنهاك أن تعود الى
مطالبتى بما ليس من حقك .

فبقائه الجاسوس ساخطاً ناقماً وذهب من ساعته الى قصر عبد الحميد
وأخبر عبد الغنى أن ما أتاه به أول مرة كان تواطؤاً بينه وبين الكاتب وأن لا
مخاطرة بينه وبين فتحزى بك . فلم يجده اعترافه هذا نفعا ولم يلحق بالكاتب
ضرراً وخرج من القصر مطروداً وما بقي له الا اسم التجسس .

ولما استمر مراد الطاغستاني على اصدار (ميزان) بمصر ثم (جنيف)
ونشر في جريدته أحاديث جرت في (يلديز) بين خاصة عبد الحميد وأخذ يسمو
الى أن نشر أحاديث جرت بين عبد الحميد نفسه وبين مقربيه غير مضيع منها
حرفاً ، كبر الأمر على المستبد وعلى رجاله فداخله الريب حتى في أمنائه وشك
المقربون بعضهم في بعض وزادت الوشائيات عن ذى قبل . فلا الصديق يثق
بصديقه ولا الوالد يأمن على سره ولده وعظم الوجل واشتد الحرص في
القلوب . فلما كثرت الظنون وتنوعت أخذ البعض يذهب الى أن لمراد رجالا
حتى في قصر السلطان يوافونه باخباره . وزعم بعضهم أن بالآستانة بل بقصر
الملك جمجمة خفية تتآمر على اغتيال عبد الحميد . فمن قائل ان ولى العهد هو رئيس
تلك الجمعية لا بل رئيسها هو المشير فلان أو الوزير فلان وكثرت تقارير
الجواسيس على عبد الحميد الى أن عجز عن استيفاء قراءتها كلها
وقد طمعت نفس الاستبداد الى أكثر مما تقدم . وذلك ان عبد الحميد

كان اشترى بعض الصحف الأوروبية والمثانية وخصص لأصحابها رواتب
لتمدفع عنه وتحارب له الأحرار . وهذه الجرائد المشتراة بدماء العثمانيين
لتكذب على العثمانيين وتمتهن العثمانيين موجودة الى اليوم لم تحتجب منها
الا قليلات كانت تبدو بمصر . وكان أصحاب هذه الجرائد يذهبون الى
الآستانة كل عام فيقضون بها أياماً وشهوراً يحتالون على عبد الحميد فيسرقون
دراهمه ويحتال هو عليهم فيسرق قلوبهم وكل يظن أنه يغش صاحبه وكل
صادق وكل كاذب نفسه . الا أن عبد الحميد انتصر على الأحرار بهذه
الجرائد . فلقد احتقرها أكثر الناس استخفافاً بأربابها ورموها تحت أقدامهم .
ولكن الذين فعلوا ذلك هم العارفون بمن يصدرونها ، الواقفون على أحوالهم
وسيرهم . اما القاطنون في البلاد البعيدة ممن كانت ترسل اليهم ولم يعرفوا
عن أصحابها الا ما يرونها على رأس الجريدة كقولهم (صاحب الامتياز هو
سماعة فلان) أو (يقوم بتحرير هذه الجريدة هيئة من مشاهير الكتاب
ورجال السياسة الخ الخ ...) فلا عجب اذا انخدعوا بهذه الالقاب والجلل
الساحرة . والعثمانيون القاطنون صميم الاناطولى أقرب خلق الله الى
الانخداع .

اضطر عبد الحميد وأعوانه الى ركوب هذا الشطط تخوفه من جرائد
الأحرار ثم تألم مما كان يكتب فيها عنه .

وقد شاهد المنقطعون الى تحقيق الأمور أن أكثر المأمورين العثمانيين
كانوا يستحون مما يكتبه فيهم الأحرار وما يصفونهم به من الخمول والجهل
والتدلف الى الرؤساء وعدم المعرفة بما عهد . فكان منهم عمال إلا اليهم من



صاحب القانون الاساسي العثماني وشهيد الحرية

مدحت باشا

من يجهد نفسه لكي لا يصدق فيه ما يقوله الأحرار وكان منهم من يقول
هؤلاء أعداء الخليفة والمسلمين . هم أنصار الفرنجة يريدون أن نصبح
كلنا مجردين من الدين . فيجب ان لا نلتفت الى أقوالهم ولا الى
مفترياتهم .

ولما بدت على وجوه المأمورين وكبار رجال الدولة آثار الخوف والوجل

مما يكتبه سراد في (ميزانه) ويكتبه غيره من الأحرار في جرائدهم انقبه
لذلك بمض الشبان ممن زاد نصيبهم من التعلم وأوتوا الذكاء. ففر كثير منهم
الى الأقطار الأجنبية والى مصر التى كانت مهيطة ملائكة الحرية وشاركوا
اخوانهم المجاهدين فى جهادهم وبقى غيرهم بالآستانة ليوافوهم بما يتجدد فيها
من النبأ اليقين . فكان هؤلاء المجاهدون مقيمين فى وسط النار تحرق ما حولهم
ولا يصيبهم منها سوى حرق تبقى أياماً ثم تزول . وقد يذهب منهم وفوداً
لها من يذهب . وبهؤلاء ملئت السجون ومواطن النفي ولقبهم الماتون
المتعصبون ألقاباً وسموهم أسماء وعتوهم نموتاً : فقالوا المتفرنجون والكافرون
وأعداء الدولة والدين وأضحى شقاؤهم فى الولايات أشد . فكان الولاة
وأكثر رجال الحكومة يضربونهم ويحبسونهم . وقد يهدرون دماءهم
ويبيعون للناس نهبهم ويذلونهم اذلالاً . وفى ظلم انيس باشا أحد ولاة
(قسطمونى) سابقاً واعتدائه على المنفيين عبرة للسائلين .

﴿ أبو الهدى ﴾

﴿ بالآستانة وعصر ﴾

رجل نشأ في (خان شيخون) وهو اسم قرية من قرى حلب . مجهول
نسب والحسب . فقيراً من المال والعلم . لا نصير له الا عقل ما بجلي شعاعه
على داجية معضلة الا أنارها ، وسيم الحيا طاقه ، فتى العزيمة ماضيها ؛ طموح
النفس الى كل سودد ، صبور على المكاره ، اذا نال جشع واذا حرم شبع ،
لطيف ظريف . لا يل مجلسه ، شمائله أندى من الزهر ، وهيبته أعظم من
هيبة السبع ، اذا تقاعس تحالم واذا قدر بطش غير راحم ، يبدى على صفحته
ما يريد ويكن في ضميره ما يريد ، لا يخذله تلون ولا تلجأج ، لجام نفسه بيده
بصرفها كيف يشاء وأنى يشاء . ذلك هو أبو الهدى المعروف عند العثمانيين
والمصريين .

ادعى النسب وربط أسلافه بببوتات و بطون كثيرة . فهو رفاعي خالدي
فرشي هاشمي علوي . ثم غساني تبعي . ثم عالم فقيه نحوي لغوي أديب مؤرخ
متصوف فيلسوف فلكي طيب عرّاف ولي شاعر كاتب سياسي اداري
مالي عسكري بحري بري . ثم هو مستبد جاسوس وحر دستوري فاسق
تقى مبذر ممسك جبان شجاع قوي ضعيف حبيب عدو خائن وفي يتقلب
في هذه النعوت والصفات ، ما بين غمضة عين وانتباهتها . ولولا خوف الهجر

لقلنا أنه كل يوم في شأن .

أحرز أشرف الألقاب فقليل له (صاحب السباحة والسيادة) وكفى بأجل الكنى . فدعى (مستشار الملك . حامى العثمانيين سيد العرب .) ولكن غلبت سورة الحق على كل هذه الأباطيل وسمى (أبا الضلال) فبقى لا هذا الاسم صفة حتى لقي به ربه .

وليس بعيد أن يكون أبو الهدى ولد مطبوعا على الخير راغباً في المعالي فسلكت الطريق إليها كما أراد وكما أراه عقله . ولعله كان يظل مقبياً على الانصاف لو وجد منهم الانصاف . ولكن كثر مزاحمونه وجم حاسدونه فاضطر إلى محاربتهم غيرة على أربه وحفظاً لحياته . وهو في دهائه ووفرة تجاربه عالم بأن نعم الملوك تتكنفها النقم . فنازل أعداءه منازل لا مشفق ولا آمن وأيقن أنه إن غفل عنهم برهة دبروا له من المكائد ما يذهب بعزه ويقصيه عن سلطانه . فجعل كلما أتاه منهم شر أرسل عليهم مثله . دقة بدقة . وماتشمر لحربه إلا كبار الرجال من أهل الخطوة عند السلطان . فما زال بهم حتى بزهم واحداً واحداً وبقي مكانه كالطود الراسخ لا ترزعزع قواعده الصروف ولا تترقى إليه الهمم .

استمال فريقاً من الرجال . منهم الأمراء وأهل الثروة وذوو الحكم في البلاد . فأظهر لهم الود واستعمل قدرتهم في أغراضه . ووفد عليه العلماء والشعراء والكتاب يستعينون به على قضاء حوائجهم . فأخذ بناصرهم وأكرم وفادتهم وأدنى منه مجلسهم . فكان منهم من يؤلفون الأسفار ويعزونها إليه ومنهم من ينظمون الأشعار ويروونها عنه . فتناقلت الألسن ما بدا من فضله المتزود

به وسهت الأفكار عن نفسه الكمين فيه . على أنى لأقول قصه . ومن أين لنا أنه كان ناقصاً ؟ وهل يقدم أكثر الناس على المكاره الا مضطرين وان كان منهم من تشبهاها ويستتر بها ؟ على أن ضرورات الحياة أشقت أبا الهدى من حيث أسعدته وحطته من حيث رفعتة فعاش وهو حبيب الناس عدوهم . وألف الحيل لما رأى حياته ونشبه لا يسلان الا بها . وقلت ثقته بالناس وقلت رغبته في مصافاتهم . فعاش وأشد الناس ملازمة له أشدهم خوفاً منه .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى * عدواً له مامن صداقته بد
أتى على أبي الهدى حين من الدهر يفزع اسمه الولاة على مقاعد
ولا ياتهم ويرهب الوزراء بل الصدور وهم على أرائك حكومتهم : ينفذالى
أحدهم وصاة فى أمر لا يجراً عليه غيره ولا يجيزه قوانين الدولة ولا يرضى
به عبد الحميد . فلا يستطيع أحد أن يظهر له مخالفة ولا أن يضر فى نفسه
مهاطلة . وكم أمر السلطان أمراً وأبطله أبو الهدى وكم شك الرجال كثرة ما يقترح
لهم فما أفادهم ذلك ولا ضره . وكان عبد الحميد (يقول) عجبت لهؤلاء الخونة
الذين يحسدون شيخى وليس فيهم من يليق به أن يكون من خدامه . يكتب
لى الواحد منهم كتاباً يطلب من فيه بدرة مال أو رتبة لا تكاد تذكر وهو
مع ذلك يتعسف الحيل ولا يتهدى اليها سبيلا . أما أبو الهدى فان سألنى
سألنى عن ثقة وظرف ولا يتدنى بقدره الى طلب ما يكون مشاعا يمكن أن
ينازعه فيه غيره بل يطلب منى ما يفتخر الشريف بنيله . فهو الأمير وأولئك
هم الصماليك .)

وما زال أبو الهدي مجداً في طلب خصومه وهو كلما أدرك واحداً جلد به الأرض وداسه بقدميه ، فلا يقوم بعدها أبداً . حتى سخر الله له عزت العابد فثبت أمامه وناوأه في وجهه . فكانا ككفتي الميزان إذا رجح أحدهما خف صاحبه . اشتدت وطأة كل منهما على الآخر وضاعت بينهما مصالح الأئمة والدولة . وانقسم عامة الناس إلى حزينين أحدهما هدائي وثانيهما عزتي فما يبرم هذا أمراً إلا ينقضه ذلك . ولا يفتح ذاك باباً إلا يفلقه هذا . ولما رأى الناس من العابد ثبات قدمه في مصاولة أبي الهدي جنحوا إليه بآمالهم ولاذوا بركنه عند فرغهم وسر بذلك عبد الحميد . فاتخذ كلا من المتفاضلين رفيقاً على مفاضله . ورأى سائر أعداء أبي الهدي أن لا يختلفوا في محاربتة فاتحدوا عليه ورضوا بهزت العابد زعياً فساروا تحت رايته وعملوا برأيه حتى كادوا يغلبون الصيادي وينزحونه من طريقهم .

أما أبو الهدي فقد قرع باب السعادة في أول أمره داعياً باسم الدين وسار في طريق حياته سالكاً مسلك المتصوفين . فكان يأتي عبد الحميد كل يوم بعجوبة من العجائب . فأوتنه ببلنه سلام النبي وحيناً يقص عليه رؤيا يزعم أنه رآها ويفسرها له على ما يلائم هواه ويرضيه ثم يدعي لأبيه ولنفسه كرامات لا وجود لها . وكان عبد الحميد محباً لهذه الأشياء ويظن أنها من أقرب الوسائل إلى استدامة حكمه . غير أن أبا الهدي تعدى ما كان رسم له . فأفهم سيده أن السالكين طريقة الرفاعي من دراويشه كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها وأنهم يحلون ويتفانون في حبه وأنه إذا نابه أمر قاموا عن بكرة أبيهم انتصاراً له . فكان عبد الحميد يسمع ذلك فيصدقه أو يضطر عقله إلى

تصديقه لأمر يطمه هو . ولكن حيل أبي الهدي تسدت السلطان الى غيره
فكان له رجال يتدعون له الكرامات وينتجلون المعجزات لأبيه . ولقد روى
لى الكاتب المصرى الشهير المرحوم ابراهيم بك المويلحى نادرة منها قال : كنت
ذات يوم عند أبي الهدي وقد غص مجلسه بقوم من أصحابه وشيعته وكلمهم
جلوس كان على رؤوسهم الطير . فأخذ أبو الهدي يحدثنا بأمر وقع لأبيه
قال : رحمة الله على سيدى الوالد ما أظرف ما كانت تصدق به كراماته .
خرج ذات يوم شديد الهاجرة فى حلب يريد التنزه . فاشتد عليه القيظ وعلم
أنه لم يصب فى اختيار وقت التنزه . فاثنى راجعاً الى باب داره حتى اذا
وافاه جلس على عتبة من فرط ما أصابه من التعب وأخرج منديلاً وجعل
يمسح به عرقه المتصبب على جبينه . وانه كذلك اذا برجل يقود حماراً له
عليه زنبيلان مملوآن خياراً . فاشتت نفس سيدى الوالد من ذلك الخيار وسأل
البائع أن يزن له منه رطلين . والرطل الحلبي يساوى أقتين ونصفاً . ففعل الرجل
ولما انتهى من وزن الخيار وأخذ ثمنه وهم بالانصراف ، التفت . فما راعه الا
زنبيلاه وليس فيهما ولا خياراً واحدة . فأخذ الرجل ينوح وينتحب ويقول
أين ذهب هذا الخيار ؟ لم يمر بنا أحد فنقول سرقة . فتبسم سيدى الوالد وقال
كم كان بزنبيليك من الخيار . قال الرجل سبعون رطلاً . فدفع اليه سيدى الوالد
ثمنه وقال أنا أكلته . فنظر الرجل فى وجه الوالد ملياً ثم صاح والله انك لقطب
الزمان وغوثه وانكب على قدميه يقبلها . فطيب الوالد الرجل وقال لا عليك
بأس . ولكن عاهدنى أن لا تبوح بما رأيت لأحد . فعاهده الرجل على ذلك
ومضى فى شأنه . قال المويلحى فما أتم أبو الهدي كلامه الا نهض رجل فى

أخريات الجالسين وقال يامولاي عفواً انه لم يكن بالزنبيلين سبعة من رطلابل
خسة وتسعون كما أخبرني به البائع نفسه قال أبو الهدى لله أنت ما أحفظ
قلبك ، والله لقد أنسا الزمان ذلك . قلت للمويلحي يا ابراهيم بك هذه
ليست بكرامة واذا صحت الرواية فأبو أبي الهدى جل أو ثور وليس بغوث
ولا شيطان .

وقد كتبت وأنا بالآستانة رسالة صغيرة طبعت بمصر سميتها (الخافي
والبادي من فضائح الصيادي) ذكرت فيها أشياء كثيرة من هذا القبيل
لا أرى بي حاجة الى استعادتها هنا .

وكما انتصر أبو الهدى على خصومه بالوشايات انتصر عليهم بالجرائد .
فوجه الى مصر في نحو سنة ١٨٩٢ رجلاً من دراويشه اسمه السيد كمال الدين
الدمشقي . فأتى هذا الرجل الى مصر محملاً بالمال مصحوباً برعاية أبي الهدى
وقوته . وكان خليعاً ظريفاً وسيم الحياء يعيش وكأنه مروحة في يد الحسناء .
فأصدر كمال الدين جريدة القاهرة التي أسسها سليم فارس ثم نشرها من بعده
محمد عارف الكاتب الشهير . فكان خيبة الجدة استكثرت على (القاهرة)
سابق (مجدها) فأرادت أن تنزها بعد الرفعة الى أسفل الدرجات . فأخذت
تنشر جريدة القاهرة كل أسبوع بعد أن كانت تنشر كل يوم . وسودت
صفحاتها بمقالات الدراويش وأهل المجون بعد أن كانت ترصعها بالآلآء
أقلام مشاهير الكتاب في عهد سليم فارس ومحمد عارف وأنتها قصائد الصوفية
مطولة باردة مظلمة كلياً الى الشتاء .

وقد اشتغلت الدسائس بين مصر والآستانة . فأخذ كثير من الأغنياء



أشعر شعراء الترك وأكثب كتابهم الأديب الأعظم
[نامق كمال بك الشهير]

يحبون كمال الدين المال ويتخذونه شفيعاً إلى أبي الهدى في استجلاب رتبة
أو وسام أو قضاء حاجة دخلت فيها المشكلات . وأخذت جماعة من رجال
عزت العابد تنصرف بالمعية وأخذت المعية تطارد كمال الدين . وبذا عرف المصريون
من مكانة أبي الهدى ما لم يعرفوا من قبل . فأقبلوا على سفيره المغمم يمشون
ورآه . ودخل أبو الهدى أبواباً لم تكن تنفتح له لولا جريدته ودرويشه .
فقصد إليه المتنازعون مع المعية في أمر جزيرة طاشيوز وتحملوا إليه الدراهم
ويعمه أصحاب وقف العلماء في قضية الأزهر ثم تاجر بالرتب والنياشين

فربحت تجارتها.

وكان المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى صديقاً لأبي الهدى . وكان كل يخاطب صاحبه بيا ابن العم ولا يصبر أحدهما على فراق الثاني يوماً واحداً . فسعى بينهما بالنخبة عبد الله النديم حتى تنافرا وبلغت منهما المداوة والبغضاء أن بات كل يطلب موت بغيضه . ومن هنا بدأت الحروب الصيادية وتنازل القرنان . ولولا أن المنية تداركت الأفغانى لظلت الحرب الى يوم اعلان الدستور . وسيأتى الكلام على هذه الوقائع فى فصل خاص بها .

ولقد نفع أبا الهدى كثرة حاسديه . فأتخذ فرط بغضهم له برهاناً على إخلاصه لعبد الحميد وجعل يوهمه أنه لو كان خائناً مثلهم لما أبغضوه . وما أراح ذلك عبد الحميد ولكنه أظهر الارتياح . فصاحبه على ريبة من أمره ثم خافه على نفسه . فبات يدبر له ما يرديه . غير أن أبا الهدى أحس بالشر وعلم أنه ان وقع مرة ان تقوم له بعدة قائمة . فأسر الى قوم يعلم أنهم ان يحفظوا له سرا ، أن عنده صورة فتوى بخلع عبد الحميد من شيخ الاسلام المرحوم عريانى زاده مكتوبة بخطه مذيلة بخاتمه وأنه لا ينشرها الا اذا أوجس على نفسه خيفة . فنقل هذا الكلام الى عبد الحميد . فهاج له وسأوسه واستطال سهادته وحال بين أبي الهدى والهلاك . وكان أبو الهدى كثير الدالة على نسيده . فكثيراً ما قاطعه أسابيع لا يظأ فيها بساطاً له . واذا كتب يسأله عن أمر لا يرد عليه جواباً حتى يسترضيه سيده بحاجة يقضيها له .

وكان أبو الهدى يركن فى الشدائد الى رأى ابنه حسن خالد بك . وهو شاب ظريف سهل الخلق ذكى الفؤاد حاضر البديهة يشبه أباه وجهاً لولا

لحية كثرة كست عارضى أبيه ولم تنبت بمارضيه . جرت عادة هذا الشاب أن يذهب الى قصر يلديز ويطوف بدوائره ويتجسس على رجال القصر كلهم . وقد برع في استراق السمع واختلاس ما يكتب بنظرة تترد اليه بعد ما تروى . خلال كتب الفيب فيرجع الى أبيه وعنده النبا اليقين بما كان وما يكون . وكان لأبي الهدي جاسوس آخر اسمه جميل ، حلبي الاصل . زوجته جارية من جوارى عبد الحميد واستخدموه بإدارة الجمارك (امانة الرسومات) وجعلوا له راتباً للتجسس . فكان هذا الرجل لا يرفع وشاية الى عبد الحميد الا باستشارة الصيادي . فأمر الصيادي وله جاسوسان أحدهما ابنه يأتيه بأبناء سيده وثانيهما جميل الحلبي ينقل عنه الى عبد الحميد ما يتفقان على نقله .

على أن أبا الهدي مع ما ذكرته عنه من تعدد موارده ورزقه وتيسر الكسب له لم يكن ذا وفر . بل كان كثير الديون ، اذ اضطرته موافقه مع خصومه الى الاستمرار على التبذير . ثم كلفه بالتشبه بأهل السباحة واظهار الأريحية والجرى على سنن الكبراء من السلف في اجازة المادحين وفتح باب داره للقاصدين من الضيوف والدارائش كان يستنفد ما في خزائنه . فيقترض من رجل صير في اسمه توفيق افندي الداغستاني . هذا ولم ينل صلة من عبد الحميد الا فرقا على انخاصة من شيعته القاطنين بأمر دعوته .

ماذا كان يريد أبو الهدي

ذهب كثير من الناس الى أن أبا الهدي كان يريد أن يجعل نفسه خليفة وأن يجعل الخلافة في العرب كما كانت . وهذا افتراء محض . أجل كانت نفس

الصيدى طامحة لكل ما يعليه كما أسلفت فى الفصل المتقدم ، ولكن نفسه لم تحدثه بشئ ، من ذلك . فقد عرف خطر هذا الأمر ومسافة بعده عن الامكان . وانما هاجمه أعداؤه بمثل هذه الأقاويل طلباً للايقاع به واقصائه عن عبد الحميد . وما غاظ أبا الهدى أحد مثل كاتب هذا الكتاب . وقد قلت فيه ما لم يقل غيرى وزعمت أنه كان يسمى فى قلب الخلافة والاستئثار بها . ولكنه زعم ليس بصحيح وانما أردت أن يبعد عن عبد الحميد ويخفف ضرره عن الدولة . وكان أحب الأشياء الى أبى الهدى أن يصير شيخ الاسلام . لأن صاحب هذا المقام له التصرف المطلق فى نصب القضاة وهزلهم وفيه من الوسائل لاستجلاب الدراهم مالا يتحصل فى مقام غيره . ولأبى الهدى دراويش ومادحون يحب أن يقلدهم مناصب رفيعة فى الولايات ليكسبوا فيها ويكسبوه معهم . ولكن عبد الحميد لم يسمح له هذا السماح ووقف وسواسه بينه وبين أمانى شيخه المحبوب . على أن أبا الهدى عاش ما عاش غير يائس من الفوز بمأربه .

ثم الخلافة ، وهى الملك فى عرف أهل البدعة والتمصب ، لا يحلم بها أبو الهدى ومن هم على شاكلة من رجال التصوف . فهم قوم يميلون الى اظهار النسل فى أنهارهم وادخار اللذات الى ليااليهم . ولأحب اليهم أن يقال فيهم انهم أهل الله ومقربوه ومن لا يرد لهم دعاء ومن جعل الأكوام وما بها من حى وجامد طوع مشيئاتهم . والولى ينفع الخليفة ويضره ويرفع البلاد ويضعها وليس الخليفة كذلك . وأهل التصوف يبدون الورع ويسرون الطمع . فهم يأكلون ويشربون خفية . فاذا هم جلسوا الى طالبيهم ادعوا

الصوم وتنزهوا عن مشاركة الناس في حالاتهم من ضرورة الأكل والشرب والنوم . وكيف كان يفتن أبو الهدي بأن يكون خليفة على العرب وهو يدعى أنه يفعل ما يريد بالرغم من الخلفاء ودول الأرض كلها . أما طمعه في أن يكون شيخ الاسلام فذلك لكي يقال انه رجل كاف بخدمة الدين ، ذو وجد بنصرة الشرع . فيزيد الناس فتنة بظاهر ورعه ويزيد الناس فتنة بحباهه وحبائه .

أكبر برهان على صدق ما أقول أن أبا الهدي لم يخاصم من الصدور ورجال الدولة الا من أبوا الانقياد الى رغائبه من استخدام تابعيه أو من بدأوا بمداوته ، أما رجال التصوف والمنتحلون العلم فقد شن عليهم الغارات وأنزل بهم البلاء ، ولو لم يتعرضوا له بعدوان . وذلك بأن هؤلاء مشاركون له في الصفات التي يحب التفرد بها .

كان الشيخ محمد ظافر المدني رحمة الله عليه رجلاً جاهلاً . وانه لأشبه الناس برؤساء الصوفيين الذين نراهم في القطر المصري ويسمون أنفسهم مشايخ السجادة ، وكان من رؤساء طريقة صوفية اسمها الشاذلية . عرف بالصلاح واجتناب الزخارف وحب التواضع . وقد اتصل بعبد الحميد في ولاية عهده أيام كان عبد العزيز سلطاناً على العثمانيين . فلما ولي الملك عبد الحميد زاد حباً للشيخ ظافر وأجزل عطاءه وشاد له تكية هي باقية الى اليوم على يسار الطريق الموصل الى قصر (الدينز) . وربما جاء ذكر الشيخ ظافر في أحد الفصول الآتية . هذا الشيخ المسكين كابد من أبي الهدي ما لا يدخل تحت الحصر . ولولا مكانته عند عبد الحميد وانتصار جماعة من أعداء أبي الهدي له لحل به من البلاء العظيم ما حل بغيره . وقد أتى محمد مصطفى ظافر بن الشيخ ظافر

وسائر اخوته وعمه المرحوم الشيخ حمزة مع عزت العابد فأمكن له أن يقاوم
أبا الهدى ويتقف أمامه طول أيام حياته .

وقد وقع لأبي الهدى مع الشيخ أسعد وكيل الفراشة رحمه الله أكثر
مما وقع له مع الشيخ ظافر . فقد نال أسعد من الحظوة لدى عبد الحميد ما لم
ينله أحد قبله وفاقه فيه أبو الهدى بعده . ولعل من سيقراون كتابي هذا من
المصريين لا يعرفون أسعد الذي أتى ذكره عرضاً في هدم السطور . ولولا
أن ذكره خارج عما نحن بصدده لأجملته لهم في كلمات . ولكنني أقول لهم ان
هذا الرجل يعرفه العراقي وبعض الخاصة من حزبه . فقد كان يكاتب العراقي
ويعده بحمل الخديوية وقفا عليه ومن يتلوه من ذريته ويبلغه سلام عبد الحميد
ورضاه . وقد أصاب أسعد جنون في عقله لم يعيش بعده كثيراً ومات وأنا
بالآستانة .

وكان الشيخ الجربي قصد الى الآستانة في إحدى السنين . ويعرف
المصريون ما اتصف به الجربي من حسن المنطق وجودة التريجة وبيان
الأسلوب . فلما اتصل ذلك بأبي الهدى همه وأورثه القلق وخاف أن يطول
بالآستانة مقامه فينال حظوة عند عبد الحميد ويتغلب عليه . فبادر من
ساعته الى القصر السلطاني وما خرج منه الا وصدر الأمر باقصاء الجربي
عن الآستانة .

ولان اشتغل أبو الهدى في كثير من أوقاته بمهام الملك فاذلك الا ليقول
عبد الحميد ان الله أتى هذا الرجل من علم كل شيء أوفر نصيب . وكان
يقول لكثير من الناس لو شئت لكلمت الطيور وساميتها اذ تحلق في الجو

وخطابت النمل ودعوت الوحوش فأجاب . كل هذا أراد به ادعاء الولاية والحظوة عند خلاق الكائنات . وكثيراً ما تباهى برجل يسميه سيدي القطب المهدي الرواس . يقول ان هذا القطب كان أستاذه وأنه لقنه كل ما يعلم واتخذه صاحباً لما رأى فيه من مخايل الذكاء . وذكر أن قطبه الرواس تفرس وجهه ذات يوم فقال على البديهة :

ان خافيك الذي غيبته * هو باد ظاهر في حاضرك

اجل قلباً في حمانا اننا * نحن قننا بالذي في خاطرك

فقلت ما الذي أراد بقوله (قننا بالذي في خاطرك) ا قال أراد ما لا ينبغي أن تعلمه لا أنت ولا أمثالك .

هذا الملك الروحاني المدعى هو أكبر عند جميع المحتالين من أهل التصوف من الملك الدنيوي . فقد قضوا على ملوك البلاد أن يمشلوا لأشاراتهم وأن يرفعوا أقدارهم وأن يهابوا جانبهم وما خاطبوا ملوك الاسلام اذ خاطبهم الا زعموا أن الله تعالى أوحى اليهم بذلك وعقلاء الشرق هم رجال الطبقة المتوسطة بين الملوك والسوقة . قليل ما بقى بالشرق من علم هو مقسم بينهم . أما الملوك والسوقة فتساوون علماً وفهماً . واذا امتاز الملوك عن اخوانهم السوقة في أشياء من السياسة فذلك محمول على كثرة معاناتها وتجربتها والاضطرار الى ممارستها . وقد رأيت من جهلاء الناس غير المنقطعين الى العبادة كثيرين لا يصدقون ا كاذب مشايخ الصوفية .

ومما لا أرى بأساً من ذكره في هذا الفصل أن أبا الهدي عثر في مكتبة (آيا صوفيا) على شيء من الجفر المنظوم . ذكر في أوله أنه كان من

محفوظات السلطان مراد الرابع . فطاب أبو الهدى بهذا الكتاب نفساً وأخذه من المكتبة واحتفظ عليه . فلما كانت المذبحة الأرمنية التي وقعت في سنة ١٨٩٤ رفع هذا الكتاب بنفسه الى عبد الحميد وإذا فيه إشارة بالحمرة على بيت من الشعر هو هذا :

ويحترق الأرمني الخبيث * بما كان أضمره فاستمر

فكان هذا معواناً لعبد الحميد على الجهل . فقد شد به عزيمته وأمضى مضاربه وباء بحسن الجزاء من عدو الناس وجزاؤهم وظهر لمن اتبعه من الجاهلين ظهور الأولياء .

أجل تكلم أبو الهدى كثيراً في أمر الخلافة حين حفلت مجالسه وأقبل عليه بالسمم أشياعه . فقال إن الخلافة كانت عربية وينبغي أن تبقى عربية ولم يبال بمن ينقل عنه هذا الكلام الى عبد الحميد . وهذا غاية في المكر . ود أن يرتاب عبد الحميد في أمره ويتوهم أنه يعمل على غصب الخلافة منه ليزداد خوفاً ويعيش معه على المسالمة . هذا وأبو الهدى أعلم الناس بأمر الخلافة وبعده عنها . ثم لم يكن كلفاً بها كلفه بادعاء الكرامة .

وما كان أكثرني تعجباً من دراويشه حين يذكرون له كرامات لا يصح تصديقها في مثل هذا العصر . زاعمين أنهم رأوها رأى العين . أخبرني كمال الدين الدمشقي أن العقارب في بيت أبي الهدى لا تؤذي أحداً وأنه نهى دراويشه عن قتلها . فقال دعوها لن يصيبكم منها أذى . وقال كثيراً ما ننام الليل وفي فراش الواحد منا واحدة أو ثنتان من العقارب ولا يخطر لنا على بال أنها ستؤذينا . وحدثني أبو الخير وهو خليفة أبي الهدى قال بينا نحن مع

السيد في أحد أذكاره إذ أخذته سكرة فعمد إلى حسام كان على الأرض
فأغمدته في صدر أحد الدراويش حتى خرج النصل من ظهره شبرا . فأخذ
منا الروح مأخذه . فما هو إلا أن استل الحسام وبصق على موضع الجرح
فالتأم لوقته ولم يترك له أثرا .

هذا الذي أراده أبو الهدي في حياته وقد نال منه مانال . وبمثل كلف
المتهمدي في السودان ومن ظهر باليمن . وأوطأت أيام الاستبداد ومات
أبو الهدي في دولته بعد سنين لكان قبره كقبر الولي يزار وتقام فيه الصلاة
ولألف له من يسرون على نهجه من بعده كتباً يذكرون فيها من كراماته
مافاته في أيام حياته . على أن ما بناه الباطل يهدمه الحق وفي اقبال الحظ ورفعة
الدولة ما يسهي المرء عن الصواب . ومن رأى أبا الهدي في أيام عزه وشهد
مصرعه بعد اعلان الدستور علم أن الباطل مهما طال قصير . وليت هذه
العظات تنفع أبناء الشرق فيقلعون عن الإستمسك بتلك الضاليل التي
خذلت السلف وأشقت الخلف ولا يعتمدون إلا على الجهد في أمورهم .



﴿ اللورد كرومر وأحرار العثمانيين ﴾

خير ما يقال عن اللورد كرومر انه كان أبا مشفقاً للمصريين وظهريراً كبيراً لأحرار العثمانيين. قدم مصر زمان أشكت أمورها ووجت مخاوفها. فشد أزرها وأنقضها وسط مخاوفها ووقف بها على حد التصافي . فكان لها كالطبيب النطاسي كلما شكت وجعاً بأدورها بالدواء بما يزيله . وظل الى يوم فارقتها يتحدث بفضلها من عرفوا حسن مقاصده وأدركوا مبتدأ أمره . غير أنه بلى يقوم لا يشكرون صنيعه وان جلت ولا يحمدون حالاً وان صفت . فقالوا منه وسفهوا عليه . فكان حظهم من ذلك كله أن قال الناس ان هؤلاء ليسوا أهلاً للحكومة . ما أصاب مصلح مصر من كيدهم سوء بل زادت محبته تمكناً من قلوب محبيه وزاد أهل السداد إعجاباً بحلمه كما زادوا إعجاباً بحكمته .

ثم قضت الضرورة أن يسلك اللورد كرومر مع بعض الجهات المصرية طريق الخشونة ، رداً للشر بالشر . فلما جاء فرمان الخديوية لأمر البلاد أبي الاذن بتلاوته قبل الاطلاع عليه . ثم طلب تفسير بعض أحكامه فيما يتعلق بالحدود بين مصر والبلاد العثمانية . فأذعن لذلك الباب العالي بعد جدال طال أياماً . وأصر على طلب اخراج عبد الله النديم من القطر المصري وأسقط الوزارة الرياضية الأخيرة ولم يشأ قبول الوزارة الفخرية . فسقطت بعد أن عاشت أربعاً وعشرين ساعة . هذه أشياء يؤخذ عليها اللورد كرومر من لم يعرف



✽ مصلح مصر ✽
« اللورد كرومر »

كيف وقعت . أما الذين خبروا الأمور وعرفوا أنه أخرج في حمله واضطر
إلى ركوب هذا المركب الخشن ، يقولون أنه لم يفعل إلا بمض ما يجب عليه .
وأنا إذا كر هنا ماجرته بنفسى من كرم طباعه وما عرفته يقيناً من مؤازرته
لأنصار الحق .

كانت بعض الجرائد الانكليزية كتبت في وصف الجنس التركي فصلاً
هو غاية في الذم . ثم ظهرت بعض الجرائد الحرة العربية فيحدث حذوها . أما
الجرائد الانكليزية فكانت ناطقة عما في قوادى المرحوم المستر غلاستون .
فأرادت كشف الغطاء عن مساوىء الحكومة المستبدة التي انقلبت . غير
أنها جعلت لومها خاصاً بالترك قياساً منها بأن الترك هم أولو الأصر في تلك
الحكومة . وأما الجرائد العربية الحرة فكان كلامها كلام من يجرع صرارة
الظلم وعاش تحت أثقاله حتى عيل صبره . فهو كلام عثمانيين يشتكون عثمانيين .
فالكنى كلام الفريقين وأوهمنى اتفاقهما في البيان أن هنالك قسداً آخر .
فشبت الحرب يومئذ بينى وبين اخوانى أولئك وبالغت في التعامل على
أصدقائى الانكليز . ولما انشأ صراد الطاغستانى ميزانه وادعى الرئاسة على
الأحرار زدت لهم بغضاً وذلك لأمر نعمتها على الطاغستانى لأذكرها في
هذا الكتاب لكي لا يشوبه شيء من أشياء لم تكن الا بين شخصين . وبذا
خسرت ود كثير من اخوانى العثمانيين مثل الفضلاء أصحاب المقطم وخلافى
النجباء وفي مقدمتهم الكاتب التركى الشهير على سعاد بك وسليم سر كيس
افندى صاحب المشير وغيرهم . الا أن صاحب المشير لم يشأ أن يجعل خلاف
الرأى خلافاً قلبياً فكنا عدوين في مناظراتنا وأخوين في معاشراتنا . ولقد

حفظ غيبتي ووفى لي بوعده . وأصاب اللورد كرومر من قلمي ما أصاب
اخواني الثمانيين .

هذه أشياء أذكرها مع ما أجد بذكرها من الألم لتكون عبرة لغيري
فلا يقع في مثلها كما وقعت فيها . وإنما يحزنني منها أني أسأت الظن بقوم
هجروا بلادهم لينقذوها من الظالم المستبد وأنى ظننت بالظالم خيراً فأخلصت
له الود . كل ذلك أنفة أن يكون مثل الطاغستاني من حماة وطني وثقة مني
بان للطاغستاني آراباً يسرها بوطنيته الظاهرة . وشاء الله أن أزوّر وطن
ميلادي الآستانة وأشهد مصارع الشهداء من اخواني الأرمين وأقف على
حقائق كانت عني غامضة . ورجع مراد وترك زعامة الأحرار . فعدت إلى مصر
وكان عبد الحميد أصدر إرادته بجعلي مراقباً للجرائد مكان عبد الله النديم بعد
موته فاستقلت بعد أن ذكرت الجرائد في أقسامها الرسمية خبر تعييني .

ويروق لي أن أذكر هنا واقعة حال جرت لي : ذلك أن المعية أتت
إلى أحد مستخدميها في عصابة لا أعلم من رجالها الا تقرأ قليلاً . وأنا إذ ذاك
بالاسكندرية أريد السفر إلى الآستانة لأرى عمالي كان هناك . فجاءني
الرسول في عصابته ليلاً وجعل يتوعدني بالضرب والتحقير إذا أنا لم أكتب
له ورقة أقول فيها أن كل ما أَدفع به عن عبد الحميد زور وبهتان . فكتبت
له الورقة التي طلبها ودفعتها إليه . فلما كان الغد رجعت إلى القاهرة وقصدت
إلى قصر الدوبارة ومعى اثنان من أصحابي فاستقبلنا المستر (بويل) وأظهر
لنا من البشاشة والظرف مالا أنساه له إلى اليوم وقام اللورد كرومر بمناصرتي
خير قيام وبقيت الأمارة لا تدري كيف تتحامي نبالي وكيف تحفض شماسي

ولو كان اللورد كرومر وسائر اخوانه الانكليز ممن يسرون الأحقاد لأغضى
عن شكائى ولأخرجنى من دار حكومته على أسوأ حال . هذا جميل لأزال
أذكره له وأشكره من أجله كلما هبت الشمال من بلاده تحمل أريج السلام
ولاسجلن وده فى فؤاد لا يكتفى ما ينجل صاحبه ولا يضع بين مكنونه شئ
من الجميل .

وما لاقاه المقطم من أعدائه أعظم . فكم تأمروا عليه جماعات وقصدوا
الى ادارته ليضربوا أصحابه ويلحقوا بهم كل سوء فتعجلتهم الحكومة المصرية
بحماة الأمن . ففرقوا المهاجرين ودفعوا عن المقطم شرهم . وكما حاولت حكومة
الاستبداد كسر تلك الاقلام التى نمت دياجة المقطم والانتقام ممن صرت
فى أناملهم فحال اللورد كرومر بينهم وبين ما يشتهون .

ولما طاردت الحكومة المستبدة صاحب المشير وجدت فى طلبه بما
فى ذرعها من وسائل الشر وخاف ذلك العثماني الحر على نفسه بهيها لم يجد
أمامه من يستصرخ بعد له مثل اللورد كرومر . وانى لأقتبس من آخر عدد
للمشير صدر بعد اعلان الدستور ما جاء بقلم صاحبه فى حكاية واقعة قال :

دخلت ووقفت بحضرة الرجل الجليل فقال :

— ما هو مذهبك ؟

— بروتستانتى .

من عادة البروتستانت أن يعلموا أولادهم الكتاب المقدس . فأت

عارف حافظ لآياته .

— نعم .

— ألا تذكر قول الكتاب والأُنبيا « لا تقل شيئاً في رئيس شعبك. »
و « يد الله على قلب الملك الخ ؟ »
— نعم أذكر ذلك .

— ولستك تعلم على حكومتك طعناً جارحاً . فأنى قرأت بمض
مقالاتك (وكان المشير يومئذ يصدر بالافتين العربية والانكليزية) .
— لو علم الرسل والأُنبيا بمثل هذه الحكومة ما قالوا قولهم . فتبسم .
فقلت .

— جنابك تقرأ عن مصائبنا في الجرائد ثم تنسى . وأما نحن فنشعر بها
كل حين . وترقرق الدموع في عيني . فسكن روعي وصرفتي قائلاً :
— إذا طلبوك فأنت لا تزال مصر ان شاء الله :

فانصرفت مسروراً حتى اذا كان المساء دعيت ثانية وأنبأوني أن قد
وردت تعليمات من انكلترا بعدم تسليم المجرمين السياسيين .

وما عاضد اللورد كرومر أحرار العثمانيين وأخذ بناصرهم في هذه
الواقعة وحدها ولا اكتفى من الجليل وتأيد الحق بمثل ولا مثيلين . بل أخذ
يوصل أعماله فيما هو ميسر له من المعروف . ولما جت المعية في إبادة الجماهير
العثمانية الحرة وأبالت في ذلك بلاءها رأت أن تم الفتح المبين بأخذ المطبعة
العثمانية من صاحبها المرحوم صالح جمال . فدست له يومئذ من ساومه
عليها عند أشد حاجته اليها . فلما أخذ ثمنها أو بعضه أقبل أناس من قبل المعية
فعمدوا الى أبواب المطبعة فجموها والى هفاتها فحتموها والى رسائلها
فجموها . وينغم في شغلهم بأعمالهم هذه اذا باللورد كرومر وقد طلع عليهم

طلوع البدر على ركب ضل عن الطريق. فاستخلص تلك الدفاتر والأوراق وأخذها إلى دار الوكالة البريطانية وهي لا تزال محفوظة فيها إلى يومنا هذا. وكان ممن شهد هذه الملعمة التي احتمرت ناراها بين الحق والباطل شقيق يوسف حمدي يكن أحد الذين جاهدوا مع الأحرار اذ ذاك .

ولو فازت المعية بتلك الدفاتر والكتب لاستخرجت منها أسماء كثيرين من المجاهدين العثمانيين القاطنين تحت سيطرة عبد الحميد. فمنهم من كان مشتركا في جريدة القانون الأساسي التي كانت تطبع في المطبعة العثمانية ومنهم من كان يوافقها بمقالاته وما يبلغه من أعمال الحكومة المستبدة . ولو عرف عبد الحميد أحداً من هؤلاء وهو يطارد هم في ليله ونهاره لأنزل به ثقمته ولأدلاه إلى أسماك البوسفور أو كبله بالحديد حتى تفيض نفسه وتلحسرت الأمة العثمانية من أبنائها من هم عدتها ليوم شدتها .

وان بهذه الصنائع تمكن ود اللورد من قلوب المجاهدين العثمانيين وبها سيخلد له الشاء في كتبهم كما خلد للأمة الانكليزية العظيمة التي نشأتها ومنها أخلاقه . غير أن كثيراً من أهل المعرفة ومصطنعي الجليل بلوا بقوم بعادونهم حين لاداعية للعداء . كذا كان اللورد كرومر مع جماعة من المصريين حاولوا أن يكذبوا بأقوالهم فعالة وأن يخطوا بباطلهم على حقه . وما ذلك بضائره أبدا . غداً تشهد كتب التاريخ بفضلهم على من ينكرونه ويستغفر أبناء العصر الآتي لذنوب أبناء هذا العصر . وانما حداثي إلى كتابة سطوري هذه ما يحدو بكل ذي كلف بالحق ، وما باللورد من حاجة إلى من يستنصف بكلامه . فقد استنصف لنفسه بكتابه الذي سماه (مصر الحديثة) . فهو

الكتاب لا ينسيه القدم ولا تمحو سطورہ الحقب . هكذا يظل منقوشاً على القلوب واذا لم تبلغ قصيدة من الشهرة مبلغ (قفانبك) فلن يبلغ كتاب من الشهرة مبلغ (مصر الحديثة) . وكم كتاب وكم كاتب . ماقت العظات ولا اقصرت الحوادث في الانذار ولكن بعض الأئمة لا تهتدى بالحكمة اليها السبيل .

﴿ بين التابع والمتبوع ﴾

هذا العنوان يذكرني قول شاعر الأمير في مطلع قصيدة له كان قالها بعد سنة ١٨٩٢ على وجه التقريب وهو قوله :

جددت عهد توأصل وتلاق * وعطفت مشتاقاً على مشتاق

لقد صدق الشاعر فيما قال وكم جرى القريض على لسان بغرض ولم يردده الضمير فوافق الواقع المقال : ثم مهجتان خفقتا معاً . وسكنتا معاً . فما استخف الشوق واحدهما الى ركوب البحر الا ألقى الثانية حين أكرهها على الصبر . حتى اذا التقى البصر بالبصر أنشد لسان كل منهما قول ابن معمر العذري

ولما تلاقينا عرفت الذي بها * كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل
وكان فترة ما بين عهد أبي الفداء وعهد فتاه سنة من نوم وكان تلك
الخللات تنوسيت على مرّ الأيام . فياله من يوم أغر محجل جلس فيه السلطان
الخامس والثلاثون لاستقبال الأمير السابع من البيت العلوي وفتحت أبواب
(يلديز) لمن ماشى ركاب الأمير من وفود المصريين وقيل لهم هذه جنة



الدكتور عبد الله بك جودت

ولي الدين بك مجبزه

اخلاصى علمى قوت ايمانى الويرى :
 انانجه ، قاده اولما ديمك طالب اولما در :
 خلقك عزم ، ياز قاننه ، ياز دماغنه :
 والوه جمدال در ، ياز سامانه غلب اولما در ،
 ١٩٠٩ سبته
 رفقو

عبدالله جودت

الدنيا أزلقت لكم وتلك رياضها حصباؤها الدر وترايبها المسك وتلك حياضها
مترعة بصافي الخير غير. آجن ومدت الموائد وطاف عليهم مقربون يتلون
عليهم بشائر من عند السلطان وانقلبوا بمد ذلك الى أهلهم فكبرين .

ورأى بمد ذاهجة من خلق الله أن يحملوا بين التابع وبين المتبوع
حرمة صهر ويجددوا حجة نسب ألقمها الله الهامى باشا بن المرحوم عباس باشا
الأول وزوج (منيره) سلطنة بنت السلطان الجليل عبد المجيد خان . وكاد
يستدرجها الله بدرجة النسيان . ولكن شتان ما بين العصرين . فما كان
الهامى صاحب الأمر بمصر ولا من يرجى ليحكمها وقد أقام بعاصمة الملك
العثماني وبقي عضواً بالمجلس الأعلى (مجلس والا) حتى جاور به في سنة ١٢٧٧
بالغا من العمر خمسا وعشرين سنة . أما غيره فليس كذلك . فهو صاحب بلد
ووارث ملك ورب حكومة لا يودع سريرها ليبدل به سرير نوم . وأميرات
البيت العثماني لا يزالن عاصمة ملك هن كواكب سمائه . والى هذا نظر أبو
الهدى وبه استمسك عند السلطان ولو كان بينه وبين خاطب ذلك المجد
ود ووحدة قصد لا حتال له في نيل أربه ولكفاه أن يعود من الغنيمة بمد
الكمد بالقفل .

فلما باتت آمال المية غير ذات نتاج وكبر عليها أن ينازعها أحد
الدراويش حظوة القرب من عرش الملك بمد استنجاها بمثل جمال الدين
وعبد الله النديم والشيخ ظافر وغيرهم وقفت النخوة العلوية بينها وبين (فروق)
ودب الجفاء بين الأب وابنه . وفي سنة ١٨٩٤ قدم مراد الداغستاني الى
مصر وأصدر بها (ميزانه) كما ذكرته في أحد الفصول المتقدمة فنزل بالمية

على الرحب والسعة وأكرمت هي مشواه وانزلته منزل التكريم . وكانت
استخدمت رشيد بك صاحب جريدة (بصير الشرق) معاونا بالخاصة
الخدمية . فأتحد مراد ورشيد بك مع رجل بالمعية اسمه (ع) بك وبلغت
الثقة بهؤلاء الثلاثة أن باتوا أصحاب السكامة في صرح الإمارة ودانت لهم
الرقاب وعنت لهم الرجوه . وبذا تباشر الناس وغان أكثرهم خيراً وأيقن
المجاهدون في سبيل الحرية أن سيرسل الله لهم ملائكة نصره .

واذ مضى عبد الحميد ذرعاً باستمرار الأحرار على مطالبته بالدستور
ومقاضاته الى الرأي العام بما يكتبون من كتبهم وجرائدهم ورأى قوميسرية
الدولة بمصر لا تبرم أمراً ولا تنقض رأياً وأنها شغلت عن أمورها بالصعيد
والقنص واقتناء الخيول ومواصلة الأسفار بين القاهرة والاسكندرية وأنها
لا تتقدم صفوف المجاهدين فيتخذها عدوة له ولا تبدى له من دلائل
الاخلاص ما يحمله على الثقة بها والركون اليها . وبينما يصيح الظلم من داخل
الفؤاد الحميدى : من لهذه المعضلات يكشف غمها ويخلص عن يقينها ؟ اذا همزت
يناديه . أنا لها . والله لا نفمن لك في نجيمها وأخوضن أهوالها ولا نقذن
الى أعدائك نفوذ رمياتك الى قلوب شهدائك . وأرسل ابن هولوا الى
الإمارة المصرية أن انفضى ثيابك من غبار المار وأخلصى سرك وجهرك
لسلطان البرين والبحرين ودعى قوما ينشدون ضالة أفقدها سوء المصير . فما
استهلست سنة ١٨٩٧ الا استشمرت المعية بضرورة الافغان . رأت نفسها
ناحية جانباً عن رضا عبد الحميد مستهدفة لغضب الأنكليز وهى كلما عوات
على ود امرىء خابت آمالها فيه حتى أصبحت كما قال الطغرائى :

فلا صديق اليه مشتكى حزني ولا حبيب اليه منتهى جذلي
 فاستخارت أولى مشورتها . فبذلت ألف جنيه اشترت بهما عند الأحرار
 الذين بمصر من بقايا آثار وأوراق وكتب وجرائد وملأت بها صندوقاً
 كبيراً وأنفذته مع (ع) بك إلى الآستانة . وفي تلك الأوراق نسخ من
 رواية (كيوم تل) باللغة التركية ابتاعها بمائة جنيه . وأرادت الممثلة أن تجري
 حينئذ على مصداق المثل التركي (رمى طائرین بحجر واحد) . فأوصت
 رسولها بالسعي في حل المعضلة التي كانت استجدت في وقف (قواله وطشيوز)
 فوقف أمام (يلديز) ولسان حاله يقول :

لى في معاليك آمال أرجيها فهل سمحت بأنشاد فأبديها .
 وما لبث المعتمد أن طير رسالة برقية من (فروق) وقعت في (المنزه)
 مبشراً ونذيراً وعاد بعد ذلك يلتمع على صدره الوسام المجيدي الثالث وحق
 فيه قول القائل ؟

إذا كنت في حاجة مرسلأ فأرسل ليدياً ولا توصه
 غير أن الأحرار لم يحملوا الود ولم يحفظوا الجميل بل انقلبوا على مدمر
 المال ومفيض النضار وأصدروا جريدة (القانون الأساسي) بالعربية
 والتركية بعد أن كانوا يصدرونها بالتركية وحدها وأصدروا جريدة (عثمانلى)
 بالتركية والانكليزية . وقد أفادتهم الألف ليرة أكبر فائدة فأكملوا أهبتهم
 واتخذوا سلاحهم ونادوا الظالمين

ألا لا يحسب الأقوام أنا تضمضعنا وأنا قد ونينا
 ألا لا يجهلاً أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ونظروا الى (يلدينز) ومن يتقربون اليها وأنشدوا مآخريين :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدين

وبدل رضا القصر الحميدى غضباً ونادى مناديه سيفاً ونطماً. وخذلت
المعية أحلافها وأنصارها وعاد الجفاء الى سابق عهده وكثرت الوشايات
والسمايات. وبينما هي كذلك اذ حلت احدى النقم بحاميتها وموئلها عزت العابد
وكان أرسل أحد أبنائه الى مدرسة من مدارس باريس . فاتهمه أحد أعدائه
عند السلطان بأنه أرسل ابنه ليكون واسطة في مراسلته للأحرار . فبلغ ذلك
ابن هولو . فبادر من وقته واسترجع ابنه وجعل يؤنبه على مخالطة الأحرار
وقال لن ترجع الى باريس . ولكن الولد كان على علق لبه بتلك العاصمة الفاتنة
وشجته شواطئ (السين) بجسورها العالية ومسارحها الخافلة . فأجاب اليها
داعي الصبا وطار على أجنحة الشوق لا يلوى على من خلف وراءه من أب
ولا غيره . فكم من وشاية يومئذ وكم من سعاية . لو أدرج ابن هولو في تلك
الأوراق التي رفعها أعداؤه ليحطوه لكانت أكفانا له ولمن يلوذ به . فكان
كالشاعر الذي يقول :

فصرت اذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

ولقد أفلح الكاشحون وخر عزت على وجهه . فلزم بيته وانقطع عن
(يلدينز) وانقطع أصحابه عن طروق داره . وقال أبو الهدي وأحلافه ان ابن
عزت لحق بأمر مصر ولجأ الى عابدين ورسل منها الى القبة فأفرد له مكان
خاص به وبات ضيفاً كريماً بجوار مضيف كريم . فأشار على عبد الحميد جماعة
من مقربيه أن ينفذ الى مصر جاسوساً ممن يثق بهم ليتنصروا له بالأخبار ويطلع

مولاه على ما يدور بما بين من الأعمال . فقدم مصر ذلك الرسول المتنكر مستصحباً معه آخرين جربهم وعرف حسن بلائهم . فكان هؤلاء الشياطين يرصدون قصر الامارة وجاسوسها (ز ...) يقتص أن جماعة غيرهم ويواصل أسفاره من الرحمانية الى القربية الى الاسكندرية ولا يدري ما قدر له في الغيب . ولما لاحت نباشير النجج على ما دبره رجال عبد الحميد طلبوا المزيد . وقالوا اذا رميت فأجهز . فاستفروا جمهوراً من أهالي جزيرة (طشيوز) واستقدموهم الى الآستانة مشتكين مما لحق بهم من الضر بقطع أشجارهم . طالبين نقلهم من الجزيرة الى موضع يكون بمنزل عن هذا الاعتداء . فكشروا بدا عريضة وقالوا في وقف (قواله) مالا أحب أن أقوله الآن . فوقعت العريضة موقع القبول عند خاقان البرين والبحرين وطيب نفوسهم ووعدهم النظر في أمرهم والأخذ بناصرهم وبقي واحد من الجمهور بالآستانة لياأتهم بما يتجدد من الأنباء .

وقد حدثت أمور في دائرة الأميرة الجليلة الطيبة الذكر عصمت هانم بنت المرحوم الأمير طوسون باشا . وتلك الأمور هي فيما يتعلق بالأعمال الادارية . فقضت الحاجة بسفر الجنرال احمد جلال الدين باشا زوج الأميرة الى مصر للنظر في مهام تلك الأمور . فظن رجال (يلديز) وخلصاء قصر الامارة أن سيقدم الجنرال مصر ليخاطب أحرار العثمانيين النازلين بها في العودة الى الآستانة . ومنهم من أذاع بين الناس أن سيكون للجنرال موضع بالقوميسرية العثمانية ليرقب الغازي مختار باشا ويستطلع خفايا أعماله تخرصا وتلفيقاً . . فبادر (م . س .) باشا وأنفذ الى صديقه (م . ش) باشا كتابا يستبطن فيه أعماله

ويذم سكوته وسكوت قصر الامارة ويظهر التعجب من تفاؤل صاحبه عن هذه الفرصة التي سنحت لاستعادة الصفاء بين التابع والمتبوع بعدما بلغ التجافي حده ويمده بالرتب المالية والهبات الجلدة . وما اتصل هذا الكتاب بيد (م . ش .) باشا الأترك شواغله وانصرف عن همومه واستدعى الى داره صاحب (عثمانلى) وجعل يؤنبه على اصدار جريدته ويقول له ينبغي علينا أن نتكتم عيوبنا عن أعدائنا وأن نستر على زلات رجائنا . فالحكم تنشرون من مساوئنا ما انطوى . أتريدون أن تفتضح عند خصوصنا فتميش مذممين على ألسنتهم منتقصين في أعينهم . وعند سلطاننا لو شئتم ما يفرج المكروب ويحيي ميتة الآمال . فكان مخاطبه يسمعه ويتبسم ويقول ان مع العسر يسراً .

أما الجنرال أحمد جلال الدين باشا فلم يأذن له عبد الحميد بالسفر وقال له أنا أعرف أن الغازى مختار باشا حاسد لك وأعرف أنك صلب في عنادك وأخشى ان تذهب الى مصر فيقع بينكما ما يستحدث أموراً عظيمة . فأخر سفرك في عامنا هذا وربما تدبرت لك في سبب جديد يؤدى الى مقصودك . فلم يجد الجنرال بداً من الرضاء .

وروى أن ابن هولوا لما كثر مغالبوه وبدت لمنازليه مقاتله عمد إلى مصاولتهم بكل حيلة يتنبه لها ذهنه ولو كان فيها خراب الملك ودثور آثاره حتى عرف ذلك الأجانب قبل العثمانيين فقال له ذات يوم المسيو (كمبون) سفير فرنسا بالآستانة اذ ذاك . عجزت دول أوروبا عن حل المسألة الشرقية في أعوامها المديدة وبوشاك أن تحلها أنت فما دون العام . وتقل هذا الكلام ناقله الى عبد الحميد فحقد لها عليه واستبقى الانتقام الى زمان يهون فيه الانتقام

وكان أعداء عزت والمهية المصرية واقفين لهما بالمراسيد. فلما سافر البرنس عزيز الى نجد أقاموا (يلديز) وأقمدها وبالفوا وفي صف ماسيتلو ذلك من الفتن وقالوا هو أصم الخلافة أن لا أعوانه أن يجاهروا به . ثم أظهروا القلق من ذهاب الأمانة الى جهة المريش وما برحوا بمبد الحميد حتى حملوه على أن يأمر بزيادة الجنود في العقبة ليكونوا على أهبة اذا عاد الأمير محتازا بالطور . فأيقن الحزب الهدائي أن النصر حالفهم وأن قد عقدت رايات المجد على سيدهم . وسخر الله للصيادي أمرين تذرعهما الى الأثر والايقاع بأعدائه . فقصده الى أولياء وقف (طشيز) وكالوا له المال كيلا . ولحق بهم دائرة البرنس حلیم طالبة مظاهرتها في قضية العلماء والسيدة نراكت هانم قبل أن نظرت بالحكمة المختلطة بمصر في ١٤ فبراير سنة ١٨٩٨ ووجد خليل الله هنالك صدرا رحيبا ومنزلا أهلا وحملت الهدايا البلورية من (كاراسباد) وكان الأمر مقضيا .

وبينا أبو الهدى وشيعته في غرورهم يفرحون بما حل بعزت وأعوانه من خيبة وخسران اذ روعهم الله بالسفرة الشكيبية . فنزلت على رؤوسهم نزول القضاء المبرم . فبدلوا بأنس القرب وحشة النوى وتخفص العيش عناءه وطارت الرسائل البرقية بين السيد الصيادي وحبيبه بمصر : فانتعشت أرواح عزت وحزبه وأخذت الخطوة مأخذها الأول . فأصاب الأمانة المصرية حظها وقالت است بتاركتك يا (يلديز) هذه المرة . واعتصمت بحبل منها لا يرث بتقادم الزمان وتقلب الحداث . ولقد صدق المتنبي اذ قال :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

ولا يطمئن القارئ الكريم في بيان شيء من السفرة الشكيبية . فتلك

قصة تكفي فيها الإشارة ولا يحتمل الأدب من أمرها أكثر من الإشارة. وقد رأى بعضهم هم المعية ونصبها في استرضاء أناس من الأحرار العثمانيين واستسكانهم والسعي في إرجاعهم إلى الظالمين ليعجزوا نواصيهم ويرتاحوا من صراخهم المستمر لا يفاظ الأمة . فأجمعوا بينهم على أن يدعوا وجود جمعية سرية بمصر تسمى (جمعية شفق) وأن هذه الجمعية ذات شأن عظيم وأن لها من الأسرار ما لو كشف عنه الغطاء لحارت فيه العقول فطربت المعية لهذا الخبر طرب التمل وقالت في نفسها: الآن دار فلكي سهداً وأتاني الدهر مسالماً . غداً أستطلع هذه الخفايا وأبعث بها إلى (ياديز) كعبة الآمال . وما كان إلا مثل رجوع الطرف وإذا على أبوابها أقوام أكلت السنة المحجلة غواربهم ومناسمهم . أقبوا يدفع بعضهم بعضاً . فقيل لهم هاتوا ما عندكم من الأسرار . قالوا بل هاتوا أنتم ما عندكم من الدنانير وأسمعونا رنينها في أكفنا وأرونا لمعانها بأعيننا فتلك المفاتيح لهذه الكنوز . فانفتحت لهم ميازيب الجوتهمى نضار خالص وما ناب المستخبرين من (شفق) إلا احمرار ببق كالورس على وجوههم . وقد كاد يفوتني ذكر (الماري) المشهور . الذي كان معتمد إحدى الدول العظمى بمصر . فلقد كان مستشار الامارة باطنياً وصديقها ظاهراً . وثقت بوده وأخذت برأيه حتى أحدث الجفاء بينها وبين اللورد كرومر . وكان (الماري) يبشر الامارة بقرب خروج الانكليز من مصر ويمدها من لدن حكومته بالنصر والتأييد . فداع بين الناس أن هذا المستشار أشار على الامارة بالسعي في انتحال الخلافة ، مظهرًا لها مكان الدولة العثمانية من الخطر . مذكراً إياها بأن الخلافة أخذت من مصر وأنها ستعود إلى مصر . زاعماً أن دولة أيدت محمد

على الأول حتى تبوأ سرير الامارة المصرية لجديرة بأن تتوج سليل مجده بتاج
الخلافة . فوقعت هذه البشائر من القلب القتي وقع القبول ولكن عظم
المطلب وقلة الأنصار ثلثا عنان الصبا . وهنالك لمبت أنامل الرقباء فجاءت
الأنباء ساكن (يلديز) وفيها من الزيادات ما قدر على ايجاده أربابها . وكان
من تلك الزيادات أن المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني والمرحوم عبد الله
النديم المصري سبقا الناس الى اقرار البيعة بالخلافة الجديدة للخليفة الجديد .
وليس في قراء كتابي هذا من يكون نسي كيف كان غضب عبد الحميد
وكيف حظر على الامارة المصرية أن تزور الاستانة . كما أنه ليس بينهم من
نسى كيف ساء هذا الغضب المعية المصرية وكيف بذلت جهد طاقتها في
استرجاع الرضاء الحميدي . لو شئت أن أستقصي تلك الأعمال لرأيت هذه
الصعائف أضيق من أن تسمع قليلا . غير أني لست تاركا كل ما أعلم . ولا
أريد أن أخرج من هذه الدنيا كأنما أنا من شهوده . وتأبى ذمتي أن يعلن
الدستور العثماني وينقرض أشياع الاستبداد فيظهر بعد ذلك بعضهم مغالطين
قائلين : الآن نلنا المراد . هذا عيدنا ويوم فوزنا وما هو بعيدهم ولا بيوم فوزهم
لو أنصفوا قليلا .

نعم ان المعية حاربت أحرار العثمانيين وحاربت حرية الأمة العثمانية بأسرها .
هذا أمر ينبغي أن يسطر في تاريخها . فهي التي استعانت على جماعة من
شبان العثمانيين بذهبها وحاجتهم وقد قطع عنهم المدد وامتنع عليهم الرزق .
فلما غلبتهم على أمرهم وجهتهم الى الاستانة . وقد اتخذت ذلك عادة لها . فصارت
كلما صفها ما بينها وبين (يلديز) زادت في الاقتراح . فيوما تطلب الفوز بوقف

ويوماً تطلب الانعام بقصر . وكلما تكدر ذلك الصفاء عمدت الى استغواء أناس من أسرى الاغتراب ومطرودى الحظ فقدمتهم على مذبح الظلم .
والى القراء أسماء اخوان لى عرفتهم بالآستانة وبمصر ثم التقيت بهم فى سيواس وقد نفوا اليها بعد أن توسطت المعية فى عودتهم الى الآستانة وضمنت لهم أن لا يسبهم بها سوء .

فائق افندى الملقب بقصره (بكوجك فائق) أى فائق الصغير . شوق افندى . صلاح الدين افندى . فائق افندى . خالد افندى . توفيق افندى .
وقد ارسل مع هؤلاء مصطفى وجدانى افندى ولكنه نفى الى جزيرة رودس ونفى أيضاً ستة آخرون الى جهات مختلفة وهؤلاء كلهم احياء يرزقون . أقاموا نحو العشرة أعوام فوق جبال سيواس يلاقون من مشاق الاغتراب وآلام الظلم مالا يصبر عليه غير المجاهدين . وما قيل فى المعية لهم أننا مشتركون ذممكم ومساوموكم فى وطنكم بالمال . بل قيل لهم أنتم أنصار الحرية وجنودها المتطوعون . ونحن معجبون بما أنتم قائمون به من مناصرة الحق والذود عن الوطن . ولكن تعلمون أن مثل عملكم يحتاج مالا كافياً ورزقا موصولا . وأكفكم اليوم صفر من المال . واذا طال الأمر ربما كنتم عيالا على اخوانكم الآخرين . وعندنا رأى الصواب أن ترجعوا الى بلادكم وتكفوا أنفسكم ذل الحاجة فى هذه البلاد التى لا تعرفون لغة أهلها ولا تجدون لكم فيها من الكسب ما يقوم بأمر معاشكم . ولكم علينا ان نستعطف عليكم السلطان . فاذا جاء عفوه ذهبتم الى وطنكم وهناك تتقاضون من الرواتب ما يجعلون بعضها اعانة لسائر اخوانكم المجاهدين . فاذا تأمل النصف فى متكلم هذا الكلام ونظر

الى حال سامعية وفيهم أناس لم يذوقوا طعاماً منذ يومين — قد سخر منهم أهل مصر وقالوا هؤلاء الصماليك يريدون أن يصلحوا الدولة العثمانية — عرف كيف كانت اضطرار أولئك الغرباء المجاهدين الى الرجوع وكيف كان فوز الممية عليهم .

وقد أوفدت الممية بعد ذلك بعض أبناء (بدر خان) باشا الشهير الى الآستانة وكان لهما مع أحدهم واسمه صالح بك حرب عوان وشأن لا كالشؤون وأين هذا من وافقتها مع المرحوم محمود باشا (الداماد) وولديه الأُميرين الحرّين . فتلك لعمر الزمة إحدى الكبر . رأت عبد الحميد يجتهد في استرجاع ذلك المجاهد العظيم الى الآستانة لينتقم منه ويصب عليه وعلى ذويه أسواط عذابه . وكان الداماد يباريس . فنخفت الممية اليه واستقدمته الى مصر واعدة اياه بموآزرته وتخفيف حاجته ليواصل جهاده مكفى الحاجة مطمئن الفؤاد . فخذعته ظواهر المقال وأقبل مع ابنه يؤم منزل الكرم وينزل بساحة المجد ثم أقام أياماً لقي فيها من أقلام السفهاء وأحلاف الباطل ما استكت له مسامحة . وما راعه الا قاتل من الممية يقول له ارجع الى الآستانة ولك على أن أطلب لك العفو . فما بلغ هذا الكلام سمع الأُمير صباح الدين أكبر أنجال الداماد الاقطار الشرر من عينيه . وقال لأبيه اذا كنت تنوى الرجوع فأنا لا أنوى الرجوع وخرج من عنده حنقاً وسافر من ساعته الى باريس مستصحباً معه أخاه واضطر والده الكريم أن يلحق به الى عاصمة الحرية وبقي يواصل فيها جهاده مع شبليته حتى قبضه الله اليه .

كذا كان ما كان بين التابع والمتبوع . يختلفان فيتذرعان الى الوفاق بكل

ذريعة ولو ذهبت بأرواح المباد . ويتوافقان فيتبادلان الهدايا والتحف . وهي
أما قصور شيدت بدماء الأمة وأما أوراق بالية مما حبره فحول كتاب الأحرار
وأما شبان هجروا أوطانهم واستخلفوا للفقر والذل أهلهم وعشيرتهم في
سبيل الوطن فتخرب تلك الدور ليعمر قصران أحدهما صرح الخليفة وثانيهما
بيت الإمارة :

ومالى لا أذكر في هذا الفصل ما وقع للمرحوم صالح جمال صاحب
المطبعة العثمانية مع المعية من أجل مطبعته . فذلك مما يحلو إثاره مع ما سبق
بيانه من المكارم . فقد أتت المعية في سياستها تلك بأساليب من الخدع
الحرية تصفر لها الأنامل . وجهت من قبلها رجلا ليشتري المطبعة العثمانية
حين جرى ماجرى بين صاحبها وجماعة من جمعية العثمانيين الأحرار
فيما يرجع الى حساب المطبعة . فابرح هذا الرجل يغالى في الثمن حتى وقف
عليه البيع . فأراد أخذ المطبعة بما فيها من كتب وأوراق ودفاتر . ولما أبى ذلك
رجال الحزب حجز رجل المعية على المطبعة بما فيها . وكانت المعية تريد أن
تستخرج من تلك الدفاتر أسماء المشتركين في جريدة القانون الأساسى وأن
تأخذ رسائل من يرسلون الأحرار من اخوانهم المقيمين في البلاد العثمانية
لتبعث بذلك كله الى عبد الحميد . فينتقم هو منهم كما يريد . وقد كبر الأمر
على أحرار العثمانيين فأرسلوا بعضهم الى اللورد كرومر يعلمونه بما هم صائرون
اليه . فأخذ تلك الأوراق الى دار الوكالة البريطانية ولا تزال فيها الى اليوم .
وبذا مكن الله عدله وخلص مئات بل ألوف من الأحرار كادوا يقعون في
مخاب المفترس الكاسر لولا اللورد كرومر . وقد أشرت الى هذا في أحد

الفصول المتقدمة في مرض الكلام عن مصالح مصر ونصير الثمانين .
ولقائل أن يقول . كانت السياسة تقضى اذ ذاك بمثل هذه الأمور : ولو
ان المعية شاركت الاحرار في جهادهم لأدى ذلك الى مسائل قد لا يصل
الى كنهها القادمون . فأقول هذا يجوز غير انه ليس في الناس من طالب
المعية بشيء هو فوق وسعها . ولقد كان في القدرة ان تنفاضي وتترك هؤلاء
المجاهدين في جهادهم غير متعرضة لهم بخير ولا بشر . فاذا عذلتها عاذل من
جاء ذلك فالجواب هو تقول : بلادنا حرة . وأنا لا قبل لي بمخالفة النظام
ولو أمكن لي منع هؤلاء لفعلت . واذا لم يكن للمعية بد من مطاردة الأحرار
واسترضاء المستبد فيكفيها أن تكلف أحد رجالها مخاطبة الأحرار ظاهرا
في الكف عن الحروب القلمية وأن تدع ذلك يذكر لها في صحف الأخبار
فتسقط في مجادلتها حجة الظالمين .

ولكن أمراء الشرق الا قليلهم ، يحبون الاستبداد طبعاً . ولهم في
ذلك فلسفة لا يفصح في تخطيطها برهان . فقد لقنوا منذ صباهم عقائد من
قوم يفتون بتحريم الشيء في يومهم ثم يفتون بتحليله في غدهم والحال
واحدة وما أخذ الحكيم واحد . فأيقن هؤلاء المسيطرون المتألهون أن الله خلق
العامة من أجل الخاصة وخلق الرعية لتؤنس الملوك في وجوههم فكيف
يطمع بعد ذا صاحب عقل أن يدخل ذرة من الانصاف في تلك القلوب .
يسافرون الى أوروبا أم يؤتى لهم بأساتذة أوروبيين ليتعلموا منهم ما
يتعلم أمراء أوروبا ، لا يفقهون . سواء عليهم علموا أم لم يعلموا . أنصفوا
أم ظلموا . هم الملوك يجب أن يقدسوا . وأن يقرن ذكرهم الى ذكر الله



هذه صورة الرجل الحر . العثماني الصادق حسين بك طوسون أحد نخبة الضباط
الذين يفتخرون بهم الوطن وقد فاني ذكره سهواً في عداد اخوانه الذين خلصهم من
الاسر غير مبال بما يقع فيه من الخطر وقد فر الى أوروبا ثم عاد مخفياً كما يراه القارئ
في صورته هذه وبقي سجيناً حتى اعلن الدستور فخرج من السجن بهذا الزي
الجركي الجميل

واذا لم يكن ذلك كذلك . فلهؤلاء المؤرخين يذكرون لنا في كتبهم عواقب
ما صار اليه الباغون . اُ كانت بينهم واحدة مصلحة فتواطؤوا على الكذب
واقترعوا انما وبهتاناً على ملوك زمانهم أم هذه زيادات تخرصها المتأخرون

وكان عبد الحميد رجلاً جاهلاً لم يتذوق لذة العلم ولم يتحلّ بشيء
من الفضل . وكان يكاد يكون أمياً ولقد بلغني أنه لم يتمكن من قراءة اية
ورقة من غير أن يساعده عليها مساعد . ولقد زار بمض العواصم الأوربية مع
عمه عبد العزيز . فشغل بتجسس أخيه المرحوم السلطان مراد عن أن يستفيد
شيئاً من آثار العلم والصناعة في تلك الأقطار . وما نشأ الا في قصر تضاحكه
الولائد في حرمه ويسجد له الممالك لدى بابه . فاذا جلس جلس اليه المتفقيّهون
الثرثارون وعلى رؤوسهم تلك العمام التي لا أجسد ما أشبهها به غير رؤوس
البصل . فيفيضون له في وصف الحور والغلمان وكيف تزوج بهرام جود بنات
السبعة ملوك كما ذكر في كتاب (هفت بيكر) وما كان من قبيله . غير أن
صاحبنا ليس كذلك فهو أمير أدبه أبوه فأحسن تأديبه وراضت شبابه
مدارس الملوك وأخذ ما عرف من علومه عن أساتذة من رجال الفضل ونخبة
أهل البلاد المتروية في العلم . أما لو كان عبد الحميد موزوراً فما صاحبه بما جور .
واني ممن لاحظتهم العناية وخطرنا على باب الامارة . فقد سمعت للايقاع
بي وأنا بالآستانة ووشيت بي الى عبد الحميد فأحلتني السجن ونفاني بعد ذلك
الى سيواس كما سيأتي ذكره في فصل خاص . فلما على حق الكرامة ولن أبرح
أشدو بتلك المن حتى يذهب ربيع الحياة .

كل هذه الاحن كادت تنطوى صحائفها ويسدل عليها ظلام النسيان .

ورأيت قومًا يطرون الأمانة بما لم يكن في سوابق آلائها . فقلت يا سبحان الله !!
أهذا مبلغ انصاف الناس ؟ أبسمة واحدة في آن واحد تنسى بكاء مئات من
عباد الله طوال الليالي . ورسول كان جاسوساً يصبح الآن شفيماً ويظل قبرك
يا صالح جمال مهجوراً لا يزوره زائر ولا يحويه في طريقه سائر . وتستقرين أيتها
الأجسام الطاهرة في أجداثك المجهولة حزينة أرواحك في آخرتها كما كانت
حزينة في دنياها . وتسير تلك المواقب خافقة أعلامها متسابقة بشائر هاويصف
العثمانيون اجلالاً لمن حارب اخوانهم تحت رايات عبد الحميد . يا ويل تلك الضمائر
ما أصبرها على الأذى وما أغراها بهوى النضار !!

روحي أيتها الأرواح المستطارة من أقفاص الفناء الى فضاء الأبد
لا تتحامي على مزدحم الآمال . ارجعي الى بارتلك مستصحبة غيرك من
أرواح الشهداء في خالية العصور . قولي يارب تبكي الشيعة على شهيد كربلاء
وتبكي كل أمة على شهدائها . وهالك أهلنا باتوا غارقين في الحداد . سرفومنا
بمجد كنا سلامه وداسوا بعد ذلك قبورنا ونسوا بلادنا وأكرموا أعداءنا . فخذ
بحقنا ما لنا سواك من نصير .

أخليتما داري أيها القصران وأخليتما دور اخواني وأقصيتما في سبعة أعوام
طوال أنت عليّ في ريق الشباب وزالت عني وقد بلى الجسم . وحكمتما على
هذا الخاطر بالحمد وقد عودته على جولات طالما اعجب بها المتأدبون ورفعتما
السدود بيني وبين آمال تخذتها ذرائع الى مكافحة الحوادث في ذودي عن
وطن أنا من أبنائه . وما رجعت اذ رجعت الا وقد ابدل البيان حصراً والشباب
كبرة والبأس وهنا والأمل يأسا ورأيت منكم المقال ورأيت منكم المودود .

فأيه ريادة يا أبا المجائب . ما أعرفك بمواضع النقص من بنيك !!!
إذا امتعن الدنيا ليبت تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

﴿ أنا في حزب الأحرار ﴾

الوطن يشكو ظالمه

حتى م تبكي العين طال البكاء	أما لحزن بت فيه انقضاء
قد خنتني يادهر قد خنتني	ما كنت أحجوك قليل الوفاء
ان أبد ما بي يعينى سرده	أو أخفه يزدد بطول الخفاء
ماتت أمانى ولما أمت	أحي اذن لليأس لا للرجاء
كيف أعزى القلب عما مضى	ويل لقلب ما له من عزاء
مازلت أدعو للهدى مشرأ	ضلوا فلما يجد طول الدعاء
ضاع ندائى حين ناديتهم	لولم أضع ما ضاع ذاك النداء
هذى رسوم قد محاه البلى	وفى قصور قد علاها العفاء
فحيثما سمع تجدد ماتما	باك ومبكي وآبى البكاء
ليس صباح بصباح لهم	ولا مساء لهم بالمساء
فى ذمة الله رجال قضوا	طال بهم تحت القبور الشواء
لا التاج ذاك التاج من بعدهم	ولا بهاء الملك ذاك البهاء
يا أرض ميدي أنها دولة	مادت وأنت اضطربى باسماء
تشقى (جراغان) بسجينها	ويجتلى بيعته من يشاء

يارب هذى كعبة شيدت ركننا وهذا خاتم الأنبياء
أساءنى بينهما ظالمى وقد كفى بينهما أن أساء
عاش المدى أرضى وطاء له عيشا هنيئا وسماى غطاء
أعدم قوما بت أرثيهم وآطى ماذا يفيد الرثاء
كانوا غيوى بت لاغيث لى كانوا نمائى فمدانى النماء
أقول والظلم بآفاته يحتث للملك مطايا الفناء
لا يئأس المكروب من فرجة ولا عليل أبداً من شفاء
الملك سلطان شديد القوى ينصره الله بجند القضاء

هذه هى أبياتى التى استهللت بها كتابى الذى كنت سميته (مائة برهان وبرهان على ظلم عبد الحميد السلطان) . أذكرها هنا لا استدلالاً بها على بلاغة معنى أو فصاحة لفظ فليس بها شئ من صناعة الكلام سوى الوزن والروى . وإنما أريد أن أستعيد ذكر أيام خلت كان فيها هذا اليراع شا كياوم يكن مثل يومه حاكيا .

فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٧ دخلت ادارة المقطم وولجت مكتب الاستاذ الدكتور فارس نمر . فنظر فى وجهى مليها يريد أن يتعرفنى جيداً . فقال هل من حاجة فأقضيها . وكان يحسبني أتيت المقطم لعمل من أعمال الادارة . فدفعت اليه مقالة عنوانها (نرجع الى الجواسيس) فلما وقع نظره الى الامضاء مد نحوى يمينه مصافحاً وقال أهنتك بتطوعك لخدمة الوطن وأهنى الوطن بقلمك . وأسس الله المودة فى قلوبنا منذ ذلك العهد . ولقد قلت فى آخر تلك المقالة ما أتنقله الى هذا الفصل بحرفه وهو :

(هذا قلم أرن القوس صائب الرمية عرفه من هنالك . فلا جريته حتى لا تبقى من دار الظلم لبنة على لبنة وبياض على سواد ولا سيرن قوارعه شزبا في كل قائم الا حماق شاسع الأطراف الى أن يقول نصير الحمية لبيك ونستريح واخواننا مما نحن فيه .)

على أنني لم أنل شرف الاستمرار على خدمتي وكان خلاص الوطن على يد قوم رآهم الله أجدر مني بهذا الفخار .

أجل قد طهر الله حزب الأحرار من مراد الداغستاني ولو بقي فيه لما سطرت في مناصرة الأحرار حرفاً واحداً . فقد كان عبد الحميد ظالماً وكان مراد محتالاً . وكان عبد الحميد يحب الواشين وكان مراد يود أن لا يكون له واش غيره . فلم ترض نفسي أن أجتمع معه ولا على خدمة الوطن وخلاصه . هذا عناد يؤاخذني عليه كل ذي انصاف ولكنني لا أستطيع له انكاراً . ولتبق لي هذه الجناية مسطورة في سجل آثامي بهذا القلم الذي أصبح غازيا في حرب الاستبداد .

ولقد قضت عثمانيتي أن أقف الى جانب المجاهدين من أبناء وطني حين خفت أصوات كثيرة وخيل لي عجب الشباب أني أستطيع أن أنفع بلادي . فشارك يومئذ الأستاذ الفاضل محمد أفندي قدرى العثماني في كتابة بعض الفصول بجريدة القانون الأساسي . فساء ذلك رجال الاستبداد . ورفضت القوميسرية العثمانية تقاريرها الى عبد الحميد حتى خيل له أن ولي الدين اذا استمر على الكتابة قامت القيامة . فقصد سكرتير القوميسرية محسن بك منزل الم ابراهيم باشا يكن وطلب اليه أن يكون وسيطاً له في اسكاتي . فكان

جوابي له جواب من لا يترشح عن موقفه وواصلت الاجتهاد بهزم أشد
التهابا وأمضى نفوذاً .

ثم جاء مصر أحد وكلاء الدعاوى وخاطب في أمري كثير من الناس .
فهم من تخلى عن مشاركته ومنهم من أراد مشاركته ولكن غير واثق
بالنجاح . فقابلني ذات يوم رجل من رجال الصحافة وقال لي أرجوك أن
تعدو عليّ غداً في داري . فان عندي رجاء اليك أريد أن أحملك قبوله . ولكن
لا بد من التكلم معك كلاماً طويلاً حتى تعرف حقائقه . ولما كان الغد ذهبت
في الميعاد المضروب الى دار ذلك الداعي . فاذا هو يتطأب المقدمات لمحدثي
في الأمر الذي دعاني من أجله . فتعرفت ذلك في وجهه . فقلت له هات ما
عندك موجزاً فان وقتي لأضيق من أن أضيقه فيما لا يجدي . قال

— جاءني منذ يومين صديقي فلان . وهو من وكلاء الدعاوى بالآستانة .
وقد أسلمني مقالة شديدة الطعن يريف بها أقوالك في ذم السلطان ورجاله
وفيهما من الأدلة على بطلان دعاواك مالا يدحض . وطلب مني نشر المقالة
في جريدتي . وأنا استمهلتة الى أن أراك وأخاطبك في ترك الخصام وأدعوك
الى الهدوء . فما رأيك في ذلك ؟

قلت : — اني ليعزني أن تؤخر نشر مقالة ربما كانت لك من ورائها
منافع . هذا وينبغي لرجال الصحف ان لا يحبوا فيما يظنون أنه الحق . وأنا أقرأ
ما تكتبه . فاذا رأيته مصيباً فيه اعترفت لك بالحق ورجعت عما يتبين لي أنه
باطل . واذا رأيته مخطئاً رددت عليك قولك أو تركتك واياها جانباً وآثرت
السكوت . وليس من الانصاف أن تهمل نشر مقالة تعرف أنها ناطقة

بالصواب وتدع صاحبها ينتظرها بغير طائل .

قال — أنا لم أخدع صاحب المقالة . وكما أنك صديقي هو أيضاً صديقي ولكنني أردت أن أقرب بينكما وأن أجعل اتفاقكما بالحجة .

قلت — مالي وله . كل يعمل على شأكلته . وإذا كان صاحبك يرى عبد الحميد بريئاً مما يوصم به فليبق كذلك . لعل له عذراً ونحن نلوم . ألا ترى أنني أقت زمناً أَدافع دون عبد الحميد ولم يرجعني عن الإخلاص له جدال ولا دليل إلا مآرائته بعيني وجربته بنفسى . وعسى أن تعلم الأيام صاحبك من مثالب سلطانه ما يقلل أنفته ويكسر من عزمه . ثم هممت أريد الانصراف . فأمسك مخاطبى بذراعى قائلاً تمهل ريثما نتفق معك على أمر . قلت — أراك غير تاركى يومنا فإذا تريد ؟ دع الإشارات وهات ما عندك من الأمر الصراح .

قال — أما وقد أبيت إلا البيان . فهالك ما عندي . يريدون أن يرجعوك إلى الآستانة كما فعلوا بمراد وغيره . وهذه فرصة لا يضيعها عاقل . وقد علمت أن مراداً مقيم هناك بحال يحسده عليها السعداء . ومن يمنعك إذا أنت أحرزت هنالك جاهاً منيماً أن تنصر الحق وتنفع أخوانك وبلادك . ولا أكتمك أن السلطان مل الاشتغال بامرالأحرار أو كاد . فاذا هو أهمل يوماً أمرهم وأرسل حبل كل على غاربه وعما الله آية ظهورهم أخاف عليك أن نحشر يومئذ في زمرةهم وتلاقى من الأهوان ما يلاقون . ومالي ولهذه الأحاديث في غير جدوى . أنا ضمنت للرجل بمالى عليك من الدالة أن ألاقك به . فهل أنت واعدى بذلك ؟ فما دون الزيارة شيء لو أجبت إليها . تعال غداً

ولنذهب اليه ممّا .

قلت : — لا ضير . وفارقتني على أن أعود اليه في القصد . فلما آن موعد اللقاء جئت داره فاذا هو في انتظارى . فحملنى في عربته وانهيننا الى منزل رحيب بجوار البنك العثمانى فى القاهرة . فاستقبلتنا سيدة علمت بعد ذلك أنها حليمة غريمى . فجلسنا اليها وأقبلت علينا تحادثاً فاذا هى شرقية مقيمة على شرقيتها فى كل أطوارها . مع أدب غرض وعقل راجح . وبيننا نحن كذلك اذ وافانا الغريم . فرأيتنه قد تبادل مع صاحبي نظرتين فاجأهما منى لحظ شاعر يرمى الأغراض طائرة فيصيبها وتم بيننا التعارف . ثم أراد أن يبدأنى باللوم على ما جرى به قلبنى . ولكنه وقف غير متقدم فى شوطه وأيقن أن مثله لا يجادل مثلى . فاختار الصراحة غير تارك مكره وقال :

— سمعت عن ولى الدين من أصحابه أنه يحل عن أن يتهم فى ذمته . وأنه لا يقاس بغيره ممن كشفت الأيام عن مكنونات ضمائرهم . وقد رأيت فى مقالاته ما يؤيد قولهم . ولكننى مولع بمناظرة الفضلاء . وأرى أنه لو دخل فى خدمة الحكومة العثمانية وصدق فى خدمتها كما تقضى به عثمانيته أتى بلاده بالخير الجزيل . أجل يا ولى الدين ان الحكومة العثمانية فى حاجة الى اصلاح ما بها . فقد أشكلت أمورها واشتدت خطوبها وعظمت بلاياها وما دواؤها الا من كان مثلك ممن لا يخشى فى الحق لومة لائم .

قلت — ان بلاداً تبنت فى حاجة الى مثلى لجديرة بالثناء . وهى اقدرى أنا بين الرجال حتى أصلح ملكاً كبيراً أريد فسادته من يوم خلقه .
قال — أنت لا تستطيع أن تصنع وحدك شيئاً . والجنرال أحمد

جلال الدين باشا لم يسمع في استرجاع الأحرار إلا لأمرين . أولهما وعد السلطان له بإعلان الدستور بعد رجوعهم . ثانيهما جعلهم في وظائف يساعدون بها إخوانهم على ذلك . ولست وحدك قد استعظم الخدمة . بل هناك آخرون ولوهم أمور لا يقدر على تدبيرها غيرهم . ونحن لا نختار للوطن الأمن نثق بمضاء عزيمته وصدق نيته . ولو لم أكن سألت عنك الثقة من أصحابي وأتبعتك نظري على غير علم منك حتى وقفت على جلية أمرك لما سميت في التوصل إلى محادثتك . ولك الرأي في القبول وفي الرد . ثم أعلم أنه جاءني أناس ممن يدعون الانتصار للحرية وطالبوني بالاتفاق معهم على إسكاتهم وسناوموني ذممهم . فكان حظهم مني الاغضاء عنهم . ولقد بلغت المرأة من بعضهم أن توعدوني بذمى في جرائمهم إذا أنا لم أجبههم إلى مطالبهم . فلم ينالوا مني سوى الخذلان .

قلت — أفارقتك الآن وأهود إلى بيتي فأتدبر الأمر وأتبين دقائقه ولنى من أثق بأرائهم ولا أستغنى عن مشورتهم . وأنا من أنصار الشورى فلا يجوز لى إهمالها في أموري بعد ما قضيت بوجوبها في أمور الناس . ولا أثبت أن آتيك بما يقر عليه رأيي . ثم ودعته وانصرفت مع صاحبي وفارقتة هو أيضا وعدت إلى بيتي .

هذه الذكريات تبعث الشجون وتقف بالمرء موقف الشك حتى في ذاته . فوالله ما أدري أتمجبل منم أم حب وطني استخفني !! ظلمات ليلتي مفكرا أطالم صحائف الماضي من تاريخ حياتي . فاذا بالأربع وعشرين سنة من أيام عمري إذ ذاك لا تني باستنتاج عبرة ولا بمعرفة صواب . شباب منشأه الشرق

ومجاله الشرق وأيام خلت بين الدفاتر والأقلام في تصوير خيالات لا حقيقة وراءها . ومكنتسب نزر من العلوم يكاد لا يعد شيئاً . أريد ولكنني لأدري ما أريد ولا كيف أريد . قلت أظل أخدم الحرية حتى ينصر الله جيشها وتحقق على بلادى رايتها . ولكن الرجل أخبرنى أن خدمتى تؤخر حصولها . وأن السلطان لا يضمن بها إذا اختار السكوت طالبوها . قلت أذهب الى الآستانة وأقيم فيها على مناصرة اخوانى المجاهدين وأعمل على خير وطنى . فلم يعدنى الشك وقلت من لى بمن يضمن لى صحة ذلك . ثم من هذا الرجل الذى سخره الله لى ليقف فى وجهى ويقيد يمنى حتى لا تحط فى سبيل الحق حرفاً ويكفر فى فلا ينطق فى نصرة الحرية كلمة . وماله على من سلطان وأنا فى مأمن من كيدى إذا شاء أن يكيدنى ! وهل هو صادق فيما يخاطبنى به أم يريد أن يسرق منى فؤادى . ولقد نظرت الى صور من جاهدوا فى سبيل الحرية وهى معلقة أمامى على الحائط . وفيها أبو الأحرار وحاميهم مصطفى فاضل العظيم وشاعر الوطن وعاشقه وشهيد هواه نامق كمال . فخيلى لى أنهما برميان الى با لحاظ ملؤها عتاب . كأنهما يريدان أن يقولوا لى أ كذا حبك لبلادك ؟ أنت لا أقال الله عزتك ، جندى خائن . اعتقلت سلاحك وبرزت فى ميدان الحفاظ . ولما رأيت التماع النصار بأيدى الأعداء ملت اليهم وتركت من ورائك من أعوان نجدهتك واخوان غزوتك غير متلفت نحوهم . لهذا رجوناكم يا أعقاب السوء وعباد المال وحثالة رجال البأس . فأقف صامتاً واجماً لأدري ما أجيبهما به . غير أنى قلت ليس يبنى وبين الجماعة الى الساعة أمر مبرم فأؤخذ به . وأنا لو شئت لأنتهم من بغيتهم طول الحسرة

عليها . وعقدت العزم على أن أخطب من أثق برأيه وأعرف بعد نظره .
ولما كان القديكرت نحو مستشاري فأطلعتهم على قصتي من أولها الى
آخرها وقلت له . الآن لك حكمك .

قال — يا ولي الدين سافر على حب الله ومن أحب الوطن أحب
الموت في سبيله . فإذا صدق القوم في وعدهم وأقرّ عبد الحميد الدستور .
فحسبكم أن تكونوا يومئذ غارسي أعواده ومجتنى ثمراته وإن نابكم من خطبه
ماعساه يكون أضمره فتلك سبيل ان منكم الا واردها . وانه ليسليكم أنكم
ذاهبون في خلاص الوطن . ثم اعلم أن الجنرال جلال الدين لا يقاس بغيره
من المقربين . أولئك يبيعون أولادهم ابقاء على حظوتهم . والجنرال لا يدخل
في مأزق يشك في الخروج منه . وهو اذا استشمر تحت الأمر بشر يؤثر
الموت على أن يعيش متهما في ذمته .

قلت — غدا يذيع بعض المفسدين بين الناس أنني سافرت الى الاستانة
طلباً للمال وأنا في بمت وطني بيعاً .

قال — دع الناس وما يقولون . ما سلم من ألسنتهم أحد قبلك
فتسلم أنت . أنت في شأنك وانفع وطنك اذا استطعت له نفعا . فان
كان في الناس من يعرفك حق المعرفة فقد كفيت عنده شر الملامة وان كان
فيهم من لا يعرفك فيينك وبينه الأيام . أنت رجل بغير نصير . ولو كان
لك حزب يتحدث بصنائعك ويبلغك بالمدح عنان السماء لاستقام في عليائه
جداً وأقبلت دولتك . وبيننا نحن نتعاضد اذا بخادم مستشاري الجليل
يستأذن لغريمي . فأذن له . فدخل علينا مسلماً وأطلعه مستشاري على ما خاطبني

به ولم نلبث أن تم بيننا التراضي على سفري .
ولقد رأيت كثيراً من رجال الحرية وأنصارها الذين لبوا دعوة عبد الحميد
وتسابقوا إليه يرجون ثوابه يحاولون اليوم انكار ما كان من عودتهم . ليقول
الناس انهم كانوا معذورين . ومنهم من يقول أنا كنت آخر الراجعين ومنهم
من يقول أنا لم أرجع . وكل هذا تضليل وبهتان . بلى هو أعظم من التضليل
والبهتان . ويا خجلة المرء عند نفسه أن يكون منافقا وأن يكون جباناً . ووالله
ما أدري ماذا يرجون وماذا يتقون . فان كانوا يرجون أن يجازوا بالوظائف
العالية وأن يسير خلفهم العامة هاتفين ليحيي أبطال العثمانية ليحيي حماة الدستور :
فهذا فخر ابتذل حجاب به وبات جديده خلقا . وان كانوا يتقون ما ينزل بالخلوة
والجواسيس من العقاب وعلموا أنهم هم الخلوة والجواسيس . فتعسا لهم أن
جمعوا الخوف الى اللؤم . وفي خلعة منهما ما يغني عن أختها . لعمرى لنعم المناط
للعدل عقدة حبل تقضى بها للعادل حقه . وأنا امرؤ رجعت الى الآستانة
رجوعا ليس فيه ما يخجل الحر ومن أجل هذا أقول غير مستشعر خوفا ولا
أمل نقما . لوطنى منى حياتى وكل ما كان دونها على أعيش عثمانياً
وأموت عثمانياً

وانرجع الى ما كنا بصدده :

كتب غريمى الى الجنرال أحمد جلال الدين يخبره بما كان من رضائى .
فجاءه الجواب بسفري مع والدتى وأخى يوسف حمدى يكن . فسافر غريمى
معنا الى الاسكندرية وفيها نزلنا بنزل (أباب) ولقد رأيت على باب النزل
فخرى باشا ومحمود شكرى باشا . أما الأول فلم يكن يعرفنى الا اسما . وأما

الثاني فكان يعرفني جيداً ولكنه لم يكن محباً لي بهد ماجرى بيني وبين المصية .
فاشار غريمي الى الأميرين بيده واضطروني الى السلام عليهما . فحجيتاني أجهل
تحية وانصرفت . وقد قال محمود شكري باشا غريمي : أما وقد أخذت هذا
فهاهنا المدافع وارم بها أي (قصر) شئت .

ولما استقرت قدمي على ظهر الباخرة المسماة (توفيق رباني) وأقلعت
بنا توأم (فروقا) بين آذى البحر وزبدته وأخذت يد الفضاء ويد الماء تنطبقان
على البر جرت على لساني هذه الأبيات التي أذكرها هنا لاشارات فيها لالتحفي
على اللبيب . قلت :

قد دعاني داعي فروق اليها	فاجبت الدعاء حين دعاني
أنا أهوى بين البلاد فروقا	وهي أيضاً بين الوري تهواني
ونمر الأيام لا أنساها	وتكر الأعوام لا تنساني
ياربوع الهوى بأية كأس	قد سقاني فيك الهوى من سقاني
بلبل مشتاك وورد سميع	انظروا كيف يصنع العاشقان
خبر الناس أيها النيل عني	واسشهدا معه أيها الهرمان
لم أودعكما مسالا ولكن	وطني في خطوبه ناداني

كذلك انقضى ذاك العهد . وانطلقت بنا السابحة الهوجاء في وخذها
وخببها صافرة زافرة . حتى اذا كان أصيل اليوم الخامس بعد الرحيل ارتفع
لنا دخان علمنا أنه الأرض ثم تماقبت البيوت البيض بين الأشجار الخضراء فاذا
نحن بمدخل الخليج

سلام عليك أيها الوطن . يا مأملي وجنتي . يا أيها البلد الذي لم تفنيك

عن روحى مرامى النوى . ولم تتغلب على تذكرى اياك ملاهى الصبا .
تفقدك ناظر اى فى محاسن الأشياء فاذا بك تتمثل فى أشدها علاقة بالنفس .
وتتطلبك خاطرى فى معانى الكمال فاذا أنت ديوانها المرتب . سمعت
سويجع الأ ثلاث على مطولة العذبات فغلبتني الغيرة عليك ووردت لو مزجك
الله بروحى مزجا . الآن أحس بالمجز عن ايفائك من الوصف حقت . ولو
كان كتابى كتاب رواية أو أدب لأطلت الكلام بما أقضى به بعض مايجب
على نحوك . ولكن هل ذلك نافعى فى هواك . وبى من الشوق اليك مالو
كان بالبحر لفيض ماؤه . وبالأرض لسالت شعابها

﴿ مقامى بالاستانة فى جمعية الرسومات (الكمارك) ﴾

خرجت فى الفصل المتقدم عن أسلوب المؤرخ الى أسلوب الشاعر .
ماحياتى ! هاجت فؤادى ذكرى أيام مضت . وللطرب مقادير كما للأسف
مقادير . وحسبى ما تقدم قد أتأت وللقارىء الكريم من سجعية المفو
مايستطرد قلمي على قرطاسى .

أنا ولدت بالآستانة وخرجت منها فى نحو الثالثة من عمرى . ثم زرتها
ما بين سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ . فاقمت بها حولا كاملا وانثيت الى مصر كما
أشرت الى ذلك فى أحد الفصول التى مرّت . وبقيت بمصر نحو الثمانية
أشهر وأخذت الى الآستانة . فكانت هذه هى المرة الثالثة التى قد رلى أن أنشق
رياً تلك الربا وأعلّ صافى مياها . وقد صدرت الارادة الحميدية بجعلى عضوا
بجمعية امانة الرسومات (مجلس ادارة الجمارك)

فدخل بى فى قاعة رحبة تدور بجوانبها مكتبة واحدة مصنوعة من

الخشب ، سوداء اللون ، مكسو أعلاها بالجوخ الأحمر وتدور معها من جانب
دور جانب كرسي مصفوفة مكسوة أيضاً بالجوخ الأحمر . تلك مقاعد
الأعضاء . وفي صدر المكان مما يلي الجهة اليسرى من مدخل القاعة مكان
الرئيس الأول وإلى يمينه مكان الرئيس الثاني واسم كليهما رضا بك . وفي
المكان مكتبة صغيرة امامها كرسي . ذلك مكان كاتب الجمعية يجلس فيه ويتلو
على الأعضاء ما يجب أن ينظروا فيه من المضبطات وغيرها .

فلما قدمت إلى الرئيس الأول أو رضا الأول رحب بي قليلاً وأكرمني
بسيجارة لم يمهني إلى استكمالها وأشار بيده إلى المكان الذي خصص لي (بعد
أن علم أنني من أصحاب الرتبة الثانية من الصنف الثاني ١١) فكانت مكاني
قريباً من باب القاعة من الجهة الواقعة على يمين الداخل . فلما استقررت الجلوس
الوارتفت أيدي الأعضاء مشيرة بالتحية فاجبتهم بمثلها أو أحسن منها
وظللت مكاني لأدري ما سيكون من أمري . ولم ألبث أن جرى لي بقبوة
بمانية في فنجان مذهب كبير كأنه الدلو . فجعلت أعب فيها عباً ولا أمصها
مصاً وإنني لأجبل طرفي يمنة ويسرة لأرى ما يصنع أولئك الأعضاء رجال
الدولة الذين شرفني الله بأن حشروني في زميرتهم . فرأيت بعضهم يقرأون أوراقاً
متراكمة أمامهم ثم يجعلون تحتها توافيعهم ورأيت بعضهم يوقعون على الأوراق
من غير أن يقرأوها ورأيت بعضهم يتسارون ويتغامزون ورأيت بعضهم
يتسللون إلى خارج القاعة إلى حيث لا أدري ما يصنعون . ثم يرجعون . كل هذا
وأنا فارغ اليد من العمل . جالس كالصنم غير المعبود . فمراني السأم وكاد يتفشاني
الكري وقد استطال لبثي كأنني مجذوم بين صمغاح .

فتقدم نحوى الرئيس وأشار الى أن اتبني. فقبمته الى حجرة معاون أمين
الرسومات. وامين الرسومات بتزلة الناظر والرسومات أمانة أى (مصلحة).
والأمين رجل ممن أحرزوا رتبة الوزارة اسمه نظيف باشا . كان ناظر المالية.
والمعاون رجل اسمه محمد على بك من نالو رتبة البالا (تأتى دون الوزارة)
وكانت كلمة المعاون أسرع أثرا وأمره أمضى نفوذاً. لأنه كان متزوجاً اخت امرأة
الباشكاتب تحسين. فدخل رئيس الجمعية حجرة المعاون ودخلت أنا على أثره
فرايت مكاناً ضيقاً فى صدره مكتبة أمامها كرسي عليه رجل عظيم الجثة ذو لحية
أوروبية سوداء الى اصفرار . كبير العينين وسيم الوجه فقدمنى اليه الرئيس
وبعد ذلك سأله عما يجب فى أمر تحليفى .

فقال المعاون لا بد من انتظار الأمين وسيحضر غداً . فخرجنا من
عنده ، ولما كان الغد دعيت الى حجرة الأمين فرايت فيها الرئيس ومكتوبجى
الأمانة (السكرتير) والمعاون وكاتب الجمعية يتوسطهم الأمين . وهو رجل
طويل القامة أسمر اللون يحسبه من يراه أول مرة أحد كتاب بيت المال .
له لحية كالرغوة . ووجه كالصك العتيق . فسألنى الكاتب ان كنت توضحأت . فقلت
لا . قال لا بد من الوضوء . قلت لا أعرف كيف يتوضأ الناس . فنظر فى وجهى
باهتاً وسكت . فأقسمت للجهالة يميناً وهذا مضمونها . « أقسم بالله لا كون
صادقاً للحضرة السلطانية والدولة العلية ولا أنحرفن عن الأمانة فى جباية
أموال الدولة . » نطقت بهذه الكلمات واضعاً يمنى على المصحف . فلما انتهت
اليمين هنأنى الحاضرون وعدت مع الرئيس الى قاعة الجمعية .

فماستقر بى الجلوس الا جاءنى الكاتب بأوراق بعضها فوق بعض فتركها

أمامي . قلت في نفسي . هنا يزل قدمك يا ولي الدين . أين أنت من أعمال الكمارك . وهل هذه مثل آياتك وفصولك . تنقش بها طروسك وتتلوها على مستمعيك . فددت عيني وأخذت ورقة من تلك الأوراق . فوالله للغة اليابان أو اللغة الهيروغليفيه أقرب إلى منها فهما . لم أجد إلا أرقاما بزازها كلمات ومصطلحات لا علم لي بواحدة منها . فتركت هذه الورقة جانبا وأخذت أخرى غيرها لعل أجد فيها شيئا يصل إليه فهمي . فإذا هي أسوأ حالا وأحكم عقدة . فظلمات حائرة لا أدري ما أصنع . وقد اشتد ما بي . فبقيت أتناول ورقة وأطرح ورقة كأني في حانوت وراق وأنا كلما أوغلت في الاختيار زدت عجزا عن الفهم . فرجعت إلى التي أخذتها أولا . فوقمت عليها ثم أتبعتها بغيرها ولم أزل حتى أتيت على الجميع . وكان الرئيس يلحظني شذرا ويمجب بي ظنا منه أنني أفهم هذه الأشياء . فلما آن أوان الانصراف دنا مني قائلا أكثر الله من أمثالك . ضقت والله ذرعا بهؤلاء الذين تراه على مقاعدهم فليس فيهم من يدري ماذا يعمل . وما للجمعية منهم إلا هذا الفرور الذي تراه . وقد رأيتك تتأمل الأوراق تأمل من لا يدع لفكره شبهة في عمله . واني لأرجو أن تكون نافعا لنا .

قلت في نفسي بعد ما شكرته : اللهم هذا ثناء باطل وعبدك هذا مخطيء . وأنا أبعده الناس عن معرفة مادعيت له . ولست أجدني سأجهد النفس في معرفة ما أجعله ولو كلفني ذلك أشد النصب .

فخرجت ولم انتظر خروج الرئيس . فشى أمامي الحجاب يوسعون لي الطريق وأنا أحي من يقفون لي اجلالا . وانا جئ الله في ضميري ان

يهب أصحاب المقطم من الضيف ما ومبنى ليؤخذوا الى الاستانة ويكونوا
أعضاء بالمجلس العلمى في باب مشيخة الاسلام وأن يكون سليم سر كيس
وكيلا لأمين الفتوى .

ثم صرت الأيام وأنا لا أقطع عن مكان وظينتى . باذلا قصارى المهمة في
تعمد أمورها والمعرفة بأساليبها . فكنت أسمع بأسماء بعض الأعضاء ولا أراهم .
أولئك أبناء المقرين والمحتمون بجاههم . كانوا يتقاضون رواتبهم غير مكلفين
أنفسهم تعب الحضور الى مقر وظائفهم لأخذها بل كانوا يرسلون من قبلهم
أناسا يأخذونها لهم .

واقعد تعارفت في جمعية الرسومات ببعض أعضائها معارفة لم تزد على
المحادثة في حجرة (الاستراحة) وتساطى السلام . وبقي آخرون لم أروهم
وانى لأجهل الى اليوم أسماءهم . فقد كنا نحو الثمانية والأربعين عضوا . ما كان
يحضر منهم الى وظيفته غير العشرين . فمن عرفتهم من أعضاء الجمعية رفعت
بك هو حفيد فؤاد باشا الشهير الذى توفى في فرانسا . كان فر الى اوروبا ثم
استرجمه السلطان حين استرجع مراد بك . وهو رجل حسن المحاضرة
طيب الطباع ولكنه كان مولعا بشايبه أكثر من ولعه بأعماله . فما جالسته
يوما إلا رأيت يبرها ويرفع طرفيهما تشبها بامبراطور المانيا . ومنهم راسخ
بك وهو ابن المرحوم عابدين باشا الشهير الذى كان واليا على جزائر الأربيل
وذهب الى (يلديز) طالبا الاذن له فى البقاء بالاستانة وجعله صدرا أعظم .
فسقوه قهوة ما استقرت في جوفه ساعة حتى قضى نحبه فى القصر وأخرج
الى بيته ميتا . وراسخ بك هذا شاب مهذب الأخلاق طاهر السيرة . عرفته

قبل دخولي الجمعية. غير أنني لا أجد بداً من الاعتراف بأنه كان من المتأهين في الكبر والفروور. ولا أنسى قولاً لي يوماً وقد جلس قبلها إلى جانبي ثلاث مرات من غير أن يكلمني كلمة واحدة: كيف حالك ياسيدي البك وقولي له: كما تراني منذ ثلاثة أيام. لم أغير فيها أبداً. فلم يحرجوا بها واختار الصمت. ومن رفاق بالجمعية حكمت بك. غير الذي تقدم ذكره. وقد نفي إلى سيواس بعد نفي إليها. فصار رفيقي في منفاه أيضاً. هذارجل أحبه كثيراً وأنا وأخذه على غلات وددت لو نزهه الله عنها. رأيته يحسد بعض أصحابنا ورأيت يترافقهم فتهيته فانكر على ذلك وكان يحب (الدوندرمه) كثيراً. أبصرته ذات يوم أكل منفاسته أطباق متتابعة. وكنت حيناً أمارحه بسيواس أذكره بذلك فتقوم بيننا القيامة. ومنهم رفعت بك وهو من أسرة كردية لها مكانة بين الأكراد. نعم الرجل هو لولا تنسكه وتورعه. كنت أرتاح إلى محادثته لولا ما يدخل فيها من أحاديث العبادة والتقوى حتى لتكاد روحه تزهق ضجرفة. ومنهم على ساجد باشا وهو من أحرار العثمانيين. شديد المضاد في حريته. يكاد يكون كاتباً محمداً. بلده أزمير. سافر منها إلى الاستانة طالباً امتياز جريدة يصدرها. بأزمير. فوشى به بعض الجواسيس إلى السلطان وقالوا يريد أن ينشئ هذه الجريدة ليبت فيها الأفكار الحرة شيئاً فشيئاً. فرأى عبد الحميد أن يجعله عضواً بجمعية الرسومات ووعده براتب قدره عشرة وبن جنيهاً في الشهر. ثم لم يخصصوا له سوى نصفها. ووعده الصدر الأعظم إذ ذاك وهو تليل رفعت باشا أن سيزاده باقي راتبه بملء زبان قليل. فأخذ على ساجد يكتسب له الكتاب وراء الكتاب يذكروه بوعده. متوعداً إياه بالخروج من الاستانة ثم هبت عليه نفعية

من تفعّات الشباب فأرسل الى الصدر الأعظم رسالة برفقة قال له فيها : كنت
أرجو أن تعرف قيمة وعد العظيم ولكنك حمار . فأخذ من الجمعية وأرسل
والى قسطنطين منفيًا وبقي هنالك الى أن أعلن الدستور . والله ما كابد هذا
الشباب من الظلم وما ذاق من مفضل العيش على عهد والى قسطنطين
المستبد خائن الوطن وعدو أبناء آدم أنيس باشا . تلك مصائب لا أعادها الله
ولا أعاد أيامها . وكان علي ساجد يألف معاهد الله وينقطع الى لذاته . فلم
يحببني منه سوى اقدمه على المخاوف وجرائه على الظالمين .

والى أبا رفاقي الدين لم أرهم على مقاعد وظائفهم ولا مرة واحدة . فمنهم
محمّد بن خالد الصيادي الرافعي القرشي الهاشمي المدني الحلبي وهو ابن أبي
الهدى وسبق الكلام عليه . ومنهم أنجا زاده عبد الغني الطرابلسي . كان صني
أبي الهدى ثم تهاجرا . فلجأ عبد الغني الى عزت العابد وباح له من التمرار
الشيخ بما لا يستقيم له هذه السطور . واضطر إلى مطالحة أستاذه
وأطلب الإذن له بالذهاب الى الحج . فأذن له السيد ودس له من رماه برصاصه
تذهبت بحياته . ومنهم كيلافي زاده . باشا . أصابه من أوم الصيبي ما كاذ يقضى
على حياته . وغير هؤلاء كثيرون نسيت أسماءهم ولا أذكر منها اليوم واحداً .
هكذا ذهبت أيامي بجمعية الرسومات تأتي الأوراق مكتبتني فتستقر
أغلبها ماشاء الله ثم تنتقل الى غيري وليس لها مني سوى التوقيع .

ويأشد ما كنت أضحك اذ يحس أحد الاعضاء الزر الكهربائي الكائن
أمامه فيسرع اليه الحاجب في ثيابه المخملية ويقف أمامه مكتفياً يديه منتظراً
المباركة فيرفع العضو عند ذلك رأسه قائلاً : لهات قد حلت من الشاي أو هات

طبقاً من (الدوندرمه) . فأقول : قاتلكم الله وأنا معكم . يا عيال الحكومة وطفليتها . وهلك المقاعد وعبيد الرواتب . لو أنصف الدهر لنال هؤلاء الحجاب مكانكم ولا أصبحتم أنتم مكانهم . فهم أصدق منكم خدمة وأنفع سعيًا . آه يا عبد الحميد ما أبصرك بقلوب رعيتك . أخذت أنت مالا تملك ووهبت من لا يستحق . وجعلت خزائن ملكك نهباً مقسماً بينك وبين أولى المطامع .

لم أشك تأخر راتب ولا طول كد . غير أن الذمة وقفت بيني وبين ذلك الخفض الذي كنت فيه رأيته أُنقذ المال وليس لي فيه حق . بحبس القروى ويضرب لكل قرش من قروش وأنا قاعد على الكرسي الفخيم يسير الحجاب بين يدي ليوسعوا لي الطريق . تلك لعمر الله سرقة سيماء قبني فؤادي عليها ولو عفا الله عنها .

فقلت أبعد بذلك المال وأبعد بتلك المقاعد وكتبت إلى السلطان رسالة برقية أسأله فيها نقل إلى وظيفة أحسن القيام بمهامها . فرأى أن يتقلني عضواً إلى المجلس الأعلى بنظارة المعارف مع زيادة راتبي زيادة تبلغ حد الكفاية . فصدرت الإرادة السلطانية بذلك . فأسرعت إلى جمعية الرسومات وودعت من استطعت أن أراه من رفاقي وداع من لا يرجو التلاقي أبداً الدهور وخرجت أيم نظرة المعارف وأنا لا أدري أفها أحد يعرفني أم ليس لي فيها أحد . فدخلتها خائفاً متردداً كمن يابح غابات لا يدري ما وراءها .

﴿ أنا بنظارة المعارف ﴾

قلت أرى أن أذهب إلى (الحاسبه جى) وهو بمنزلة مدير الحسابات

في الحكومة المصرية . فأرسلت اليه بطاقة مع الحاجب . فبادر الى استدعائي
لعنده . فلما توسعت حجراته نهض واقفاً وتقدم نحوى خطوات ومد اليّ
يمينه عينيّاً . وهذا المحاسبه جنى رجل اسمه شكرى بك الحسينى . ينمى الى
بيت من بيوتات الحسب فى المقدس . قدم الآستانة فصاهر أحد الباشاوات
المعروفين وبذا نال من الترقى ما جملة بالمكان الذى رأيت فيه . فلما جلست اليه أقبل
علىّ يحادثنى . فأخبرنى أن زهدى باشا ناظر المعارف لم يحضروا سألنى الانتظار
الى وقت حضوره ليدخل بي اليه ويعرفنى به . قلت ما فى الانتظار من بأس .
ثم ما لبثنا أن أخبرنا الحاجب بحضور الباشا . فتركنى شكرى بك مكاني
وبعد دقائق قضائها عنده جاء فاخذنى معه وأدخلنى الى حضرته . فاذا
هو رجل كهل بادن منتفخ الوجه ذولحية بيضاء تبدو فى خلالها شعرات سود
هى من بقايا ماترك الشباب فتقدمت مشيراً بالسلام . فرفع يمينه قليلاً جواباً
لسلامى وأوماً الى أن اجلس فجلست . ثم التفت نحوى ليكلمنى فقال :

- هل سبقت لك خدمة فى الحكومة ؟

قلت - نعم كنت من أعضاء جمعية الرسومات . بقيت فيها نحو
العامين . والآن نقلت الى المعارف .

- هل حلفت اليمين القانونية ؟

- هل يبقى مستخدم فى خدمته عامين ينظر فى أعمال الحكومة من غير أن

يخلفوه اليمين ؟

- حسن . وماذا تعرف ؟

- لا أعرف شيئاً .

وكيف يحذفونك عضواً بمجلس المعارف الأعلى إذا كنت لا تدري شيئاً.
 المدرسة هذه جئنا بك لتعلم فيها. بعد ذلك سلكنا طريقاً
 رأيت كلام الرجل غليظاً كطبعه. فقلت في نفسي: الرأي أن أتكلم بما
 تفهم فاللهم عفواً عما سيخرجني على لساني. لا أنطق به مختاراً بل مضطراً ووقت.
 انما قلت اني لا أعرف شيئاً، تأدياً. والافاني من أكبر الزائدين في اللغة
 العربية واللغة التركية. يشهد الملايين ممن قرأوا ما كتبت اني من شعراء
 الطبقة الأولى ومن الكتاب الآخذين بنواصي الكلام. نظرت في العلوم
 القديمة وحديثها قريتها وبعيدها فأصبحت منها الحظ الأوفر. هذا وأنا أنا أحسن
 الكتابة والكلام باللغة الفرنسية وأخذت من فنون علمائها ما لم يفر بمثله
 غيري. ولي مؤلفات بالعربية والتركية هي حجة العلم لنقص الجهل. فجعل
 الرجل يستمع حديثي ويتأمل وجهي كمن يريد أن يبلو محبته. فعلمت اني
 كبرت في عيني هذا الناظر العبي وأيقنت بعدها أن خير ما يحفظه للمرأة
 كرامته في عاصمة الملك العثماني هو أن يكون مدعيها لما ليس فيه من المزايا.
 وكان شكري بك جالساً أمام زهدني باشا غارقاً في صمته يصفني الى حديثنا
 ولا يشاركنا فيه. فقال له الناظر مشيراً نحو ايديسراه: اتخذ هذا وادخل به
 الى المجلس. فسلمت وخرجت وأنا لا أدري كيف أكرم ضحكك يكاد يغلب
 على هنالك. فأمسك شكري بك يدي ووزل بي الى قاعة المجلس الأعلى.
 فلما ولجنا الباب رأيت مكاناً رحباً في وسطه مكتبة مستطيلة كالخوال
 على طرفها الكائن بصدر المكان رجل كالقبرة يكاد لا يجده متفقده لولا
 عمامة كقرص من الجبن الكريتي تشرف على مكانه يسوع على الجانب الأيمن

للدخول أعضاء كلهم معصومون وعلى الجانب الأيسر آخرون على رؤسهم
الطرايش . فتقدم بي شكرى بك الى الجالس بصدر المكان وغمز ذراعى
قائلا : هذا هو الرئيس حيدر افندى . ولما صرنا امامه قدمنى اليه وتركنا
وانصرف . فدار الرئيس بعينيه فى الجالوس ثم التفت نحوى قائلا :
ما ثم مكان خال . الأعضاء أكثر من الكراسى عددا . فاجلس الى
جانبي حتى يخرج أحد الجالسين فتجلس مكانه . وخطب الحاضرين يعرفهم
بي : فسمانى لهم وبالع فى مدحى كما أسر اليه شكرى بك قبل انصرافه . هنالك
ارتفعت الأيدي بالسلام واتسمت الشفوف ترحيبا . ثم خرج بعض المصممين
فجلست مكانه . وانى لأجيل ناظرى عتبة ويسرة لأنظر ما يصنع هذا الجمع .
فرايت فى الموضع القريب من باب القاعة رجلا ربعة القامة . كث اللحية
أسودها مبتلى الجسم على ناظرية (نظارة) بيضاء يقرأها أوراقا امامه ويوقع
تحتها فدلتنى هيأته وأملواره على أنه رب فضل . وعلمت بعدها أنه أعز الله
بك الشهير . وكان فى مواجهة رجل نحيف الجسم ذو لحية سوداء أيضا اسمه
رائع افندى . حادثته قليلا فظهر لى من حديثه أنه أصاب خطأ من العلوم .
الآلية أو أنه يقول الشعر ويحيد به بالتركية والقارسية على الأملوب القديم .
فقلت فى نفسى هذا مجلس المعارف الأعلى . ولا بد أن يكون هؤلاء الرجال
من جلة أهل الفضل والمتقدمين على كثير من علماء زمانهم . فغير لمثل
أن يختار السكوت لى لا ينكشف جهله وتصائب عقائده . فإذا تهودت الأعمال
ووقفت على حقائق الأشياء أتيت لهم بما يتجدد لى من رأى تكون لواءه
فائدة مستفاد .

وبينا نحن كذلك اذ دخل علينا رجل قيل لي انه أحد كتاب قلم المجلس . قد زرع (سترته) أدبا وأمسك أوراقه بيديه وتقدم حتى قارب مكتبة صغيرة هي على يسار الرئيس فوضع عليها الأوراق ووقف ينتظر الأمر . فقال لي راسخ افندى :

- الآن يقرأ الكاتب علينا ما ينبغي أن ننظر فيه من الأوراق . فاذا انتهى من تلاوتها أبان كل منا عما يرى . فاذا رآها على ما يجب وافق عليها وإذا رأى موضعاً للأعراض اعترض . فتناول الكاتب ورقة تلاها بصوت عال وأنا أستمعه وأتأمل حال الأعضاء . فرأيت واحداً يسر لمن هو جالس الى جانبه حديثاً . وآخر يكتب كتاباً . وثالثاً يأكل الحمص . ورابعاً أثقل النعاس هامته . وخامساً يقرأ جريدة في يده . واذا كلهم كما قال الحسن ابن هانئ :

كأن أروسهم والنوم واضعها على المناكب لم تخلق بأعناق
فهلالي ما رأيت حتى خيل لي أني بين جماعة من أبناء السبيل نزلوا بدار
مطعم وأقاموا ينتظرون غداهم . واستمعت ما يتلو الكاتب . فاذا هو استئذان
من النظارة بصرف مائة وعشرين قرشاً لا صلاح أنابيب المياه في مدرسة
من مدارس البنات لا يحضرني الآن اسمها . فلما انتهى الكاتب من التلاوة
وشرح الرئيس للأعضاء مجمل ما تلاه . قال أحدهم :

- فليكن

آخر - لا . لا يكون أبداً .

ثالث - ولم لا يكون ؟

رابع - نعم . صدق فلان . هذا لا يكون أبداً .

خامس - أنت لاتدرى من هذه الأمور شيئاً . تكلم فيما ندريه ولا تشغلنا بهذرك هذا .

سادس - أرجو أن لا يطول هذا الجدل والا اضطررنا الى الدخول معكم فيما لا نريد .

الرئيس - كفى كفى . يظهر لى أنكم توافقون كلكم على صرف العشرين والمائة قرش .

الجميع وفيهم المخالفون - نعم نعم . كلنا نوافق .
فوالله مارأيت مشهداً هو أننى لصبر وأجلب لضحك مما رأته عيناي .
فيالك من مبرك ابل أنا أحد أذواده . فعارذنى هنالك شيطانى ونفخ فى أذنى
نفخته . فقلت لمعم كان باركا الى جانبي :

- ماقدر ميزانية المعارف ؟

- لاأدرى .

- كيف لاتدرى ثم توافق على احتساب مبلغ منها ؟

- وما يعنيننا نحن من ذلك ؟ لينظر فى الأمر من هم فوقنا . وما جىء بنا هنا لنحاسب الناس على كل مايقولون . أنا أحب أن لاتمدى مارسم لى وأنت جئت اليوم . فلا تدرى من أعمال المعارف شيئاً . فأولى لك أن لاتعجل فى رأى وأن لاتكشف مقاتلك لمحاسديك . قلت وهذه فائدة استفدتها . وقد ذهبت هيئة المجلس من عيني وأيقنت أن هذا البناء الذى يظل رجال العلم فى الامبراطورية العثمانية لا يواوئى الا اناساً هم نخبة جهلائها . فأشفقت على وطنى وتمنيت أن لا أعيش حتى أشهد مصرعه .

فلما كان المساء وآل للمستخدمين أن يخرجوا من بيوت العمل الى مضاجع الراحة أو معاهد اللذات تلفم كل ذي عمامة عباءه ولبس كل ذي طربوش معطفه (بالطوه) . فدنا مني راسخ افندي وقال لي :

— كم جعلوا راتبك؟

— لا ادري .

— أنصحك لوجه الله الكريم . لا تتأن في أمر لك نفعه وعليك ضرره . اذهب من ساعتك الى الناظر . فقل له كم جعلتم زيادة راتبي؟ أنت لا تعرف زهدى باشا . سل عنه مستخدمى المعارف يخبروك خبره : هذا رجل سوء . ما قدر على ضرر يضر به أحدا وتأخر عن تممه . وربما أدى به حلمك الى الاقتصاد من راتبك وجعل ما اقتصده من نصيب غيرك . ادخل عليه الآن قبل أن يخرج : ثم اياك والافراط فى التأدب والتحشم . هذا رجل جاهل يحسب الأدب خضوعا وتذالا . فلا تملكه ناصيتك فهي فى قبضته .

فما أتم راسخ كلامه الا هرواات نحو السلم وجعلت أصعد فوقه درجتين درجتين حتى بلغت أعلاه وأنا لأجد نفسا تنفسه : فدخات حجرة الناظر بمد ما استأذنت . مخالفا لما أشار به على ناصحى من ترك الاستئذان : فرأيت شكرى بك الحسينى عنده . فسلمت ولم أمهله أن يسألنى عما أريد . بل وضعت يدي على جانب مكتبته معتمدا عليهما وقلت له :

— جئت لأعلم مقدار راتبي .

هنالك ذوى عنى وجهه وقال :

— هذا ينظر فيه حين يحىء وقته . فتركته وخرجت . فاذا راسخ

في انتظاري أمام باب النظارة. فلما رأي أني أوماً بعيني يسألني عما كان. فقصصت عليه الخبر. فقال : — اذا رجعت الى بيتك ففكر في أمرك عليك تهتدي الى ما يريح خاطرك. ثم انه سلم عليّ وفارقتي .
ولا يفوتنّ القاريء الأريب أني لم أقتل طول أيام مقامي بالآستانة من نظارة المعارف الى نظارة غيرها . فخص به قليل ما جاء في هذا الفصل وسأعود الى الكلام على المعارف كلما أدى اليها سياق الحديث . ونرجع الى ذكر أشياء تقدمت ذلك . وقعت قبل أن أفارق جمعية الرسومات . فان لها شؤونا لا يخلو ذكرها من فائدة .

❦ الأميرة الجليلة الفاضلة ❦

﴿ نازلي هانم ﴾

« كريمة أبي الحرية والأحرار الأمير المرحوم مصطفى فاضل »

لا يسمع نطاق كتابي ترجمة حياة الأميرة الفاضلة ولا نحن بصدد هذا فأزين بها صحائف . ولا أريد أن أستعيد هنا ما سبقني اليه الكاتبون من بيان أعمالها التي يفتخر بها أهل الفضل . ولكنني ذا كر طرفاً مما وقع لها في إحدى زياراتها بالآستانة لوقوع ذلك بمقربة مني . وقد وددت أن أطبع صورتها في طائفة هذا الفصل غير أن أهل الشرق عامة والعثمانيين خاصة لم يعمدوا هذا . وفي القلوب من التعصب ما يجعل عمل مستهجناً ويستثير على الأضغان . وبذا أحججت عن مخاطبة الأميرة فيما كنت أتمناه . فلتبق صورتها بموضعها من

التي كرم في قلوب المحبين بفضلها ولتتكام آثارها إذا سكت
مادحوها .

أجل . تجاسرت الأميرة الفاضلة على شخص الاستبداد في حصنه المنيع
وعلى رأسه تاج الخلافة وفي حركة شفتيه شقاء العباد وسعادتهم . فهاهرتها
(جلالتها) ولا هالها بطشه وقدرته . فترأت له في صورتها الجميلة ونفسها
الجليلة مرآى الشمس تنير الأبصار ولا تحديق إليها الأبصار . وكأن روح
أبيها كانت تصحبها كما تمثلت بين يدي الملك الظالم وكأن روح أبيها كانت تشير
إليها بما تخاطب به عدو أبيها وعدو أبنائه الأحرار .

اني ذا كر في هذا الفصل تعريب كتاب ترى كانت أنفذته الأميرة
الفاضلة الى عبد الحميد : فغصه وأسهره وسيدبقي حجة عليه في كتاب تاريخه
الى آخر عهد الناس بالدنيا .

الكتاب كانت أنفذته الأميرة من القاهرة في ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٩٦
وذلك حين جاءها أن عبد الحميد ناظم عليها لحضورها بعض اجتماعات مؤتمر
تركيا الفتاة الذي التأم في تلك الأيام ببغداد . وقد تتابعت الوشايات يومئذ
لعبد الحميد تحريضه كلها على الأميرة . وكانت حجة المستبد في تخطيطه الفاضلة
الشرق أنه لا يحمل بعقائل الاسلام أن يسافرن الى بلاد النصرى ويخالطن
أعداء الخليفة . ولو رزقهم الله أقل ما يرزق عباده من عقل أو انصاف
لما خروا بها النساء من سالفات ولا حقات ولقالوا ان التي خطبت الناس يوم الجمل
لم تأثم وقد أدى ذلك الى سفك الدماء فكيف تأثم من حضرت مؤتمر ألف
ليستخلص الوطن من يد قاتله .

صورة كتاب الأميرة الفاضلة الى عبد الحميد تقلا عن جريدة (حدام)
التي كان يصدرها شقيقى يوسف حمدى يكن :

القاهرة فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٩٦

ملىكى .

قرأت مع الأسف الشديد فى جرائد اوروبا التى وردت فى هذا
الأسبوع أن مولائى الأعظم غاضب على غضباً شديداً . وعلمت أن السبب
فى غضبه حضورى مؤتمر (تركيا الفتاة) الذى عقد بباريس . ولهذا أرجو الاذن
لى ببيان ما يدور بخلدى فى هذا الباب :

ان استهدافى للفضب الملوئى ليس بالأمر الحادث . ولكنه مستمر منذ
أربع سنوات . واذا وجب أن يميز من حل بهم ذاك الفضب سهل تعيين
الفئة التى ينبغى أن أحشر فى عدادها . غير أن حضورى مذاكرات هذا
المؤتمر ليس تذرعاً للشهرة . فهو اذن منزّه عن كل غرض ذاتى .

يذكر مولائى الأعظم أنه قال ذات يوم للمرحوم خليل باشا شريف :
« انى مغرم بكلمة الحق » . واتقد بشرنى المرحوم بهذه البشارة الملكية وتعاهدنا
كلانا منذ ذلك أن لا نحيد عن كلمة الحق .

قرأت ما ينشره هذا المؤتمر من زمن مديد واطلعت على اللوائح التى
رفعها الى الأعتاب الشاهانية . ولما كانت هذه المنشورات بمثابة كلمة حق فى
وصف الدمار الذى بانث فيه الممالك المحروسة الشاهانية رأيت أن أحضر مذاكرته
عند نزولى بباريس .

فشهدت من الجميع منتبهي الود والولاء للمقامي الملوكي وللوطن والأمة
ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذي بات على شفا القناء ، فهاجني ذلك
وتذكرت أن مولاي كان مفرما بكلمة الحق . فظننت وآسفاه أنه ربما
تسلى عن ذلك الغرام . ولكن هز فؤادي . ما عاهدت الله عليه وأيقنت أن
العشق يزول والعهد يبق .

لما زرت الآستانة منذ أربع سنوات أوصاني بعض المقربين بأن أرفع
الى مولاي عريضة أستقيل بها من هفواتي . ولما لم يكن لي علم بهفوة
تكون سبقت لي لم أقدم على هذا الأمر . فقد تغيرت سياسة مولاي مع
الانكليز وذهب الرضاء الذي كان توسط لي في نياله المرحوم السير هانري
لاير : واني لأتلقى بكل ارتياح توسط الانكليز لي في احراز رضاء مليكي .
بلى أشكر اليوم ما أصابني من الغضب الملوكي . وان في بعدي عن مشاهدة
ما وقع بالآستانة من الزلازل وما نزل بالارعية من الفقر وما جرى من دماء
المظلومين الذين ذبحوا كما تذبح الأضحية وعن سماع استغاثات المظلومين
وتأوهاتهم ما يسليني وما أحمد الله على بعدي عنه . وسأستمر لذا على العمل
بنص الأمر الملوكي الذي أبلغتني به الحكومة المصرية غير رسمي مادامت لي
الحياة .

على أني لأبرح داعية بطول عمر مولاي وبقا دولته ولا أبرح داعية
بأن يعود له سالف غرامه بكلمة الحق . فاذا قدر الاله لي زولن بؤس اليوم كما
نزول الرؤيا المفزعة . فيصبح سعيداً مهناً ويلقى رعيته في رغد بالاتحاد والحرية .
فان رعيته لا تريد منه الا ان يكون أباً مشفقاً . لعل تجاوزت الحدود وأسأت

البيان. فلست أدري مبلغ وقع ما أشرف به مرضه . فليثق مولاي أن كلام
أصدق عبده في زماننا هذا لا يختلف عما جرى به قلمي . وليوثق مولاي
أن ورقتي لم تسطر الا بخالص النية وصادق الولاء .

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصري

خادمتك

نازلي

أميرة ورثت فضل أبيها كما ورثت مجده . تقيم أمثالها بظل شاهقات
القصور . يسحب ذيل الامارة مختلات في حال التيه . تسفر في سماء معاليها
على الوطن فتكسوه نوراً . . . امرك لى واحدة الشرق وسيدة السيدات
المتحجبات .

وصل كتاب الأميرة الى يد عبد الحميد . وكم كتاب قبله لم يحرك له
نخوة ولم يبعث له همة . لقد أسكن الله بين جنبيه روحاً أعوذ بالله أن تكون
من روح عبد الحميد . هي روح أجنبية عن المعالي . يزدهقها الحق ويحرقها
الحلم . هي وسواس يحرك جسداً لا يحلو على أديمه نعمة من نعم الله . فلما
استقرأ الكتاب استشاط غضباً واربد وجهه وغلب عليه طبع أكلة البشر .
فلو كانت الأميرة عنده ساعة رنت في آذانه كلماتها لنشب فيها أظفاره وأثابه
ولكنه اكتفى من الانتقام بما خص الله به أهل المعجز من المجننين وحقد حقداً لا
تزيله من صدره تقلبات الأيام . وما زال يتلطف في استدعائها الى الآستانة
واعداً اياها الخير والمزيد حتى أجابت دعوته بعد سنة ١٨٩٨ على وجه التقريب .
فتقدمت الأميرة الى الآستانة ونزلت فيها بمنزل الجنرال احمد جلال

الدين . ثم دعاها الى (يلديز) فأكرم وفادتها وأظهر لها ما لا يمكنه فؤاده . فلما عادت الى مصر ظن أن قد أصبحت في عداد أعوانه وأنه اذا شاء حاربها أعداءه دعاة الحرية . فخاب ظنه . وندم اذا أفلتها من يديه بعد أن حسبها وقعت في حباله فلم ينفع الندم . ولقد بلغ بغض عبد الحميد للأميرة الفاضلة ان خاف رجاله أن يذكروا لها اسماً في القصر كلاً أتى ذكرها في جريدة من جرائد اوربا . ولقد كدت ألقي حتفي يوم كتبت للأميرة خطاباً أنفذته اليها من الآستانة بعد سفرها . فلا أدري كيف علم به الجواسيس وأخبروا به عبد الحميد . وأحمد الله اذ لم يكن بذلك الخطاب شيء من السياسيات : ومتتهى ماقيت يومئذ أني سئلت عما يدعوني الى مراسلة الأميرة . فقلت لمن سألوني . ان يتي ينعي الى بيتها فهي الأصل وأنا الفرع : وقد دام اتصالنا بوالدها المرحوم معاش أبي وما عاش أعمامى ولم نبرح مخلصين لهذا البيت العالي ماشاء الله .

وأعجب ما في السياسة الحميدة أن أعوان عبد الحميد أنفسهم كانوا يستخرون منه ليستمطروا هباته . فكان أكثرهم يكذب به فيما يشي به اليه . فيزعم له أن عنده أبناء الأميرة وأنه بث عليها الأرصاء ليستطلعوا له أسرارها وكان عبد الحميد يصدق ذلك . ولولا أنفة وحكمة فطرت عليها بنت الأمير الفاضل وصدق ود من الجنرال أحمد جلال الدين لتمكنت مخالب الظالم من ذلك الفؤاد الكريم ولا أصابه ما يصيب كل ذى رأى من المفوات التي لا ينسبها توالى الأعصار . ولكنها نبذت كل وعد واستحققت كل وعيد وجاءت تاركة عبد الحميد يندب خيسته في سبيل التغلب عليها .

الجنرال احمد جلال الدين

كان ينبغي على أن أذكر هذا الفصل في طاعة الكلام على رجوعي الى الآستانة . فان الجنرال احمد جلال الدين كان الوسيط بيني وبين عبد الحميد وهو الذي نزلت على داره حين قدومي الآستانة وهو أول رجل قابلته في تلك السفارة . غير أنني تجاوزت عن الأطلالة وطويت ذكر أشياء لا فائدة تحتها . فليس لها شأن يستلفت نظراً أو يسترعى سمعاً .

اني رجعت الى الآستانة ثقة بوعده احمد جلال الدين أن لا يصيبني بها هوان . فقلت حسبي وعده . ولقد قال لي : اذا رأيتني لأقدر أن أذود عنك مكروهاً تأنفت في خلاصك واخراجك من الآستانة . وكلام أهل النجدة ينبعث من القواد وعلى قدر جرأة المرء يكون صدقه . واحمد جلال الدين جرى . الجنان لا يروعه مخوف وان جل ولا يملأ عينيه خطر وان عظيم .

رأيت هذا الرجل بموضع لا يرومه المتطاولون . مثير الحمى . مرهوب البطش . نافذ الكلمة . يقيم في بيت تزدحم على بابه الأفواج . فن حله آمن غارات المطاردين وبات بموئل لا تطول اليه ولا يد عبد الحميد . هذا كلام ربما حسبه قوم مبالغاً فيه . كل من أقام بفروق شهراً واحداً عرف ذلك . وانما ثبت قدمي الرجل في موقفه احتقاره الموت وازدراؤه بما كان فيه من جاه رفيع . ولقد حلت به نكبة عبد الحميد قبل ذلك . فشده وثاقه وصاحت السلاسل على ساعديه وقدميه ونفي الى حب وأقام بها ماشاء الله أن يقيم .

فنزصره سقته وخذل أعداءه باطلهم .

هذا رجل وباه السلطان المستبد . أخذته صغيراً لا يميز الخير من الشر وأظله بظله وقيده بقيوده . فلو نشأ ظالماً مثله سفاكاً للدماء كذوباً حوَّلاً قلباً لمهد له المذر تموده ذلك . ولكنه غلبت عليه البداوة الحرة وللبداوة حرية لا تطاولها حرية التمدين . فغلبت نفسه على وساوس الفرور ونزق الشباب وعاش صحيحاً بين جرب . وللدهر من العجائب ما لا ترقى إليه الملل غير أنى أخذته على أمور وددت لو سلم منها . فقد رأيت مطواعاً للمخادعين آمناً عواقب الفتنة من قوم كان واسطة عقدهم وملتقى أهوائهم . ورأيت ذكائه في التمييز بين الناس دون ذكائه الذي يقدم به على المخاوف . وهذه خلال تؤذى الأحرار وتحرم أكثر الرجال أن يجتنوا ثمرات مساعيهم . على أن أصلهم اعدم المبالاة والاهوان بالحوادث .

ثم ان أحمد جلال الدين لم يتخرج من مدرسة ولم يتعلم من العلوم ما اذا أضيف الى ذكائه الفطري زاده رونقاً وحباه كمالاً . كل ما عرفه عرفه تجربة وممارسة . وقد تعود الأناة وروض نفسه على مجانبة الطيش . فاذا جرى في مجلسه كلام على أمر لا يعرفه أمسك عن الخوض فيه ولم يتعسف الرأي كما يتعسف أكثر الناس . واذا تكلم في أمر سبق اليه علمه أعجب به سامعوه اعجاباً .

ولما امتحن عبد الحميد صدق ريبيه وجرب اصابة رأيه رمى به الدواهي ففرج له غمائها وأزاح مخاوفها . فكان يتكل عليه في شدائده ولا يحبه . وما أحب عبد الحميد أحداً من الناس ولا أبناءه الذين من صلبه . ولقد عرف

لدى الممانين باسم (سر خفية) وممناه رئيس الجواسيس . وكان ذلك من حظ المظلومين . فكم أنصف منهم من حاق به الظلم . وكم أغضب عبد الحميد ليرضى فقيراً لا يملك قوت يومه . وما عهد الناس عليه تجسساً ولا عرفوا له مثلبة تشبه التجسس . والرجل لا يملك اليوم لنفسه ضراً ولا لغيره نفعاً . ولو افترت عليه كذباً وبهتاناً لما لحقني منه سوء . غير أني أقول لا مرتقباً جزاء ولا طالباً شكوراً : لعمرى لنعم الرجل الهمام أحمد جلال الدين .

ولا أنسى ما سمعت منه كثيراً بمحضر من حاشية عبد الحميد من الكلام الذي يتجاسر عليه حر من الأحرار . ولقد دعاني ذات يوم الى منزله وقال لي : بلغني أن قد جاء الآستانة شاب ممن كانوا في جنيف . ونزل متذكراً بمكان في (بير) لا أعلم أين هو . والأحرار لا يخفون عنك أنفسهم . فاذهب وفتش عليه حتى تجده . فقل له ان فلاناً يهديك سلامه ويقول لك انه اتصل به أن جماعة من الجواسيس يفتشون عنك فاذا وجدت سبيلاً الى دارى فلا تبطئ في الالتجاء اليها واذا تعذر عليك ذلك قل اني استدعاني أحمد جلال الدين وأنا لا أذهب الا مع رجاله . فقضيت يومى اسأل عن الشاب الذي ذكره لي فلم أجده أثراً وأخبرته بذلك في المساء ففهم الخبر . وقال : سأبذل كل مرتخص وغال في معرفة مكانه لأجعله في مأمن من شر أعدائه . وكانت المداوة بلغت مبلغ الكمال بيني وبين أبي الهدى . فجاءني منه الوعيد بعد الوعيد : وكنت كتبت في سيئاته فصولاً نشرت بجريدة الرائد المصري الذي كان يصدرها بمصر صديقي القديم تقولا افندي شهادته . واتحلت لنفسي امضاء زهير اذ لا يصح لموظف في الحكومة أن يرسل

الجرائد : وقد قلت قصيدة خاطبت بها عبد الحميد أذكرها هنا إشاراً لواقعها :
ألا أقتل أمير المؤمنين أبا الهدي فقد جار في الاسلام ماجار واعتدى
سعى مفسداً بين الرعية جاهلاً فلم يستطع ثم استطاع فأفسداً
تظن به خير ولا خير عنده وما هو الا الشر في جبهة بدا
رفعت أمير المؤمنين مكانه ليرشد للحسن وما كان مرشداً
فأكبره قوم ودانوا لأمره وأصبح يدعى في البرية سيداً
يقول غداً يرجو خلافتي الوري ومن ذا الذي يرجو خلافته غداً
عفاء على العلياء ان رضيت به وويل على الأتجاد ان هو مجداً
يهدني بالبطش لادر دره ويعلم أني لا أبالي مهديداً
كأنني لم أنصب له أمس غارة أقام لها الدنيا بكاء وأقعدا
ولم أرم فيه من سبامي صائباً ولم أجر فيه من سيوفى مجردا
بلى رعت منه مهجة ذات مرة وأوقدت فيها الفيض حتى توقدا

فقصته هذه الأبيات فما ساغ له ريق وأقذته فما اغتمض له جفن .
وأذكي على العيون والأرصاد وأتبعني بجماعة من رجاله ليوقعوا بي في غرة مني .
فكلمت في أمره أحمد جلال الدين . فاذا قلبه يتلظى عليه غيظة وحنقا .
فقال لي هوّن عليك الأمر فالخطب أصغر مما تظن . ودعني أنازله بالبأس .

ونازله أنت بالقلم .

قلت : - هذا رجل شديد الوطأة على خصومه صعب السكينة سابغ الدروع . تصرد سهام راميهِ وتصيب سهامهِ . فنظر أحمد جلال الدين الى نظرة ملؤها الأسف وقال : كنت أحسبك أعظم جرأة مما أرى .

قلت : - عندي رسالة صغيرة كتبتها . اسمها (الخافي والبادي في فضائح الصيادي) وأريد أن أطبعها بمصر .

قال - نعم الرأي ولكن على أن تتعرض للسلطان . فاني أخاف أن يبطش بك . أما أبو الهدي فلاك أن تقول فيه ما تريد على أن لا تذكر شيئاً غير الحق . فاني رجل لا أحب النصر بالباطل . هنالك كتبت رسالتي وبعثت بها الى مصر مع أخي يوسف حمدي يكن . فطبعته . فباع الطابع رحمه الله نسخها وقد بيعت النسخة الواحدة منها بجنيه وبقي لي ولأخي من الكسب تعب الكتابة والطبع .

ولقد زرت الجنرال أحمد جلال الدين باشا يوماً . فرأيت عنده المير آلاي الدوكتور عزت بك . وكان عاجلي في سفرتي الأولى الى الاستانة : فلما رأي أحمد جلال الدين قال للدوكتور : أعد على ولي الدين ما كنت تقول لي الساعة . فوجم الرجل . فقال له أحمد جلال الدين : ليس من الرأي أن تخاطبني في رجل وهو غائب وأن تسكت وهو حاضر . وأنت لا بأس عليك وما على الرسول الا البلاغ .

قال عزت بك - ان أبا الهدي أرسلني اليك لتأذن لولي الدين في الذهاب اليه وهو يقول لك : لا تخف عليه . انه بمنزلة ولدي ولا يصيبه عندي

سوء . وما أدعوه الا لأعابه عقاب الآباء الأبناء .

قال أحمد جلال الدين - أعدت الآن رسالتك بمسمع من غريمك
وها أنا ذا أعيد جوابي لك بمسمع منه أيضاً . بلغ عنى أبا الهدى أن يده
لأقصر من أن تصل الى ولي الدين بشر . وأنا لا أسمع ولي الدين عن زيارته
إذا هو شاءها ولكنتى أمنه بعد ذلك أن يدخل لى بيتاً . ثم التفت نحوى
وقال : وأنت ماذا تريد ؟

قلت - أرى ماتراه .

ولقد أظهر أحمد جلال الدين من النخوة ما أوثره له مع أجل الشاء .
أما عزت بك فرجع الى أبى الهدى وأخبره الخبر . فوقع على فؤاده كالسهم
إذا أصاب صميمه . وسكنت عواصف الفضب فى فؤاد عدو لو ظفر بى
لأحرقنى بالنار .

وكان بنفسى شىء فى رجوع مراد الداغستانى الى الأستانة . وقد
اختلفت الروايات فيها . فزعم جماعة أن عبد الحميد استرضاه وقال آخرون لا
بل التمس هو الأسباب للرجوع حين نفذت دراهمه . واذ كان رجوع
الداغستانى هو على يد جلال الدين سأله يوماً أن يخبرنى بما وقع . فأخبرنى
أن عبد الحميد استدعاه ذات يوم وقال له :

- رأيت أن أؤخر اعلان الدستور الى أجل غير محدود . وذلك لأن
الأمة لم تكن متهيأة له . فأما وقد عرفت مزاياه وظهر من أبنائها من يهجرون
أوطانهم ويستصغرون المهالك فى طلبه . فقد آن لنا أن نهبهم طلبتهم . ولكن
هذا لا يتم وفى أوروبا مثل مراد وغيره يملأون الصحف ويواصلون الجهاد .

ومثلي لا يرضى بأن يقول فيه الناس أنه خاف جماعة من رعيته خرجوا عليه فأعلن الدستور مكرهاً لا راضياً . فذهب إلى هؤلاء الناس وقل لهم أن يرجعوا إلى بلدهم ولير على رجوعهم بعض الشهور وأنا أحلف لك يشرف المتقدمين من أجدادي أنني أعلن الدستور بعد ذلك .

قال أحمد جلال الدين - فخرجت من عند عبد الحميد وأنا أكاد أطير فرحاً وقلت في نفسي لا يوثق بكلام هذا الرجل ولكنه آلى يميناً لا يخونها أبداً : فأدركني الحاج علي باشا رئيس وزراء السلطان إذ ذلك . وقال أمرني مولانا أن أبلغك صدور الإرادة إلى البنك العثماني باعتماد كل ما تطلبه من المال على حساب السلطان . فتبسمت له ابتسامة ازدراء عرف المراد منها . وخرجت ولم أجابه بشيء . ولما التقيت بمراد الداغستاني ورفاقه قبل مراد بغير شرط . إلا أن رفاقه طلبوا المال وقالوا إن علينا ديونا ولا نستطيع أن نسافر قبل قضائها . ومنهم من رضى أن يكف عن الكتابة في طلب الدستور على أن ينقد مالا يبيع به في أوروبا وأن لا يكره على العودة إلى الأستانة . فأديت سفارتي وقلت اني لم أكلف بسماع اقتراح . وقلت لهم : أنا لا أحب الدخول في أمور مالية ولكنني سأكتب إلى السلطان مطالبكم ولا أدري إن كان يرضاها أم ياباها . ولما جئ لي بالكتاب وقد كتب على ما يريدون أمسكت القلم بيدي وقلت . وددت لو انكسرت يميني ولم أكتب مثل هذا الكتاب . أما مراد الداغستاني فلم يرض بالمال الذي أمر به السلطان ولكنه اقترض مني ألفي فرنك ليشتري بها بعض الهدايا لبنتيه وتم الأمر ورجع مراد إلى الأستانة .

وقد أنفق أحمد جلال الدين في سفرته هذه من ماله الخاص نحو
المئتين ألف جنيه : ولما سئل عن مقدار ما أنفق قال : لم أعد إلى الآن
إن هو إلا قطرة من جود مولاي السلطان . ولم يستمض عن ذلك كثيراً
ولا قليلاً :

وإذ وفق الله أحمد جلال الدين إلى استرجاع أكثر الأحرار واستراح
عبد الحميد قليلاً من سهر الليالي ومراقبة المباد وبقي جواسيسه لا يهتمون
إلا رجالاً ممن لا يخرجون من أسوار الاستانة . راع ذلك حساد جلال الدين
وقالوا : لقد فاز عند السلطان أيما فوز فلا تنفع فيه الوشاية ولا يضره الحسد
ولكن المحاسدين لا يعلمون والأعداء لا ينفلون . وقد عرف ذلك أحمد
جلال الدين قبل وقوعه . فقال للأحرار الذين خاطبهم في ترك النضال .
إنى منذ اليوم من المهالكين . أسمى لأرجمكم وهذا السعى ينفعكم ولا يضركم
ويشرح صدر السلطان . غير أن إلى أعداء سيجمعون نجحى وبألا على . وقد
صدق فآله وجملاؤا نجحوا وبألا عليه وذكروا عند عبد الحميد أن أحمد جلال
الدين لو لم يكن متواطئاً مع الأحرار لما استطاع إسكاتهم . وكيف خاب
غيرهم في مخاطبتهم وأفلح هو ؟ ولم يثق الأحرار بكلامه ولا يثقون بكلام
غيره ؟ فصدق عبد الحميد هذه الأكاذيب وقلب لأحمد جلال الدين صفحته
لما رآه أمره . فأذكي له الميون والأرصاد وأقصاه عن حظوته وتخذله لنفسه
محارباً ولسطوته مغالباً .

شهدت كل هذا بعيني وأنا إذ ذاك بالاستانة أزور منزل جلال الدين
وأغشى مجالسه ولوبلى غيره بما بلى لنجا بنفسه من بين تلك الشدائد ولا طرح

عن كاهله أعباء ينوء بها كل قوى النفس صبور على المسكاره .
رأيت قوما يطرُقون باب هذا الشهم ويتهافون على موائده ويتخاطفون
هياته ثم يرمونه بسهام لا تخطيء . وقد رأيت أحمد جلال الدين قليل التفرس
وأهل الجرأة لا تفرس لهم وإنما يتجرى البواطن ويستقرى السرائر كل
قلق الجأش مستطار الفؤاد . فإذا استرسل جلال الدين في حديثه لم يبال
بمن حضر مجلسه من الناس كراما كانوا أم لئاما . وقد يبلغ عبد الحميد أن
جلال الدين قال فيه كذا وكذا وأنه نال منه بحضرة كثيرين . فيسر له
الحقد ويضمر له الانتقام . ولقد انتقم منه بأن ساد على فيه المشهور .
كان رجاله يطوفون بيت جلال الدين ليلا حذرين خائفين أن يحس بهم أحد
ممن في البيت فيطول مهمهم .

﴿ الشيخ محمد ظافر المدني ﴾

أهل قراء كتابي لا يجهلون الشيخ محمد ظافر ولا سيرته . غير أن أكثر
ما يقال عن الأختار كما يقال عن الأشرار . كله غلو وجه بهتان . وقد
سمعت الناس يتكلمون كثيرا عن هذا الرجل من قاذح ومادح . فأما
القاذحون فأنصار أبي الهدي ولا يجوز الاعتماد على كلامهم . وأما المادحون
فأنصاره هو ولا يصح أيضا الوثوق بكلامهم . فكان الصواب أن أبلوه وأختبره
بنفسي . أردت ذلك كثيرا ولم أتمكن منه إذ لم تأت الفرص بما يحتمنى وإياه .
وأنا رجل قليل الجرأة على الناس . لا أقدم على غشيان منازلهم إن لم يسبق
بيننا تعارف . وما زلت أسكن ما بقلبي من هذا الشوق حتى حان الحين .
فجاءني ذات يوم رجل من معارفى يخبرنى أن آل ظافر يودون التعارف

في وأنهم معجبون بما سمعوت به أبا الهدي . فسرني ما بلغني ولكن اعجابهم
بمجهاني أبا الهدي أحدث في قلبي الريب . فقلت لصاحبي : سأنظر في ذلك .
على أنني أخبرك منذ الآن أنني لا أحب أن أكون الباديء بالزيارة . ان
أولى الجاه والخطوة يزدرون بالمبتدئين عليهم . فاذا بدأوني ألفوني أهلاً
لمودتهم . قال :

— لك علينا ذلك . ولولا ثقتي منهم بشدة الرغبة اليك لما فاوضتك في
ملاقاتهم ولا حببت اليك مخاطبتهم . ثم فارقتني الرجل غير ضارب ميماداً لتلك
الزيارة ولا لمودته الي . ومضت على ذلك أيام قلائل . وفي أصيل ذات يوم
وقفت أمام باب داري عربية خرج منها ثلاثة رجال . فعرفت أحدهم وهو ذلك
الرجل الذي كان عرض عليّ زيارة الطوافر . أما رفيقه فلم أعرفهما باديء
بدء . ولكنني فطنت أنهما أو أن أحدهما لا بد أن يكون من أبناء الشيخ
محمد ظافر .

فلما أدخلوا عليّ قال دليلهم مشيراً الى النحيف منهما : هذا عطوفة
مصطفى بك ظافر . ثم أشار الى البادن وقال : هذا محمد افندي الأسير نجل
العلامة الشهير الشيخ الأسير صاحب الأسفار الجمّة التي عرفها العلماء . فكان
مجلسنا مجلس صفاء . منزها عن الأنفة والمفاخرة والكبرياء ولم يشأ مصطفى
ظافر أن يبادرني بذكر شيء عن أبي الهدي وتعمدت أنا أيضاً الصمت عن
ذكره . وجعلت أنشد لهم بعض قصائدي وأقص عليهم ما حضرني من
الأخبار . فلم يطق محمد افندي الأسير صبراً ورأى أن يجسني بشيء من
دهائه فقال :

— يزعم بعض الناس أن أبا الهدى ناظم عليك كثيراً وأنه لا يهنا له عيش دون الأيقاع بك . فلهذا آله ما كتبت عنه في الجرائد وأظنه الآن يتدبر لك مكيدة يكفي بها شرك .

قلت — له أن يصنع ما يشاء ولي أن أصنع ما أشاء وأشقانا من إذا ظهر خافيه استعصى عليه الجدل . أنا لا أزاحم أبا الهدى على مقام . ولا يجوز أن يكون بيننا تنافس . فهو ولي السلطان وأمينه وأنا أحد أفراد الرعية . وهو درويش من الدراويش وأنا رجل من رجال القلم وموظف من موظفي الحكومة . على أني أطاربه لا مختفياً ولا خائفاً . فان كان عنده ما يبطل به كلامي فليأت به وإذا لم تكن لديه حجة تدحض ما أقول فليربأ على ظله : — ما أقول إلا الحق . ولكن من لهذا الذي تنازله أن يدين للعق . ولو أنصف لاستراح وأراح . غير أني سائلك عن شيء أود أن لا تبخل عليّ بجوابه . ولئن كان العهد بمعرفتك قريباً فليس العهد بمعرفة فضلك قريباً .

— هات ما يعين لك . فإذا كان مما أعرفه أرضيتك بالجواب .

— يقولون ان عندك هناك بختام محمد قدري المثاني . كتبه على استلام مبلغ من الدراهم أنفذها اليه أبو الهدى وبذلك الدراهم أعيدت جريدة (القانون الاساسي المربية) بعد أن عطلها صاحبها لضيق ذات يده . فإذا كانت هذه الرواية صحيحة أرى أن تدفع هذا الصك الى سيدنا (يريد الشيخ محمد ظافر) وهو يرفعه بنفسه الى السلطان وتكون لك من وراء ذلك فائدة تجني ثمراتها مادامت لك الحياة ويلقى أبو الهدى من العقاب ما هو أهله .

— نعم الرأي . ولكن الصك الذي تسألني عنه كان عندي ثم مزقته وأنا قادم الى الآستانة . قلت ربما فتشوني في السكرك فوجدوا على هذه الورقة فيجعل بي من غضب السلطان ما لا أحب . ولو كان هذا الصك بيدي الآن لما رضيت الانتفاع به . نحن قوم لا نعرف التجسس ولا نحسن السماية . ولأن يفوز علينا أعداؤنا خير لنا من أن نفوز عليهم مثل هذه السمايات . وفيما أكتبه ويقرأه الناس ما ينفى عن تصسف الحيل ومغالبة الرجال بالدنيا . فقرأ مصطفى ظافر في وجهي الضجر . فأومأ الى صاحبه ليكف . ولما هم الثلاثة بالانصراف تقدم نحوي مصطفى ظافر مصافحاً مصافحة ود وقال :

— والذي مشتاق اليك . وهو شيخ كبير لا يفارق البيت كثيراً . فلو زرتنا يوماً زرت داراً تسعد بقدومك . ولنا مجالس طيبة لانفتاح فيها أحداً ولا ننطق فيها بشيء . فوعده بذلك وجعلت الميعاد يوم الجمعة . وذهب القوم وبقيت وحدي . فقلت يا سبحان الله اذا كان الظوافر على ما رأيت من محمد افندي الأسير فقد ساء فيهم ظني . نعم ان أبا الهادي رجل سوء وينبغي أن يحارب بكل سلاح ينفع في حربه . أما اللوم فلا قبل لي به . واذا كنت أريد أن أحاربه بمثل سلاحه فخير لي أن أسأله وأن أنتفع بجأه وكلمته . على أنني لا آمن على نفسي الخطأ في الحكم اذا زعمت أن ما يقوله الأسير يقوله محمد ظافر نفسه . هذا الأسير صديقهم ويجب أن يتقرب اليهم باظهار الود والاخلاص وربما استوجب عليه كلامه هذا لوماً وتأنيباً حين يرجع مع ابن الشيخ .

فلما كان يوم الجمعة استصحبته الدليل الذي سبق ذكره وقصدت الى

تكية الظوافر الكائنة على يسار شارع (يلدينز) بالآستانة . فاذا بناه شامخ
الأركان رجب المكان يحيط به قضبان الحديد . فحجم ظاهره عار عن الزخرف
باطنه . فسمى بنا خدام التكية الى حجرة واسعة ولم يطل بنا الانتظار . واذا
شيخ أبيض اللحية متوسط القامة أكحل الناظرين وسيم الحيا يسنده في
مشيه خادمان له . فإشار الى صاحبي بأن الداخل هو الشيخ ظافر . فدئونا منه
فحيانا وحيثنا وجلس وجلسنا اليه . فأقبل علينا بحديثه وقال انه سعيد
برؤيتنا . وكان صاحبي عالما بما ينبغي أن يخاطب به حملة العرش
والمقربون . فقال :

— كدنا والله نهب الأرض نهباً شوقا الى مولانا وما خاطبت ولي الدين
في زيارته لمولاي الا ورأيت به من الشوق مالا يبالي به المرء الشدائد . فتبسم
لنا الشيخ وقال :

— حفظكم الله .

وكان بمض الشياطين أخبرني أن أحد الدراويش قال ذات يوم للشيخ
محمد ظافر اني رأيت مولاي في منامى جالسا على يمين الله والملائكة بين
يديهما خشع الأبصار . فاعترض على كلامه أحد الحاضرين . فقال له الشيخ :
— دعه . انما ينطقه اخلاصه ويريه اخلاصه ومن صفت سريره قرب
عند الله مكانه . فقلت في نفسي : أمتحنه . فاذا كان كلام الراوى صحيحا
علمت ذلك من حديثه واذا كان كذبا تبينته . ولكن الشيخ سبقني الى
السؤال فقال لي :

— هل تأتيكم من مصر جرائد ؟

-- لا فاني لم أطلب لأرباب الصحف أن يرسلوا الى صحفهم فاني أخاف أن يتذرع بذلك بمض أعدائي الى ما يطيل همي .

-- نحن أيضا لا نقرأ الجرائد ولكن بمضها يأتينا على سبيل البركة .
وإني مصطفى ظافر يحب المؤيد كثيراً . وهو يقول انه أكبر جريدة عربية بل أكبر جريدة شرقية . وكل من قرأ المؤيد شهد لصاحبه بالفضل . وقد بلغني أنه من أكبر الشعراء وأن كلامه كله سجع لا تكلف فيه .

وقد كان المرحوم عبد الله النديم يمدح لنا المؤيد وأخبرني عزت بك (عزت باشا العابد) أن جرائد مصر كلها تعترف للمؤيد بحق السبق وقال لنا . لولا الشيخ علي يوسف لأعلن الانكليز امتلاكهم مصر .

فجملت أستمع هذا الكلام من الشيخ الجالس أمامي ولاحت مني التفاتة الى صاحبي الذي جاء بي الى التكية فرأيت مطرقاً خجلاً وقد ساد بيننا السكوت دقائق معدودة . وأنا كذلك واذا بمصطفى بك ظافر قد دخل علينا . فيحانا واستأذن والده في الذهاب بنا الى حجرته . فأذن له . فدخلنا حجرة رأيت بها شيخاً آخر ينطق الشيب على مفرقه ولحيته . فتبادلنا السلام والمصافحة . ولما استقر بنا الجلوس أومأ مصطفى الى ذلك الشيخ وقال :

— الأستاذ العلامة الشيخ ابراهيم السنوسي من سادات المغرب . هو ضيفنا الكريم ومن المغرمين بشعرك : فأجبت مصطفى ظافر بما يوافق المقام . ثم دخل الحجرة رجل أسود اللحية معهم . فدنا مني وأمسك بيدي ووقف أمامي قائلاً .

— أهلاً وسهلاً بعطوفة البك . حلت البركة . تشرفت التكية . أنا

والله يحبكم المخلص . الله يطيل حياتكم ويحفظكم . الله ينصركم على أعدائكم
الله لا يخيب لك رجاء . الله لا يسوئنا فيك . الله يعطيك البركة . الله يعلي قدرك
الله يكفيك شر ما تخاف .

فسكاد والله ينقد صبري من كلام الرجل ودعائه . فقد كان يرتجله ارتجالا
غير ساعل ولا متوقف . فبادرني صاحبي قائلا :

— هذا ابراهيم بك ظافر نجل الاستاذ الكبير وأخو عطوفة مصطفى
بك . فقلت أنعم وأكرم . وأخذنا نتحدث مع الشيخ السنوسي . فرأيت
منه رجلا عالما متفهما كثير التعصب مصدقا لأضاليل الأولين . تمكنه من
العلوم الشرعية أعلا قدره في نظري واستأنست به واستطبت حديثه . ثم
خرجنا من التكية بعد مالتينا فيها من الاكرام والترحيب مالا نستطيع ذكره
في هذا المرجز . وتحدثت مع الأسيير كان يومئذ متغيبا عن التكية . وكثرت
الزيارات منذ ذلك بين الظوافر وبينى . فأنس الى مصطفى ظافروا أخذ يفضي
الى بأسراره ويشكو مآلأقاه من عداوة أبي الهدى له . وكان يقول لى :

— ان أبي رجل درويش فقير لا يريد من هذه الدنيا الا وقتا يعبد
الله فيه ويصلى على نبيه . وقد بلغ من الخطوة عند السلطان ما لم يبلغه سواه
فلا نال رتبة ولا رضى وساما ولا طمع فى وظيفة يزاحم عليها أهل المطامع .
بل عف عن كل لذة وانصرف الى الله عن كل جاه وآثر الآخرة على
الأولى . فهو يحب الفقراء ويجلس اليهم ويستطيب مجالسهم ولا تمت به
نفسه الى مخالطة الكبراء أولى المطامع . فوالله ما أدري ماذا يريد منه أبو
الهدى وهو مع أبي على طرفي تقيض . تسمو نفسه الى المعالى ويحب

الألقاب ويتنشق الوسامات ويفتن بحب المال . وهل ينال أبي شيئا يحرم
هو منه ؟ حسبنا ما نحن فيه . هذه نعمة من الله لا نستطيع أن نوفيها عليها
شكرا . فلا نريد أكثر منها ولا أحسن منها .

قلت — يخيل لي أن أبا الهدي شديد الوطأة عليكم وأنه لا يألو في
نكايتكم جهدا . ولكن هل تعلم لذلك سببا . فليس من العقل في شيء أن
يناولكم طلبا للمناواة .

— السبب حسد أبي الهدي لأبي . يرى السلطان مقبلا علينا برضائه واضمأ
آلنا تحت حمايته . غير مانع عنا خيرا . فيسؤوه ذلك . وهو يريد أن لا يجب
السلطان غيره وأن لا يقبل بدولته على سواه . وكثيرا ما وشى بأبي ودس
له الشر ولكن نجانا الله من كيده . وكم قال له السلطان أنا وائق بوالشيخ
محمد ظافره معتمد على صدق ولائه فلا تخاطبني في أمره بما لا أحب . غير
أن عادة الشر تغلب عليه فيسبق لسانه خاطره وينال منا ومن أعراضنا
ويرمينا بكل تقيصة . وله رجال يدخلون بيتنا يطأون بساطنا ويضربون من
طعامنا ثم يذهبون اليه بأحاديث ملفقة يستزيدها هو من عنده ما شاء .
— وأنتم ألا تنازلونه كما ينازلكم ؟ أبوك له من الدالة على السلطان ما
يمنع بها حماه ويكيل لعدوه مكيالا بصاع .

— لما كان المرحوم السيد جمال الدين والمرحوم عبد الله النديم على قيد
الحياة . كانا يفيضان به حتى تتبادر شؤونه من عينيه . ولقد أطلنا سهادهم وضاعفنا
همه . فما كنت تسمع له إلا صخباً وعويلا متواصلا وشكايات أثر شكايات يطرق
بها باب السلطان . ولما أُلِفَ فيه المرحوم النديم كتابه الذي سماه (المسام

نست له قيامته وجميل يهدير كما يهدير الفحل اذا هاج . ولو مد الله في أيامها
لما جللاه بما يلقي به حنقه ولكن لكل أجل كتاب . وكان السيد جمال الدين
اذا ذكره في مجلس السلطان لم يسمه الا أبا الضلال . ولقد استشاط عبده
الله نديم غضبا ذات يوم وكان دعى الى قصر السلطان وسئل هنالك أن
يكف عن هجاء أبي الهدي والساطان مطا عليه من كوة يسمعه ويراه .
فصاح النديم بأعلا صوته قائلاً : لقد قلد مولانا السلطان أبا الضلال وسام
الافتخار . فلا لبسناه أنا وسام العار يلازمه في حياته ويصحبه الى قبره بعد
مماته . فتخاف من بالتقصير من وعيد النديم وأخذوا يتلطفون في اسكاته ولم
يستطيعوا ذلك الا بعد جهد أضعناهم .

﴿ عزت العابد ﴾

قال لى مصطفى ظافر يوما :

هل لك فى زيارة عزت بك العابد ؟ (لم ينل اذذاك وتبة الوزاة) فقد
رأيتة يشنى عليك أجمل الثناء . وقال لى انه يحب أن يعرفك ذاتا كما عرفك
اسما .

قلت — هذه فرصة لا تضيع . وما بى غنى عن معرفة أولئك الذين
أحاطوا بسلطان العثمانيين وأضعوا أسورا بينه وبين رعيته .

قال اذن فانهض معى لنزوره . فخرجنا . فلما انتهينا الى يلديز ولجنا
الباب الكبير الذى يدخل منه الى القصر . وأخذ يسير بى الى أن
انتهينا الى دائرة عزت . فاذا هو رجل ربعة القامة نحيف الجسم أسود اللحية

باسم الوجه . فتلقى مصطفى ظافر بالترحاب وتقدمت نحوه فسماني له صاحبي .
فصافحني وأجلسني بمقربة منه . ثم أراد أن يتمثل بيوت من الشعر فلم يحضره
وجعل لسانه يتلجلج ولا ينطق به . فاختار ترك الانشاد ورضى بالحديث .
قال - قضى مرضى أن لا يهنا لي عيش بأنس ولا بشيء من نعم الحياة .
وقد أمر مولانا السلطان أن تخصص لي باخرة صغيرة أتزده عليها في الخليج .
فإذا جاء ميعاد الزهرة أرسل أعزه الله يخبرني باليهاد . فأنهض الى باخرتي
وأرود بها البوسفور ثم أعود فأدخل الى حضرة . فأتملي بتقبيل أذنيه
وأنصرف بعد ذلك الى بيتي . غير أن تزهقي هذه لا تسرني كثيراً . فقد أخل
بالبخرة وحيداً لا أجد من أحاده . فرأيت أن أخطب بعض الأحبة أن
يزوروني ساعة خروجي لأستصحبهم معي وأخلص من ملل الوحدة . وقد
خرجت الآن مع عبد الجليل أفندي فأنشرح فؤادي وطابت نفسي . ويا
ليتكما تذهبان معي يوما . هنالك ما يفجر ينابيع الشعر في فؤاد ولي الدين .
قال مصطفى ظافر - ان ولي الدين لا يحب أن يبرح منزله الا مكرها . وإذا
تركت الأمر له فلا تنتظر زيارته الا نادراً . ولكنني سأحتال في استصحابه
يوماً لنشاركك في هذه الزهرة .

هكذا قضينا نحو ساعة في حديث لا فائدة فيه . والسبب في ذلك
أن مكاننا كان مكان خوف . وعلى عزت جواسيس وعلى غيره أيضاً جواسيس .
وأننا لم نشأ أن أبادئه بذكر شيء ، تجنباً لما عساه يأتي من جرأء كلامي ولكي
لا يحسب العابد أنني أذم أبا الهدى تحبباً اليه فيتهمني في قلبه بالنفاق وسوء
الأخلاق . غير أننا لما أردنا الخروج أمسك عزت بيدي وخاطب مصطفى

ظافر قائلاً: أرجو أن تأتي مساء يوم مع ولي الدين الى منزلي لتعشني معاً .
فضمن صاحبي له ذلك . وفي مساء يوم من الايام زارني مصطفى ظافر ومعه
ورقة من العابد يدعوهم بها الى العشاء ويرجوه أن لا يألو جهداً في أخذني
معه فذهبنا . فاذا بيت مدخله مفروش بالرخام الملون . فاخر الأثاث حسن
الترتيب . فسار بي رفيقي حتى ولجنا حجرة واسعة ليس بها أحد والى يسار
الداخل حجرة أخرى سمعنا بها أصوات اناس يتكلمون . فخرج منها
رجل واذا هو عزت . فاقمت عينه علينا الا بادر نحوي آخذاً يميني
ثم قال :

— تمال أقاسمك مارزقنا الله . هذا جمل للشمراء . أما رفيقك فهو
تقي وابن تقي . دعه وحده في مراقبته . فتبسمت وانشدت قول
الصفى الحلبي :

يرنون بالاً لحاظ شزرا كلما صبغت أشعتها أ كف سقائها
فأخذ عزت بيدي ودخل بي الى الغرفة التي سمعنا منها حديثه مع
أصحابه . فاذا رجلان أحدهما عبد الجليل افندي أحد الموظفين بإدارة الريجي
والثاني لا أعرفه : وفي أحد أركان المكان مائدة عليها مالد وطاب من العرق
الشامي وأنواع الأطعمة (المزة) فناولنا عزت كأساً وقال لي : قل فيها
شعرا ثم اشربها .

قلت — لم أستصعب معي شيطاني ولا أدري ان كان يهتدي الى
موضعي فيأتي بي أم يدعني الليلة أخرس لا أنطق بشيء . ومجمل القصة أننا
أصبنا راحنا وثلثنا طعامنا ثم خرجنا الى الحجرة التي دخلناها أولاً . فأخرج

عزت من (جيبه) ورقة بها قصيدة (أظنها للفاضل النبهاني) فأشار اليها أن تصتوا
وراح ينشدها علينا . فسمعت شعراً غير جيد ولكنه أثر السكوت ولم أعب
منه شيئاً . فقال عزت :

— هذا رجل من رجال أبي الهدي . ولكنه صلى بناؤه . فاجأ الى ركني
وأنا حميته إنكايه بأبي الضلال . آه ماذا أقول لكم أيها الإخوان . أقالني الله من
خدمتك يا سلطان يا عبد الحميد . وأذهب الله عني كل عز نلت على يدك . قولوا بالله
آمين . فقال الحاضرون :

— حاش لله أن نجيبك الى طلبك . هذا دعاء لن يتقبله منك الله . وك
عند مولانا السلطان مثلك من صادق يحبه ويفتديه بحياته .

قال — هذا الذي سيجلب على البلاء . أنا والله أحبه وأهابه وأعلم أن
محبي له مهلكتي . ثم أية لذة أجدها في حياة كلها خوف ونصب . الناس اذا
أمسوا رجعوا الى بيوتهم . فماشوا بين أهلهم وأحبائهم . وأنا كالضيف في
بيتي . لقد أنزع عني ثيابي وأذهب الى فراشي فلا أمهل أن تأخذني سنة من
نوم الا والرسل تتبع الرسل يتعجلون ذهابي معهم الى القصر . فأذهب وأنفي
راغم . وكثيرا ما يكون استدعائي لأمر غير ذي بال أو ليسألني سؤالا لا يفيد
شيئاً . فأظل هنالك ساعات طويلة . وحين أتم بالعودة الى داري أجد الليل
وقد نزع جلبابه ونصل اهابه فأبقي بالقصر ولا أعود الى مساء اليوم الثاني .
والناس يحسبون عزت العابد رافلا في حلل السعادة بالغسا من العز منتهاه .
تعالوا انظروا وحدته في حجرته وكيف تجري مدامعه ثم احسدوه
إذا شئتم .

قلت — ياسيدي هـ هذه حالك من دون المقربين أم كلهم كذلك
مذبذبون ؟

قال — الشكاية على قدر الأعباء . أما المصيبة فتوزعة بيننا على السواء .
أنت تخرج من هنا وتذهب الى بيتك فتجلس الى أهلك أو صحبتك وإذا
شئت خرجت الى معاهد اللهو وصنعت كل ما تشتهي نفسك . لا يمارضك
في ذلك معارض . فن من رجال القصر يتقدر ان يذهب حيث تذهب ومن
منهم يجد متسعاً في وقته ليأنس الى أهله أو من يحبهم ولو كان مرة واحدة في
الأسبوع ، هذا ما لا يحلم به أحد منا . ولولا مرضي لما وجدت الى هذه
الراحة سبيلاً . وقد أزف الوقت وبلغ السهر مداه . فاستأذنا من مضيفنا في
الذهاب وسلمنا عليه وخرجنا . ثم ودعت مصطفى ظافر ورجعت الى بيتي .
فلما خلوت الى حجرتي أشعلت سيجارتي وجلست أدخن بها وأتفكر فيما رأيت
عيناى وسمعت أذناى .

فقلت : ويل لهذا السلطان . يقيم خاصته على أبوابه كرها لارضاء . ولو
أمنوا غدره لولوا من قصره طالعين بنجاتهم : هذا عزت العابد . أهل الآستانه
وسائر أهل الأقطار العثمانية يحسبونه في نعمة ليس وراءها مطعم . كل يتمنى
لو نال أقل ما نال هو من عز باهر وسلطان قوى . وها هو الساعة أمامي
تكاد عبرته تسبق كلامه . غير أن ما أشكل على فهمه ولم أجده اذ ذاك
جوابا شافيا . هو المعرفة بحقيقة عزت . أهو خائن كما يزعم الناس أم غير
خائن . فان كان ما يزعمون صدقا فما هو الدليل على صدقه وان كان كذبا فما
هو الدليل على كذبه ؟ كلا القولين بلا مرجح يرجحه . أما ما رأينا من

شكايته المرة فلا يستد به . وربما اشتكى خوفا من عواقب خيائته وانكشاف أمره للناس وربما اشتكى أيضا ثقة من مشاركة عبد الحميد في آثامه وحياء من أن يكون من أبناء أمة ويعمل مع عدوها على قتلها . نعم قال انه يحب عبد الحميد . وحاشية الرجل الظالم لا يستطيعون أن يقولوا غير ذلك . فهم يعرفون غضبه ويحذرون نقمته . ولقد قال أيضا ان حبه لعبد الحميد مهلكه يوما وهذا منتهى ما يقدر أن يقوله قائل في مثل موضعه . فتمت وأنا أمني النفس باستعجال تلك الغوامض يوما وان أبت الا امتناعا .

الى هنا أكتفى بهذا القدر من الكلام على ظافر وعزت وسأرجع الحديث الى ذكرهما لاتصاله بذكر غيرها .

✽ شرح جديد ✽

لما أتم شقيقي يوسف حمدي يكن بعض أعماله التي جشمته السفر الى مصر وفرغ من طبع رسالتي المسماة (الخافي والبادي) عاد الى الآستانة فأقام معي نحو العام أو أكثر ثم أراد السفر الى مصر زاعما أن طول مقامه بالآستانة أكسب فكره الجول وأنه يريد أن يتنسم نسائم الحرية التي درج من عشا وعاش في ديارها . وانما أراد أن يصدر بمصر جريدة ينشر فيها مآراة بالآستانة من آثار الظلم وطلائع الدمار . تبينت ذلك في حديثه وان كان بالغ في كتماننا منه أني ربما منته عن اتمام بعيته . فسررت وأظهرت التغابي وتمثلت بقول القائل :

إذا مقدم منا ذرا حذ نابہ تخمط منا ناب آخر مقدم
وقلت في نفسي ليس من العدل أن أقضى على هذا الشاب بما قضيت

به على نفسه . فليقن الوطن غناؤه وليجاهد ما استطاع الى الجهاد سبيلا . ثم زودته عناقا وقلت سر يكلاؤك الله فان أثنى منك ما يهلى ذكرك والا فهذا فراق بيني وبينك . فوصل أخى الى مصر وأصدر بها جريدته التى سماها (الانذار) وارسل الى نسخة منها فى مظهر وف على يد رجل أجنبى يعلم مودته لى . فلما نظرت فى الجريدة وتأملت ما يخاطب فيها عبد الحميد من الكلام أوجست فى نفسى خيفة وقلت : هذا باب من أبواب الشر أنا فتحتة على نفسى . ولقد سبق السيف العذل وما بقى الا النظر فى جواب سديد أُلجم به أفواه من يسألوننى غداً . ثم زارنى فى ظهر القد مصطفى ظافر وأخذنى معه الى تكيتهم . فقال لى ونحن فى الطريق :

- دعانى باشكاتب السلطان أمس الى القصر . فلما دخلت عليه وجدت بين يديه نسختين من جريدة اسمها (الانذار) فهد الى نسخة منهما وهو يقول : - أنظر هذه الوريقة التى أصدرها أخو صاحبك واعجب لجرأة ولى الدين كيف يعمش بأثم السلطان ثم يرسل أخاه الى مصر ليعتدى على مصدر نعمته . قال مصطفى ظافر :

- فلما أخذت الجريدة ورأيت عليها اسم شقيقك دهشت حتى لم أدر ما أقول . ولكننى تغلبت على ما عرانى من الدهش وقلت :

- يا مولاي ان ولى الدين من أسرة كريمة . وهو رجل عاقل لا يقدم على مثل هذه الأمور . وأخوه شاب صغير السن . ومصر الآن مزدهجة بالهاربين من عدل مولانا السلطان . فلا شك أن بعضهم أغواه واستهواه فتجاسر على عمله هذا وهو لا يعلم مبلغ جرمه . وما يضر قدر الخليفة فى عليائه

أن يجهر عليه بعض الظلمان ويحملوا أنفسهم بمنزلة من يعرفون حقائق الأشياء .
حسبه أن كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها يشدو بثنائه وأن المنابر في
جوامع المسلمين تميل طربا عند ذكر اسمه وإذا اشتتم كلمت ولي الدين في هذا
الأمر ومحضت له النصيح . وما أخاله إلا غاضبا إذا اتصل به هذا الخبر . أما أنت
يا ولي الدين فينبغي عليك أن تكتب لأخيك كتابا يكون رادعا له عن غيه .
فلا يهرك حلم السلطان . فانه والله إذا غضب لم يبال شيئا . وأخوك في شبابه
لا يدرك هذه الأمور . فانظر ما أنت فاعل . أما أنا فقد وعدت الباشكاتب
أن أعود إليه بجواب منك فيه مقنع وسأقول له كلاما يخفف غضبته
ويرثك لديه .

قلت - جزاك الله عنى خيرا . أما جريدة أخى فلا أعلم بها إلا الساعة .
ولأ كذبك انى أسفت لما فرط منه أشد الأسف . ولكن حيلتى في الأمر قليلة .
وفي غم ذلك اليوم جاءنى رسول من عند فائق بك ابن المرحوم لطفى أغا وكلاهما
من قرناء السلطان (جمع قرين يراد به التديم الخاص) فلما أدخل بى إليه
قال لى :

- بلغ ولى النعم أن لك أخا اسمه يوسف حمدي يكن وأنه ذهب الى
مصر وأصدر بها جريدة اسمها (الانذار) ينتصر بها لأعداء الدولة وخائنى
الوطن الذين يقيمون بمصر ويسمون أنفسهم (الرؤن ترك) . ومولانا يأمرك
أن تكتب الى أخيك تسأله عما يريد من وظيفة أو مال على أن يكون ما يريد
غير متعدد حد الممكنات وأن يرجع عن معاداة السلطان . وهذه فرصه لا تسنح
لكل الناس . فاكذب الى أخيك بذلك وقل له يرسل جوابه الى باللغة التركية

فوعده بأجاز ما أراد ورجعت الى منزلي فقلت في نفسي : الشباب لسكرة
تطول سنين عديدة . وربما أكتب ما يريدون فيصادف من شقيقي ضعفاً
في نفسه فيرضى فيحل به وبى ماخاف . واذا كتبت له كتاباً آخر أحذره من
كتابي الأول فلا آمن أن يقع في يده من لا يقرب ذمة ولا يخشى له اعتباراً ويحل
بنا يومئذ البلاء المميم . ومن لي بطريق في غفلة من أعين الواشين والرقباء .
فلم أجد بعد كل تأمل وتدبر مخلصاً سوى الاذعان فكتبت الى شقيقي كتاباً
باللغة التركية أدعوه الى ترك الجدل والمودة الى الاستانة وأبشره بذيل ما يريد
وجعلت كتابي في مظروف أخذته معي مفتوحاً وأسلمته الى فائق فأرسله من
القصر السلطاني الى دار البريد .

وفي ذات يوم جاءني صديقي الكاتب التركي الفاضل (س.ت) بك . وقد
كان يحرق القسم التركي في بعض جرائد الاستانة . ثم عين بالخزينة الخاصة
السلطانية . فأخذ يلتمس العبارات ليؤدي بنا الحديث الى سفره أخيراً . فلما
أعياه الطالب ورأى كثرة المقدمات تضل عن الصدد اقتضب الكلام
اقتضاباً فقال :

- أنا أعرف أنك لا تحب من أخيك أن يكتب شيئاً فيه ذم للسلطان .
ولا يمكن أن يسافر أخوك من نفسه طلباً لا صدار جريدة في هذه السبيل .
ولا بد أن يكون أرسله قوم ممن لهم بمصر مقاصد يطاردونها وهذا لا يفعله
الا آل ظافر . فان قلت ان الشيخ الكبير لا يعنيه من أمر الجرائد شيء ، وأنه
بخيل لا يجود بالدرهم ولو كان فيه طول عمره . قلت لك نعم ولكن ابنه مصطفى
ليس كذلك . فهو أبو المشا كل وكل ما يلاقه أبوه هو منشأؤه . ولو سلك

مصطفى طريق أبيه وترك عداوات الرجال وأغضى عما يبادءه به أعداؤه لا تقبلوا
له أصدقاء . والآ ن وقع ما وقع وقضى الأمر . فان كنتموكم ما بروه بالأمس
فما أحسبهم يكتموا لك اليوم وهم يعرفون منك فرط الحياء والتمسك بالود . ولئن
فعلوا فأنت قادر على استيضاح ما تريد بأن تتوعدهم . فاذا فعلت ذلك لم يجدوا
بدا من بيان ما أغمض عليك .

قلت - يا فلان هذا كلام حسن الاتساق ولكن الفائدة منه منعدمة . فاذا
تريد أن تقول ؟ قل وأوجز ودع هذه الخطبة الى وقت آخر .
قال - ما أراني خاطباً . ومجمل الأمر أنى موجه اليك من أحد المقربين
ولا أستطع أن أذكر لك اسمه جرياً على ما اتفقا عليه . وهو يريد أن يعلم الآل
ظافر شأن في سفر أخيك أم لغيرهم .

قلت - يا فلان أراك رضيت لنفسك صناعة كنا نذمها معاً . فان كنت
بدلت برأيك السابق غيره فاني لا أزال على قديمي . ولا أسديك نصيحاً في الرجوع
الى سابقك . فذلك له أول وليس له آخر . ومن أوقعه سوء الحظ في مجاهله
ضاقت عليه المسالك ولم يجد الى الهداية مهيماً . اذهب الى من زودك رأييه وأعارك
لسانه فقل له اني أخو يوسف حمدي يكن . ولكنني لا أعرف من فؤاده الا
ما يبديه لي . أما آل ظافر فقد كان مصطفى معي . وهو أول من جاءني معاتباً
وهو أول من طلب الى استرجاع أخى . فخرج صاحبي يجرر فضول أذبال
الخزى وكان ذلك آخر عهدى به .

والى هنا نقد الصبر . فرأيت أن لا أصبر على الضيم الطويل . فأقت أتدبر
فيما يفتح لي أبواب النجاة لأخرج من هذا الوطن . لعل أجد في البلاد الحرة

من يسمع رثائي حين أرثيه . وما كابدة من آلام الاستبداد يكفر عن سيئاتي
في العودة الى حيث دفن الحق وقامت مناحات الشهداء . فجبرت هذه الأبيات
على لسانى ونقها قلبي . فجعلت أرودها طول ليلتي . واني لذا كرها في هذا
الفصل عسى يكون في القراء من يحب كلام الشعراء حين تحترق قلوبهم
وتمازج دخانها حسراتهم . قلت :

ألا مرشد لي بعد ما ضل من عقلي	أأندب أم لا يحسن الندب من مثلي
تندمت لا أني تورطت ذلة	ولكن لأنني ماريت على الذل
يعاتبني قلبي على ما فعلته	فأسكت علما بالذي كان من فعلي
وأحمل أعبائي على السخط والرضا	لعل بعد اليوم أرتاح من حملي
ولو أحد قبلي بشقوته ارتضى	رضيت ولكن ما ارتضى أحد قبلي
فياجد آبائي أبني أقالة	تنقلت في عهدي من الصون للبذل

يهددني بالقتل من ليس فاعلا	ويا ليت يوما يمكن من قتلي
فأجتاز دهرًا خيره مثل شره	وأخلص لأبكي لهجر ولا وصل

عذولي لا يرتاح يوماً من العذل	وما بي من جهل فأعذل في الجهل
رأى رجلاً لم ينتزع ثوب جده	فقال ألاقه بشيء من الهزل
دنوا دنوا يا معاني فاني	سأمل بك الشكوى على الدهر ما أمل
يرى معشر فضلي فيرجونني به	وهيات لا تقصى يفيد ولا فضلي

يخافني لحظ الجبيل فأثني
وقد كنت عن شغل الهوى متفرغا
وعاد لي الليل الذي كنت ساهرا
أحب الحسان البيض وهي تحبني
يصيب إذا ترمى فؤادي نبلاها
وما أنا بالمظلوم منها وانما
لقد كنت أنهي النفس لولا اعتلاقها
وتلك لعمري للأكارم سبة

كل ياليلي همتي لسكونها
سمت تكاليف المعالي ولا أرى
بلي وزدهتني كبرة عن طلابها
ولم يرض نبلي أن أرى متنبلا
رمي الله في عيني زمانى بالقذى
وثابني منه الخطوب كمحشر
أراني اما ناحيا قصده شرة
لقد أكلتني الحادثات ولم يكن

وما مسلم للموت بين عداته
غريب له أهل يرجون أوبه
يقاد له قود الجنينة بالجبيل
كآب من نأى سواه الى الأهل

توافقوا به للنار أذكوا ضرامها وأوفوا لها بالرضف والخطب الجزل
 بأعظم منى لوعة بمهاشر هم أوقروا منى وهم قيدوا رجلى
 مضى كل شيء كان للنفس سلوة وهذى البقايا لا تعزى ولا تسلى
 أعينك يا أرض الأسود أن يرى بك الماء غوراً غير رى ولا ضحل
 وأنت تنبتى ما ليس تبجى ثماره وأن تنفثاك السحاب بلا وبلا
 وعرفت حينئذ أن مقامى فى أرض مسبعة . فما راعنى الا شيطان من
 أبى الهدى يحرق على البلاد ويأبى أن يرانى ضارباً بين أضوايحها وأجزاءها .
 واقفانى مصطفى ظافر ليلاً . فرأيت الفرع بادياً على وجهه . فقلت :
 - ما وراءك ؟

قال - قامت القيامة علينا وعليك . أبو الهدى أوعز الى أحد الجواسيس
 واسمه (ضيا) فوشى الى السلطان بأن بالآستانة جمعية خفية تعمل على الفتك
 به والا لتصار لأعدائه . وأن رئيس هذه الجمعية هو المشير فؤاد باشا وأنى
 ورضا بك (هو الآن رضا باشا نزيل مصر) والشيخ أسعد شقير إمام أغا
 دار السعادة (هو الآن نائب انطاكية بمجلس المبعوثان) ومحمود افندى نديم
 (آخر وظيفة له هى متصرفية قره حصار التابعة لولاية سيواس) أعضاء
 هذه الجمعية وأنت قلم الجمعية . تنشر بجرائد مصر ما نحن نتفق عليه
 ثم تأتى هذه الجرائد باسمك الى ادارة البريد الفرنسى فتوزعها علينا وعلى
 من يقول برأينا . وقد أخبر الجاسوس أن بادارة البريد طرداً من الجرائد
 جاء باسمك من مصر . فأنفذ السلطان أحد رجاله ليأخذ له ذلك الطرد
 فابى البريد أن يسلمه اياه . هنالك كلوا سفير فرانسالموسيو فونستاتان .

فأمر البريد أن يسلم الطرد وأن يسلم أيضاً كل طرد ترتاب فيه حكومة السلطان . وقال : نحن لا نريد أن يكون بريدنا واسطة في دخول الدسائس الى البلاد العثمانية . ولما نظروا الطرد وجدوه مكتوباً باسمك . فظهر صدق الجاسوس . واليوم أخذوا الشيخ أسعد شقير الى نظارة الضبطية وتولى الناظر وقدرى بك رئيس الجواسيس استنطاقه . وقد بادر محمود نديم الى (يلديز) وأخبر عبد الغنى (أغا دار السمادة) وعبد الغنى بادر الى السلطان شا كيا با كيا وقال ان أعدائي يريدون احتقاري وقد أخذوا امامي وربما لحقه السوء ظلماً وعدواناً . فصدرت ارادة السلطان باستدعاء الجميع الى (يلديز) والاستمرار على التحقيق هنالك :

وقد كان أبو النصر يحيى السلاوى عندنا في يومنا هذا . فأخبرنا أن شقيق باشا ناظر الضبطية وقدرى بك رئيس الجواسيس دعياه الى النظارة وسألاه عما يعلم عنك . فقال لهم : انه يعرفك كما يعرفك سائر رفاقك الذين معك بنظارة المعارف . فقال له قدرى بك :

- وهل يكتب ولى الدين فصولاً في ذم السلطان ويبحث بها الى جرائد الأحرار بمصر ؟

فقال السلاوى - لا علم لى بذلك . واذا كان ولى الدين يكتب فصولاً كما ذكرت أفلا يخاف على نفسه العقاب حتى يطلع الناس عليها؟ وهل علمتم عليه شيئاً من هذا القبيل ؟

قال قدرى بك - كلا . وانما نسألك لتعرف ذلك منك . فأما وقد ذكرت أنك لا تعرف شيئاً من أسرارهم فلا حاجة الى زيادة الأسئلة . ونحن

نوصيك أن لا تخبر ولى الدين بشيء مما جرى لك معنا . فأجابهم السلوى الى طلبتهم وانصرف .

قلت لمصطفى ظافر - ومن ضيا هذا الذى تذكره وأين هو الآن !
قال - هو رجل أظنه من ازمير . وهو الآن فى (يلدز) لا يريدون أن يطلقوا سراحه حتى يتم التحقيق ويظهر صدقه من كذبه . وقد بادرت اليك مخبراً بما وقع فكن على حذر .

قلت - وما ينفع حذرى الآن . وهل تحسب القوم يفعلون عنا بعد أن بلغهم عنا ما بلغهم . وما لى من حيلة سوى انتظار ما ستجرى به الأقدار . ثم مضى على هذه الواقعة نحو الأسبوع . فأتصل بى بعد ذلك أن الذين تولوا تحقيق القضية قالوا للجاسوس :

- من أين عرفت أن ولى الدين اتفق مع من سميتهم على أن يكتب الى الجرائد فى ذم السلطان ومن أين لك أن هذه الجرائد ستأثيه أو هى آتية وأنها محفوظة بإدارة البريد الفرنسى ؟

قال - كنت ذهبت الى الباب العالى . فرأيت الشيخ أسعد شقير ومحمود نديم وولى الدين خارجين من شورى الدولة . وكانوا عند مصطفى ظافر . فجعلت أمشى خلفهم وأستمع ما يقولون . فوعيت كلامهم كله ولم أضع منه حرفاً واحداً .

قالوا له - صف لنا ولى الدين .

قال - هو رجل عظيم الجثة . له لحية شقراء وعينان زرقاوان . فلم يمهله الى أن يتم كلامه . وهناك هدده أحد رجال القصر بالويل والثبور اذا لم

يعترف بالحقيقة . وتركوه وحده في سجنه لئلا يتمكن فيما هو صائر اليه . فباله الأصر وأحس بالشر وأيقن أن لا خلاص له مما وقع فيه . فطلب أن يعيده الى المحققين . فلما مثل بين يديهم قال :

— ان أبا الهدي عرض على كتابة تقرير رأيهم به من عرفتم أسماءهم وأعطاني ثلاث ورقات من أوراق البنك العثماني قيمة كل واحدة منها خمسة جنيهات وكل الذي سمعتم مني لقننيه أبو الهدي . وأنا رجل فقير ولي حاجة شديدة الى أقل من هذا المال . فقبلتني الحاجة فأنجزت ما أريد . فلما سمع المحققون كلام الرجل ورأوا أوراق البنك بأعينهم . أبلغوا السلطان ما وقع . فأمر بكتمان الأمر . كل هذا جرى ولم أعلم به الا بعد أن جرى .

ولما علم فؤاد باشا بالواقعة قصد الى (يلديز) وبينما هو يريد الصعود الى عند الباشكا تب التقي بأبي الهدي في طريقه . فتقدم نحوه وبادره بالشتم وكاد يرمي به تحت أقدامه لولا تضرعه وبكاؤه . فأمسك عنه فؤاد باشا وقال له : أنا بمنزل عن هذا القصر وعن مطامعه وليس لي وإياك شأن . فإذا أنت لم ترعو وحدتكم نفسك بالعودة الى مثل فعلتكم هذه رميتكم على الأرض ووطأت رأسك باقدامي . فقارقه أبو الهدي وهو لا يصدق بالنجاة فداني مرة رجل من معارفنا على ما يستوقف دون نادات أبي الضلال وكان من رأيه أن ننشىء بجنيف جريدة تنشر بالتركية والعربية والفرنسوية نذكر بها مثالب هذا العدو الغاشم ونبين مخازيه ليحذره السلطان بعد ذلك أو ليضطر الى حذره تنضلا منه أمام رعيته فكلمنا في ذلك رضا باشا وأسعد افندي شقير . غير أن رأي أسعد افندي كان موافقا لرأي في جعل الجريدة

جريدة حرة محضة . وقد صدق اذ كنا أقدر الناس على معرفة ما يقع ببلدنا
ولو شئنا لنشرنا نص كل ارادة سلطانية من قبل أن تبلغ الى الباب العالي .
ولكن مصطفى ظافر خاف على نفسه وأبيه غضب السلطان . وقال : اذا ظهر
أمرنا يوما فاذا يصيبنا ؟ أما أنتم فتسجنون أو تنفون ولكنني أنفي وأسجن
وأزيد عليكم بأن يحل بأبي في كبره وباخوتي من بعده ما يبدد شملنا ويفني حتى
أعقابنا . فلما رأينا هذا الخلاف عدلنا عن الأمر . وكان (ح ح) يريد السفر
الى مصر . فقال لمصطفى ظافر انه سيتفق مع صاحب المؤيد على إصدار
جريدة أسبوعية تكون لسان حالنا . ولما وصل مصر أتت كتيبه وليس فيها شيء
سوى الشناء على بدائع مصر وعلى صاحب المؤيد حامى مصر والمصريين !!
﴿ بعض مامرّ على بنظارة المعارف ﴾

« عاد الحديث »

ليت هذه البلايا التي ناهمتني خارج وظيفتي هادتني وأنا فيها . فأتسلى
بما صفا من شطر الحياة عما كدر من شطرها الآخر . فمن يلاء اذن هذه الصحائف
بهذه المخازي ؟ وماذا كان يتسنى لى من الشكاية لو تساوى الطيب والردى ، في
تناوبهما . هيهات ؟ ذلك زمان عبد الحميد الثاني . يظل الكاتبون يكتبون فتنفد
المعاني وتمتنع الألفاظ ولا يحصى لتلك المساوى ، عد ولا يمكن لقليلها شرح .
لما مرّ على بعض الشهور بعد تقلى الى نظارة المعارف ووقفت على ما تيسر
لى من أعمال المجلس الأعلى أخذت أعترض على ما اراه مخالفاً وأرشد الى
ما أحسبه موافقاً . فساء ذلك رفاقي وجعلوا يؤاخذونى على ما أجرى عليه من هذا
المنهاج . وأبغضنى زهدى باشا ناظر المعارف وغضب على أنصاره وشركاؤه فى النهج

فأتفد الى علي غالب بك مدير الأوراق حاجبه يدعوني الى حجرته . وكان
واسع أفندي أحد الأعضاء الذين سبق ذكرهم في أحد الفصول المتقدمة جالسا
الى جانبي . فالتفت وسألته من هو غالب بك الذي يدعوني الى حجرته .
فقال لي :

- هو مدير الأوراق بنظارة المعارف وهو الباني الأصل شرس الطباع
لا يخاف أحداً ولا يكرم أحداً . فأرجع اليه حاجبه بكلام لين لا يهيج له غضباً .
فقد ضرب يوماً أحد أعضاء مجلس الأنجمن (مجلس مراقبة الكتب والمؤلفات
الأخر) والمضروب رجل هرم اسمه طاهر أفندي . ضربه في حجرته .
بهذه النظارة . بمشهد من موظفي المعارف كلهم ولم يستطع أحد منهم أن
يمارضه . ثم ذهب طاهر أفندي باكياً معولاً ورفع شكواه الى السلطان فلم
يفنه ذلك فتبلاً وما سأل الضارب أحد . ولا أقول انه ربما ضربه بك ولكن
من يضمن لنا أنكما لن تتضاربا .

قلت - ان مدير الأوراق لا يقدر أن يأمر أحد أعضاء المجلس الأعلى .
ومن أجل هذا كنت أود أن لا أذهب اليه . ولكن لما كان الرجل ممن
يتوعدون ويضربون ولا يسألون عما يفعلون فقد وجب علي أن أبادر اليه
لأرى ما سيكون من أمره . ثم تبعت الحاجب الى حجرة علي غالب .
فدخلت عليه وهو جالس أمام مكتبته . يكاد يكون مضطجماً عليها وخلفه
سجادة على الحائط قد سمر عليها صولجان من الخشب وأشياء أخر لا أذكر
الساعة ما هي . فسلمت عليه . فأجابني علي سلامي قاعداً . فقلت :

- أخبرني الحاجب أنك تريد أن تكلمني . وها أنا بين يديك لأسمع

ما تقول .

- تفضل بالجلوس .

- الوقت لا يسمح اطالة الكلام . فقل ما بدالك ولا حاجة بي الى الجلوس .

- أراك كثير الاعتراض على قرارات المجلس . وأنت تفعل ذلك لتظهر للناس أنك رب معرفة وأنتك لا تخفى عليك خافية . ولكنك تخطئ في كثير من اعتراضاتك .

-- ان من حق أن أعترض وأن أوافق . وما جعلت في المجلس الا من أجل ذلك . أما الخطأ فلا أسأل عنه . والمراد أن يبدى كل رأيه وليس بين الناس من تكون آرائه كلها صوابا .

- نعم . ولكن الذين يكثرون من الاعتراض لا يفلحون . وأنا من المخلصين لسماحة الأثندي (يريد أبا الهدى) ولعطوفة البك (يريد عمي المرحوم فائق بك) وكان من أشد أصدقاء أبي الهدى) فرأيت أن أنصحك في الرجوع عن جهل الشباب . فاذا قبلت نصيحتي شكرتني عليها في مستقبل زمانك وان أبيت الاتماديا ندمت حين لا ينفع الندم .

- نحن الآن بنظارة المعارف ولسنا بتكية أبي الهدى ولا بمنزل عمي . وأنا لا أقبل رأى أحد في أعمالى . فان كان عندك رأى غير هذا فهاهنا .

- ألا تريد أن تقمع عن اللجاج ؟

- أريد أن تتوعدنى . اذن فاستمع : أنا رجل لا أبالى الوعيد وأعلم أنك من المسيطرين بهذه النظارة وكفى . فقد صبرت على كلامك طويلا

وكنت أريد أن لا أحضر اجابة لدعوتك لتعلم أن مدير الأوراق لا يصح له أن يدعو أحد أعضاء المجلس . ولكنني علمت أنك تتوعد الناس . فحضرت لأعلمك أنني لست ممن يخافون وعيدا . واذا لم تبادر الى الترضية طائها أكرهتك عليها اكرها . فبهت الرجل من هذا الكلام وما سمع مثله من قبل . فجعل يتأملني من رأسي الى قدمي . وكنت أكله وأضرب بيدي على مكتبته . ولما وصلت الى آخر كلامي ضربت على تلك المكتبة ضربة قوية قلبت دواته . ثم قلت له : انتم أناس لا تميزون بين الناس ويستوى عندهم طيب وخبيث . ولو اعترضكم ذو جأش رابط يكم أفواهكم ويخفض من شماكم لما تمديتم أطواركم ولوقفتم عند حد الأدب . فلما انتمت كلامي مشيت خطوات الى الباب غير مسلم فسبقني الى الباب وقال :

— ما كنت أحب أن تخرج من عندي غاضبا وانما حدا بي الى هذا الكلام مودتي لك واعجابي بك .

قلت — من أين لنا هذه المودة وأنا لم أرك الا الساعة وليس بيننا سابق معرفة فتستوجبها علينا . ثم انصرفت . وفي الغد جاء على غالب الى الحجرة التي يستريح بها الأعضاء اذا فرغوا من المذاكرة واعتذروا لي عما فرط منه بالأمس . غير أن الواقعة كانت باتفاق بينه وبين ناظر المعارف : فلما جرى مني ماجرى من الرد والاباء رأى الناظر أن يعاقبني عقابا يكون رادعا لغيري . فرأى أن يعيظني بتأخير صرف شهرتي . وقد فعل ولكنه خاب في ذلك أيضا . فلما أبصر الأعضاء ماجريت عليه شكروا اقدامي ودنا مني راسخا فندى . فقال لي اذا هممت بالخروج فانتظرنى حتى نخرج معا . ففعلت . فسارني الى حديقة بقرب

(آيا صوفيا) جلسنا بقهوة فيها فقال لي :

— رأيتك ذا جنان ثابت ونفس أبية . وقد أعجب الأعضاء بما جرى
لك مع علي غالب وناظر المعارف . ولكن هذا كله آخره المطب . نحن بالآستانة
وهنا رجال لا يخافون ألها ولا يرقبون ذمة . فمن ترجو أن يكون نصيرك اذا
تكاثر عليك الأعداء ووقمت بأيديهم ؟
— أرجو أن يكون نصيري الحق .

— هذا كلام حسن ولكنه لا ينفع . وما دعوتك هنا لأجنبك وأرجعك
عن اقدامك . بل دعوتك لا خالص لك النصيحة . فاني أكرمك سنكوا أكثر
منك تجربة . وما أثابت الأيام فودي الا بعد أن اتابنتي حوادثها بما يذهل
العقول . فيجب عليك أن تترك بحجة السلطان ودع كل امرئ مسواه تعش
آمنا ولا يكن لأحد اليك من سبيل . فاذا سمعت امرأ يفتاب السلطان
اكتب بذلك تقريرا وارفعه اليه . واذا جرى لك مثل الذي جرى بينك وبين
علي غالب بادر الى القصر واكتب بذلك الى السلطان . هذا سلاح لا يفل غربه
ولا تنبؤ مضاربه . وكلنا متسلحون به . فاذا رضيت بنصيحتي ثلث المرام وفزت
حيث يخيب منازعوك .

— أراك تدعوني الى أمر لم أخلق له . وأنا أحب الى أن يفوز علي خصومي
من أن أفوز عليهم بالتجسس . فان كان هذا مبلغ رأيك فهو رأي ابن
أتبعه واذا كنت أنت ممن يتجسسون فلن يتقارب قلبانا ولن نتحدث بيننا الفة
مادامت الحياة .

— أنا لا أدعوك الى التجسس بأن تتبع الناس في خطواتهم وتنصت

اليهم في أحاديثهم بل أَدعوك الى اخبار السلطان عن يأخذون رواتبهم بفضله
ثم يعملون على ما يضره . والمخلص لدولته لا يخفى عن سلطانة أمرا .

- هذه فلسفة لا يمكن التغلب عليها . كل رجالنا يقولون مثل ما تقول
وكا هم يتجسسون كما تتجسس أنت . أما أنا فلم أعود ذلك . وصحب على
الانسان ما لم يعود . وانى لأشكرك اذ عرفتني نفسك فقد كنت أحسبك
بمزل عن هذه المسالك . والآن كشف لى الغطاء باعتراك . ولما فرغت من
كلامي نهضت واقفا وحيته تحية المودع القالى . ولما رجعت الى بيتى وفكرت
فيما جرى لى بالمعارف . رأيت ترك الآسمانة والهجرة الى أوروبا أمرا
لا بد منه .

ثم سخر الله لى ما استوقفنى مضطرا . وذلك أن عبد الكريم بك أحد
أحفاد الصدر الأعظم الشهير المعروف بالصقولى بعث الى كتابا يقول فيه : ان
نظارة المعارف قررت بناء معهد جديد تسميه دار الأيتام وستنفق عليه أربعة آلاف
جنيه . وهو مبلغ كبير لو استبقته لغرض غير هذا كان أحسن . ولى أرض بالقرب
من أبى أيوب الانصارى بمكان يقال له (سودليجه) وهذه الأرض واسعة
جدا وفيها من حجارة البناء ما يكفى لما هو أعظم من دار الأيتام . وأنا أهب
هاته الأرض هدية منى الى المعارف لا أطلب عليها ثمنا ولا عوضا . ولا أريد
شكرا ولا اعلانا ولا شهرة . فأشرت عليه أن يكتب عريضة بذلك الى نظارة
المعارف . فكتب . وأخذت العريضة معى وقدمتها باسم صاحبها على الوجه
الرسمى وأتت أياما أنتظر ما سيكون من جواب ناظر المعارف . فلم يحجب بشىء .
وكان ينبغى عليه أن يبعث بهذه العريضة الى المجلس الأعلى لينظر فيها ويكتب

بعد ذلك خطاب شكر لصاحبها . وكنت أطلعت الأعضاء على العريضة قبل تقديمها الى الناظر . فاتفقت مع جماعة منهم في مخاطبة رئيس المجلس ولكنه تنصل عن تبعة المسألة وقال :

— نحن لا نعلم هذه العريضة رسمياً . ولا حق لنا في طلب ما لم يرسل إلينا . فكان كلامه موافقاً لنظام المعارف . وعلمنا أن زهدى باشا اتفق مع بعض الناس على ابتياع أرض بحجة اسمها (قزىل طوپراق) لتكون دار الأيتام قريبة من داره ويتمكن من تفتيشها متى أراد . واتصل بنا أنه سينفق ألفي ليرة ثمناً للأرض وأنه سيحفظ الباقي لنفسه . فجهلت أعيب خطة الناظر بمحض من الأعضاء وفيهم المخلصون له وأقول بصوت عال :

— ما هذا الاختلاس !! : إذا كان زهدى باشا الذي سرق من نظارة المالية مائتي ألف جنيه أيام كان ناظراً عليها نقل الى المعارف ليسرق منها دراهمها فنحن لا نشاركه لا في سرقة ولا في عارها . فنقل هذا الكلام الى الناظر . فزاد على حقدآ وبات لا يظيق ذكر اسمي بمجلسه . وقد انتصر له الأعضاء المخلصون . وشاء الله أن يفتضحوا فضيحة تكون عظة لغيرهم . وذلك أن عبد الرحمن بك ناظر المدرسة السلطانية كتب الى المعارف يبين لها أن قد ظهر عجز كبير في واردات المدرسة فباتت دون مصاريفها وأشار على النظارة بإلغاء القسم الثالث من درجات أجرة التعليم . فكتبت المضبطة بذلك وأرسلت الى المجلس للتصديق عليها . فالتزمت السكوت حتى وضع الأعضاء أختامهم ولم يبق أحد منهم مخالفاً . ثم أخذت المضبطة وكتبت على هامشها : أن نظام المدرسة السلطانية قبل بارادة سلطانية وليس للمجلس

أن يفسخ ارادة السلطان . فأخذ الأعضاء ينظر بعضهم الى بعض . فسألني الرئيس من أين لي ذلك . فقلت :

— ان نظام المدرسة السلطانية مطبوع . وقد وزعته النظارة على الأعضاء . فأخرج الرئيس من مكتبته نسخة ونظر في أولها فاذا مكتوب عليها هكذا :
(صدرت الارادة السنية السلطانية بقبول هذا النظام واتباعه في المدرسة السلطانية .) فكاد والله يسيل لعابه خجلا وحاول أكثر الأعضاء أن يمحوا أسماءهم بألسنتهم ولكن الحبر الزيتي لا ينصل له صبغ . فتركهم في حيرتهم وأشعلت سيجارتي وجلست أدخنها وأنظر اليهم .

وكان يقع بمجلس مراقبة الكتب (الانجمن) ما يقع بالمجلس الأعلى حتى حدث خلاف بين الرئيس حسيب افندي وبين بعض الأعضاء ومنهم الشاعر التركي الشهير صديقي حيرت افندي . ولكن تغلب الرئيس على الأعضاء واستقل بمخاتم المجلس رغما من المخالفين له وأيده زهدي باشا الناظر وكان حسيب افندي صنيعته . وقد آلى الرئيس لا يدخل المجلس أو يمزل حيرت افندي وأبو النصر يحيى السلاوي . ولقد نال ما أراد وثبت على كلامه فنقل السلاوي عضوا الى جمعية الرسومات وأنزلت درجة حيرت الى مفتش المكتبات . ولم يغن اعتراضها شيئا .

الحرب الموان

مازلت أنوى الخروج من الاستانة وأنا أشد الناس شغفها ولا يقدر
لى ذلك . ورأيت الحرب تهلكة على أهل بيتي . فاني حين أدعهم بالاستانة
لا أترك لهم ما يمشون به على حد الكفاية . ومالي بالاستانة من يعولهم من
آلى وعشيرتى . واذا أرسلت لهم مالا لم آمن عليه الضياع واذا أردت أن
أستصحبهم معى أحست بنا الحكومة وان تركتهم ليأخذوا بي بعد سفرى
مانعتهم الحكومة السفر . فمن نظايرى أن أستاذن فى السفر الى مصر لأقيم
بها شهراً وأعود بعد انقضائه . فكتبت ورقة بذلك ورفعتها الى ناظر المعارف
فلم يرض بقبولها وقال لى : أكتب الى السلطان فان أذن لك فلا تقوى على
مخالفته . فكتبت ورقة أخرى الى السلطان وذهبت بها الى دائرة الباشكاتب
تحسين الكائنة بيلديز . فقرأ الورقة ثم قال لى :

— ولم تريد السفر الى مصر ؟

— لى بها حقوق أريد أن أحفظها وقد أردت أن أجعل لى وكيلا ولكن
جاءنى الجواب بأن لا غنية لى عن سفرى .

— سأرفع ما كتبت الى أعتاب السلطان . فعندالى بعد ثلاثة أيام . فشكرته
سلفاً وانصرفت . فلما انقضى الميعاد غدوت عليه وأقمت فى انتظاره ساعات
طويلة . ثم قيل لى انه فى (الحضور) والحضور يريدون به هنالك أنه عند
السلطان . وسألهم متى يكون رجوعه فقالوا أنهم لا يعلمون . فخرجت على
غير هدى من أمرى . وفي الغد رجعت اليه ولبثت كذلك فى انتظاره كما وقع

لى بالأمر . ومكان الانتظار فيه أناس كثيرون لهم حوائج يريدون قضاءها .
فدعاني الحاجب جانبا وأخبرنى أن الباشكاتب يخصصنى بالسلام وأنه لم ينس
ما وعدنى به . وسألنى أن أعاوده بعد بضعة أيام فوافيته فضرب لى ميعادا آخر
ثم ضرب ميعادا آخر ثم ضرب ميعادا آخر . وأنا فى كل مرة أخسر دراهمى
وأضيع وقتى حتى عيل صبرى وتهدت حياتى ولم أدر ما أصنع . فوافيته يوما
وهو يهيا للدخول الى (الحضور) فسلمت عليه وقلت :

— سيدى اذا كانت حاجتى غير مقضية فلا تكلفنى التمس عبثا وان
كانت مقضية فتفضل على بما أمر به السلطان وأرحنى من هذا العناء وكثرة
الترداد . فقال :

— وما يمنع قضاء حاجتك ولم تتطلب محالا . ولكن غير خاف عليك
ما أنا فيه من وفرة العمل وتكاثر المشاغل . فاغد على غدا مبكرا بكور الطير
واذا لم تجدنى فانتظرنى الى أن أحضر . وآمل أن ترجع بعد ذلك وقد نلت
الاذن وقضى الأمر . فشكرته ثم شكرته ثم شكرته وخرجت وأنا أعلل النفس
بقرب الخلاص وأقول اذا خرجنا من الآستانة اخترت الإقامة فى اوروبا .
هنالك أجاهد فى سبيل الوطن آمنا نكيات الأعداء ولا أدخل مصر الا زيارة
كلما اشتقت اليها . فان بمصر من يحارب الأحرار . وقد ملك عليهم البر فى فجاجة
وسد عليهم مسالك الحياة . فبت باهناء ليلة . على أنى لم أذق غمضا ولم يستطب
الرقاد لى جنب من فرط ما داخلى من الفرح . فلما تنفس الصبح بادرت الى
القصر وأنا أستعج سائق العربى وأقول له ما أبطأ عربتك سيرا . حتى اذا وافينا
الى باب يلديز وثبت الى الأرض وانطلقت عدو الى دائرة الباشكاتب . فرأيت

بعض الخدم يجمعون قطع الشمع التي بقيت من الليل ويدخلونها في جيوبهم
وآخرون يمدون سيجارات وجدوها . كانت سقطت من الوافدين على القصر .
وغير هؤلاء يكنسون المكان ويصلحون من شأنه . فأتخذتلى كرسيًا بمكان
خال وأردت أن أدخن سيجارة لي فلم أجد معي سيجار . قلت وهذه إحدى
المظالم . ألم يكفني أنى خرجت من قبل أن أفطر حتى أجلس هنا بلا تبغ .
ان هذا لخطب عظيم . وقد طال على الوقت واشتد بي الضجر . فقال لي
الخدم انه لا يليق بي أن أجلس على كرسي بهذا المكان الممد للأصاغر : :
وأدخلوني الى حجرة الانتظار للأكابر ١١١ فلبثت بهاساعات وأخذتتوافدعليها
أهل المصالح حتى غصت بهم .

وبينا أنا كذلك أكاد أقضى كمدًا وقد أمضى الجوع وزاد بي من القلق
مارأيت من الزائرين الذين يدخلون السجائر ولها رائحة أزكى من المسك
الأزفر إذ جاء حاجب الباشكاتب فدعا أحد الجالسين ثم عاد فدعاني ثم دعا
ثالثًا ولكن الحجرة لا يدخل بها مكان . فمضى زائرًا لاجاء زائرون . واستطال
لبى الى العصر حتى كدت أن يفشى علي . فنهضت واقفاً وجعلت أمشي رويداً
رويداً الى باب حجرة الباشكاتب . فأراد الحاجب أن يمانعني فدفعته في صدره
وفتحت الباب وأسرعت بالدخول . فاذا هو جالس وحده يقرأ أوراقا له :
فقلت : طال الثواء ولا سؤال من لديك ولا جواب . عشرة ساعات مرت
علي وأنا مقيم هنا . فهل أردت يا مولاي أن تهزأ بي ؟
- كلا وإنما تعمدت تأخيرك لأجد سعة في الوقت فأكلك فيما أنت

— ولكن الذي أريده لا يحتاج مناظرة ولا تأملاً طويلاً . ان هو الا
استئذان بالسفر الى بلد من البلاد لحاجة من الحاجات .
— صدقت ولكن كنت أريد أن أعلم ماذا تريد .
— ألم أذكر بالعريضة ما أريد ؟

— بلى . ولكنها ضاعت . ولا أدري ان كنت رميتها سهواً منى بين
الأوراق الممزقة أم هي لا تزال بين الأوراق التي (تحت العرض) . فخيّل لى
أن المكان سقط على رأسى . أظل شهراً كاملاً أنفق المال وأضيع الوقت
وأجد وأكد في طلب اذن بالسفر . ثم يقول لى هذا الرجل بعد ذلك كله
ماذا تريد !!! فنظرت اليه نظرة ملؤها حنق وياس . وقلت :

— لا سهدن والله جفونك ولا أطيلن أوجاعك ولا أجعلن أيام الحياة
حرباً عليك . ولا أسلكن الخاون سبلك وتعلمن بأية داهية رميت . وخرجت
من عند مخاطبى وأنا أكاد أتميز غيظاً . فركبت عربية وجدتها فى طريقى
وقلت لسانتها ان يذهب بى الى جهة بك أو غلى (وهى بير) . وكان عبد الحميد
جعل بالاستانة مرا كز ترسل اليه الرسائل البرقية منها . وفى (بير) أحد
تلك المرا كز . يخاطب منها السلطان ومقربيه من يشاء . فان كان خطابه جديراً
بالعناية عرضوه على السلطان وان لم يكن كذلك ألقوه جانباً . ومرا كز
التلغرافات تقبل كل رسالة هى تعرف صاحبها أو تعرف اسمه ولو ملئت من
القول الغليظ وخو طب به السلطان نفسه .

فأخذت القلم بيدي وكتبت رسالة تركية هذا معناها :

(الى الباشكاتب الكاذب بالقصر السلطاني

سخرت منى وأضمت أوقاتي فيما لا يجدى ولم تبال كذبا وبهتاناً فانتظر
ماسينشر عنك في أوروبا وغيرها (ولى الدين يكن

أحد أعضاء مجلس المعارف الأعلى
فأخذ الموظف الرسالة وجعل يتأملنى . فقلت له ان كنت لا تعرفنى فانظر
في تقويم الحكومة الرسمى تجد اسمى . فقال : ولكن الرسالة شديدة ولا بد
من الاستئذان من المدير .

قلت — لك ذلك . فصعد وغاب عنى بضعة دقائق ثم عاد وقال أمرنا
المدير بقبول الرسالة على أن تكتب فى أسفلها أنك تتحمل تبعه ما فيها وتختتمها
مرة ثانية . ففعلت ما طلب ودفعت له الثمن وخرجت بعد ذلك قاصداً الى
منزلى . فتمت ليلتى نومة يحسدنى عليها المؤرقون وانتهت فى الغد وبى من
الانشراح مالا أستطيع له وصفاً . فقلت من أين لى هذا الجذل وأنا قضيت
بالأمس يوماً لو سمع به أهل الجنائيات لاقشعرت جلودهم وقد سدت على
المسالك وليس يبدى من الدراهم ما يكفى لحاجتى ريثما أتقاضى راتبى . وبعد
فان أمام باشكاتب السلطان رسالة برقية بها من الكلام ما لم يسبقنى اليه غيرى .
فعلت أن لا رجاء فى فرجة ومتى حق اليأس استقرت الراحة فى القواد .
واذ لم يكن من مواصلة الجهاد بد عمدت الى قلمى وكتبت رسالة
فرنسوية نشرت اذ ذاك فى احدى الجرائد الفرنسية التى بالقاهرة وأظنها
(لوجورنال دى جييت) ذكرت فيها كيف اتصل تحسين بخدمة السلطان
ولم يكن معروفا بين الناس بالكاتب المجيد ولا الأمير النبيل ولا الموظف
الكبير ولم يكن الاسكرتيرا بنظارة البحرية . فلما توفى الباشكاتب الذى قبله

واسمه ثرياباشا أشار لطفي اغاقرين عبد الحميد باختيار تحسين هذا لما كان بينهما
من الود منذ أيام أحمد الصدور الخائنين المسمى محمود نديم . والأحرار
العثمانيون يسمونه نديموف لسميه في تأييد المنافع الروسية وإيثاره إياها على
منافع دولته . ثم وصفت بعض ما صنع هذا الباشا كاذب منذ اتصل بالسلطان
وذكرت أني مشتغل بتأليف رسالة في بيان أعماله وشرح مفسده ليقف عليها
من كان يجهلها . فوشى بهذه الرسالة بعض الجواسيس الأجانب فقامت
القيامه على القوم الخائنين . ثم قابوأت الرحمة أن تدخلها وأني الانصاف أن
ياوى إليها . بها من الشر ما يفرع الأسد بأجامها ولو صفر لها عصفور لطارت
من صفيره شعاعا .

محمد باشا الجركسى

« المعروف بأبي حلية »

كنت قصدت الى دار صديق لى . ثم ودعته وقصدت الى بيتي فبينما
أنا في الطريق اذا بخادمي يهرول نحوي وقد أجهدته الجرى وتصبب جبينه
عرقا . فلما رأيته على تلك الحال هالتي منظره فصحت به : ويلك ما وراءك ؟
فقال — جاء أحد الباورية من (يلديز) وذكر أنه طلبك بنظارة
المعارف وقيل له أنك لم تذهب إليها اليوم . ثم سألنا عنك . فأخبرناه أنك
خرجت . فلم يصدق كلامنا وقال أنه لن يبرح المنزل الا وانت معه . ووالدتك
وامراتك في خوف شديد لا تدريان ماذا تصنعان . والرجل لا يزال هناك ولا
يريد أن يذهب . وقد أرسلتني السيدة لأبحث عنك وأخبرك بالأمر لتأتي

وأنت متهيأ له .

قلت — له مافى الأمر من خطر . وأسرعت فى مشيتى . فلما قاربت البيت ألفت امرأتى على انتظارى فى منتصف الزقاق وهى ترجف ولا تقدر على الكلام . فأخذت أهون عليها الأمر وأقول ان هذه ليست بأول مرة دعيت فيها الى القصر وقد أخذت قبل ذلك ليلاً . قالت :

— نعم ولكن الذى يطلبك هذه المرة هو محمد باشا الجركسى المعروف بأبى الحية . فتبسمت لها وقلت : هذا صديقى واذا كان الطالب من عنده فكونى فى راحة . لا أرجع الا شاكر احسن لقاءه . على أنى لم أعرف أبالحية الا اسما . وانما اخترت هذا الكذب لتطمئن امرأتى . ورأيت بعد ذا الجندى الذى جاء ليأخذنى معه . فعلم أن أهل البيت لم يكذبوه فجعل يمتدح عما بدر منه . فاستمهلته ريثما أغير ملابسى والبس (الريدنجوت) وكنت أريد أن أضع أوراقا كانت بحببى وأوصى بها امرأتى . فلم يمانع فى شئ ، وخرجت معه . واذا عربة تنتظرنا . فركبناها وقصدنا الى (يلديز) . فدخل الجندى بى الى حجرة أبى الحية وجاء حاجبه فقادنى الى أخرى مجاورة لها وقال : انت الباشا فى (الحضور) فاذا عاد أخبرتك بمودته . ولم تمر على بذلك المكان عشرة دقائق الا والخادم يخبرنى بقدوم الرجل .

فدخلت على غريمى اعوذ بالله الضواري تفتك اما لاشباع بطونها واما جريا على طبائعها . وان أفتكها وأشدها خطرا ليمل حيناً فيجلس الى جانب فريسته يلعب بها أو يستريح بقربها . وأبو الحية لا يعرف التعب . فهو اذا فتك فتكته أسمع روحها ضحكته . ثم وقف متلفتاً

ذات اليمين وذات الشمال . طالبا صيدا جديدا . لا يفتأ دامي الجوارح فان لم يجد شيئا ينهشه نهش جليسه واذا لم يكن عنده جليس نهش ثيابه أو عض نفسه . وربما أنساه طربه بمضاضه ما يجده من الم مبرح . فيستمر عاضاً . هو يعلم أن كل ذى روح يؤكل . ولقد يعنى بصحة أبنائه وأهله ويسمئهم ليا كلمهم اذا عدم فريسته . يرى أن الله خلق الأنياب لنهش فلا يجب أن يعطى مما خلقت له . فاذا سال الدم الأحمر على لهاته وبرائنه وهدر في حلقه سائغا مستعذبا سخنا . عرته هزة من تطرب وارتاح فوآده .

رأيت أربدا الوجه . ينطق الموت الزوأم على ناصيته . له عينان ملوئهما اللؤم . تحيط بذلك الوجه الخشن لحية لم أر في حياتي مثلاً لو نصبت شرا كلما تركت بمزرعة طائرا ولا بأجمة وحشاً . فسلمت عليه ووقفت أمامه وكان مطرقا . فرفع طرفه الىّ ومشى في نظره . ثم قال لي بصوت قبيح :

— أهكذا تدعنا في انتظارك طول يومنا هذا . أ كنت تريد أن تهرب

أم كنت تحدث نفسك بالعصيان ا

— كلا . لا هذا ولا ذاك . ولكن جاءني أمرك الآن فاسرعت مليا .

فتأملني مليا ثم ضحك ضحكا عاليا وقال :

— أريد أن اتخذني أنا ان هذا شيء عجاب وصاح بخادمه فلما وقف

أمامه قال :

— على بالجندي الذي ذهب ليدعو هذا البك . فدخل وقال انه لم يجدني

بالمعارف وانه قتش على كثيرا حتى تأخر وأنه حين أخبرني بدعوة الباشا

بادرت لامتوانيا ولا محجما . فسرى عنه وأمرني بالجلوس وناولني سيجارة

أشعلتها وأقت أنتظر سوا له .

فتمهد تمهداً طويلاً ثم التفت نحوي وقال :

— كم تحسن من اللغات !

— أعرف العربية والتركية والفرنسية ولكنني لأحسن واحدة منها .

— اذن تعرف معنى كلمة الخليفة .

— لا يحتاج المرء الى معرفة كثير من اللغات ليفهم معنى كلمة الخليفة .

— وتعلم أيضاً أن قوة الخليفة وبطشه لاحد لهما وأنه مع ذلك كله أميل

الى العفو عن جنى والاحسان الى من أساء . واني سألك الآن أشياء . فاذا كان

جوابك كما أتوسمه فيك من الصدق والأمانة لا يبعد أن يعفو السلطان عنك

واذا حاولت الانكار ولزمت المخادعة فتذكر أن اسمي محمد الجركسي .

وأنا من يلين بالمجاملة ويخشن بالعناد . ولا أريد أن تجربني في حالة يسوؤك

أن تراني بها . وأنت اليوم عظيم الذنب ولكن النخوة تدفع بصاحبها الى

الاعتراف بذنبه وان عظم لكي لا يرمى بالجبن والخور .

— قلت يامولاي هذه أشياء كان ينبغي أن تقولها اذا أنت سألتني

وأخفيت أنا عنك شيئاً مما أعرفه أو أكون جنيته . واني اذا اجبتك الى

الحق فذلك محبة مني للحق . أما الوعيد فلا يطلق لي لساناً أكون عزمت

على تقييده . فسل ما بدا لك . وأنا ذنوبي كثيرة لأعلم الى أيها تشير . فأفصح

لي سؤالك أفصح لك جوابي .

— هل كتبت الى الجرائد الأجنبية شيئاً في ذم أحد رجال السلطان ؟

— الآن علمت ما تريد . تسألني عما كتبت في أعمال الباشكاتب . نعم

كتبت فيه عجالة أنفذتها الى الجرائد و وعدت فيها قراءها بطبع كتاب سأبدأ تأليفه قريباً . وسأذكر في هذا الكتاب ما أعلمه من سيئات الباشكاتب . - ولأى شيء تكلف نفسك هذا الشطط وما يفيد الناس ذمك للباشكاتب ؟ هلا صرفت قوة عارضتك وبيانتك في شيء ينفع أهل بلادك ؟ - وهل ينفع أهل بلادى شيء أكثر من علمهم بمن يحول بينهم وبين سلطانهم ، أترام لا يرغبون أن يعلم السلطان بما يقع في بلاده فيتخلص من عدوه وعدو أمته ؟

- هذا فضول منك . ومن ذا الذى طلب منك أن تخدمه هذه الخدمة أم من أنابك أنت عن أهل بلادك ؟ أنا أقول لك السبب فى غضبك على الباشكاتب . طلبت اليه أن يأتيك برتبة أو وسام . فوعدك بالنظر فى ذلك وقال لك ان الخليفة أهدى بمن ينبغي أن يتحلون بالأوسمة . ففاظطك ذلك والآن تريد أن تنتقم منه . فيا ناشدتك الله أترانى أصبت فى حدىسى أم أخطأت .

- ان ما طلبته من السلطان طلبته كتابة لاشفاها . فان كان فيه ما يستدل به على شيء من هذا القبيل فحكمت فيما تريد واذا ظهر أن كلامك غير صحيح أترضى بأن تكذبه فى الجرائد ؟

- أ كلك هنا بقصر السلطان وما لنا وللجرائد ولا شأن لنا معها . فان كان ما أقوله غير صواب فتخبرنى أنت بالصواب . وانما أمرنى السلطان باستدعائك لأستطلع منك الصواب .

- انا لا أجيب الا كتابة على أن آخذ سنداً منك بما كتبتة ودفعته اليك .

— اذن فأكتب . ثم أشار الى مكتبة بجانب الباب عليها ما يحتاجه الكاتب من قلم وقرطاس . فقامت اليها وكتبت ما جرى لي مع الباشكاتب من البداية الى النهاية ورفعت ما كتبت اليه . فأخذه وقرأه وقال سأرفع هذا الى أعتاب السلطان وأبلغك به ذلك أمره . فأتني غداً صباحاً وإياك أن تمر بمكان أحد من رجال القصر . فخرجت قاصداً الى بيتي . ولما كان الغد ذهبت لميعادي . فكان وصولي الى القصر قبل حضور أبي لحية . فأدخلت حجرته وأقت في انتظاره الى أن جاء . فهيأني تحية عن عرض ودعا بمعد ذلك كاتباً له فناوله مسدسه ومفاتيح مكتبته ليضعه بها . ثم عمد الى مصحف كان على يمينه فوق كرسي عال فتناوله وقبله وجعله فوق عينيه ثم أعاده الى مكانه . وحين فرغ من أعماله هذه التفت نحوي وأخذ يحادثني ويسألني عن أيام معاوية وعلى ابن أبي طالب وقال انه ينفض معاوية بنفساً شديداً وأنه لو وقع في يديه لضرب عنقه بالسيف . وبعد حديث لم أستطع منه شيئاً فارقتي قاصداً الدخول الى الحضور . وصرت في انتظاره وحدي الى الظهر . فعاد ولم يرد الجلوس بل قال لي وهو واقف وأنا أيضاً واقف :

— أبلغك أن مولانا السلطان يأمرك باحضار أخيك من مصر وأن تكذب ما كتبت في ذم الباشكاتب وأن تأتينا بالكتاب الذي تزعم أنك ألفتة أو ستؤلفه لنحرقه هنا ونرتاح نحن وترتاح أنت معنا . وقد أمهلك السلطان الى صباح السبت . فأنت الى هذه الحجرة بعد أن تكون نفذت ما أمرك به سيدنا .

— اليوم الخميس وتريد أن أحضر أخى صباح السبت الى هنا !!! اذا

قلت أنك لا تعرف كم بيننا وبين مصر. أفلم يخبرك أحد بمقدار بعدها عنا .
ألم تسأل شركات البواخر كم يوم تستغرقه أسرع باخرة للوصول الى
الاسكندرية . فهب أن أخى الآن واقف على رصيف الشرف الاسكندري
وان حكومة انجلترا اعارتنى أسرع مدمرة لديها ايكفى كل هذا الوصول
أخى الينا فى صباح السبت . هذا مالا يكون ؟ وتكذيب ما كتبتة مع علمى
بصدقه لا أقوى عليه ولو أدى ذلك الى ذهاب حياتى . أما الكتاب فلم أشرع
فى تأليفه . وذلك لأن عادتى أن لا أكتب شيئاً الا اذا علمت أنه سيطبع وأنا
أكتب ما أكتبه وأبعث به الى المطبعة تباعا .

كل هذا الا سمعه منك وما أمرت بمناظرتك بل أمرت بأن أدعوك
الى الانصاف . اذهب الآن واجعل جوابك مفتوحا لكى لا اتهم عند السلطان
بخيانة العهد .

واتقد قضيت ليلتى على مثل اعالى الموج . فلما وافانا السبت قصدت الى
(يلديز) وكنت كتبت ورقة ذكرت بها بعدى عن أغراض السوء وما
كابدته من الباشكاتب وكيف اتفق الناس على الشكاية من أعماله . وأبنت
أن رجوع أخى ليس بيدي وأنى محضته النصيح فلم يرض به منى . وقلت
انى لن اقدم على تكذيب حق أنا عرفته وأن لى من حسبى لرادا على تورط
الشبهات . فأدخلت الى حجرة أبى لحية كما سبق بيانه . وجاء هو بعد ذلك .
فدفع مسدسه لكتابه ولثم المصحف كأول مرة والتفت نحوى سائلا عما اكون
قضيت فيما بلغنيه من أمر مولاه . فدفعت الرقعة اليه فقرأها وتعمتها ثم نبذها
الى الارض ونظر الى وجهى نظرة مغضب وقال :

— الآن ندخل معك في شأن جديد. الا تريد ان تطيع مولانا السلطان ؟
قلت — بلى . انى أريد ولكن شتان ما بين الارادة والامكان .
— أراك تقول حسبي وما هو حسبك الذى تتباهى به . من أى بيت
فجور منشأؤه ؟

— نحن لم ننشأ من بيت فجور مثلك . وواحر باه أن يكون بقصر الملك
العثمانى رجل مثلك أثبت مكارم الأخلاق أن تسكن نفسه . أمن أجل هذا
الكلام المهدب دعوتنى وأشغلتنى بك منذ يومين أم أمرك السلطان أن
تخاطبنى بذلك ؟ وقد نسيت أن أذكر لقراء كتابى أنه دخل علينا رجل
قصير القامة بادن الجسم علمت أنه من موظفى السفارة العثمانية التى ببرلين .
فلما سمع ما خاطبت به أباحية قال لى :

— الباشا مثل والدك ولا ضير فى أن تتحالم له اكراماً لسنه .
قلت — أعوذ بالله أن يكون مثله والذى . أنا لم أعرف والذى جيداً
لأنه توفى الى رحمة ربه وأنا صغير . ولكننى سمعت من أناس كثيرين انه
كان رجلاً أحسن الله أدبه وعصمه مما يشين أهل الوقار . اما هذا الرجل الذى
يذم حسبي ونسبى فى قصر سلطان العثمانيين فاص دنىء حقير كذاب أفاك .
لا يقاس بأحد حتى من السوق . فالتفت أبو حية الى جليسه وقال :
— أرايت كيف يستبطر حلم السلطان هؤلاء القوم . أما والله لو كان
أمره بيدي لتوالت على أكتافه العصي .

قلت — وما يمنعك من ذلك ؟
قال — خوفاً من غضب سيدي الذى أعيش بأمنه . وانى لفخور بخوفي

هذا . وأنتم لا تعرفون مقام السلطان فتبلغ منكم قلة الأدب أقصاها . وقد صدق من قال : أشد الناس جرأة على الأسد أشدهم جهلا لبأس الأسد . قلت - ويحك ألا تدري أن السلطان لو جمل أمرك بيدي لأجلت فاك ولجعت فوق ظهرك برذعة ولا ركبت الناس متنك بلا أجر . أنت لا تعلم ما تقول ومن العبث أن أضيع معك أوقاتي . وها أنا ذاهب فإن كان عندك ما تبلغني عن السلطان فلا أتقبله الا مكتوبا . وخرجت من بين يديه . فلم يمانعني .

ثم أرسلت رسالة برقية الى عبد الحميد وصفت فيها ما اتفق لي مع سيافه وقلت : اذا لم ينصفني طلبت انصافه في جرائم أوروبا . فدعاني المرحوم عاصم بك كاتبه الخاص وأبلغني أن السلطان أسف أشد الأسف لما جرى لي مع أبي لحية وأخبرني أنه سيحضر الى عند عاصم ليعتذر الى عفاطر طمنه . ونصح لي أن لأجيبه جوابا يؤلمه . فجاء أبو لحية وسلم عليّ وزعم أنه لم يرد بكلامه لي غير النصيحة وأنه أحبنى فرأى أن يخاطبني بما يخاطب به ولده اذا لم يطعمه .

قلت - اذا كنت تقول لولدك في أية دار فجور نشأت فهذا كلام أنا لا أصبر عليه . وحين هممت بالانصراف مال عاصم بك بي جانبا وقال : - يقول لك مولانا السلطان : ان من حسن أدب المرء أن لا يكثر من الوعيد في مخاطبة مليكه . ويريد أن لا يسمع منك كلاما عن الجرائد الأوروبية .

فخرجت من ذلك القصر الذي استوطنه الظلم وانا أكاد أعدو هربا

وقلت يالك من صرح شيد على خراب الوطن . فلئن مد الله في أيامي
ورأيتك وقد دخلت مقاصيرك وحجرك وقفت أمام رسمك الهيل وحييتك
بما قاله الملك الضليل في الغابرين :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي
فدخلت منزلي واستلقيت على مقعد لي وجعلت أفكر فيما مر بي من
المخاوف والممالك . وقلت عسى يحقب الله هذا التعب راحة فأخرج لا غائما
ولا غارما كما قال الشاعر القديم .

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا على ولا ليا
فلبثت ثلاثة أيام لا تروعي في خلاها روائع الدهر حتى ظننت أن الدهر
عاد إلى شيمة الوفاء ولم يبق لي شيء أخافه . وفي اليوم الرابع بينما أنا جالس في
حديقة البيت إذا زائر يتقدم نحوي . فتأملت فرأيت شابا حسن البزة والوجه .
فلما دنا مني سألتني . هل انت ولي الدين يكن ؟

قات - نعم . فأخرج لي بطاقة كتب عليها اسمه وهو . . . ممتاز بك من
موظفي نظارة الداخلية . فرحبت بقدمه ولم أسأله عن سبب زيارته تأدبا
وقربت منه كرسيًا وسألته الجلوس فجلس وبعد دقائق قضيناها في تكرار
جمل التحيات على العادة الشرقية . قال لي :

- أرسلني اليك ممدوح باشا ناظر الداخلية لأبلغك أنه يريد موأجعتك
في أمر ذي بال ويقول إذا استطعت أن تزوره قبل العصر فذهب إلى
النظارة وإذا لم تستطع ذلك فانك تجده بمنزله الكائن بجهة (ارناؤود كوى)
وأمرني أن أأزملك في ذهابك لكي لا تتكلف تعب السؤال عن المنزل .

قلت - سمماً وطاعة . غير أنني لم أحظ قبل اليوم بلقاء الوزير . فإذا ترى يريد أن يخاطبني فيه .

- لا أدري . وكانت الشمس مالت إلى الغروب فنهضت ولبست ملابسى ورافقت الرجل إلى منزل ممدوح . فأخبرونا أنه رجع من النظارة على عادته ثم دعاه السلطان إلى (يلديز) وقالوا لمتاز بك : أمرنا الباشا أن نستقبلك مع من دعوت إلى أن يعود من القصر . فأقمنا في انتظار الناظر نحو ساعة من الزمان . فلما جاء أدخلت إلى عنده . فألقيته واقفا إلى جانب الباب فاستقبلني بأحسن ما يستقبل به قادم . وناولني الخادم سيجارة فلم يرض الباشا أن أشعلها وناولني أخرى من علبة . واشعل لي كبريته بيده فدخلت سيجارتي . وقلت في نفسي ترى ما وراء هذا الاكرام !! فبدأت بالحديث . قال :

- كثيرا ما كنت أسمع الناس يتحدثون بفضلك وأدبك فأشتاق إلى رؤيتك . غير أنني لم يقسم لي أن أراك إلا في هذا اليوم وأود أن لا تكون هذه آخر زيارة . فإن البيت يبتك وكل من به يفرحون لقعودك . فأجبتة بما يسمع المقام . ثم قال لي :

- أنت ابن أخى محمد فائق بك يكن ؟

- نعم .

- أتعلم به وبك . هو صديقى من القديم وأنا ممن يفتخرون بمودته . والآن زادت جرأتى فى بيان ما أريد لك . فاسمع كلامى وتأمله ولا تتعجل الاعتراض . أنا لى ولد هو أسن منك ولى من التجارب ما لا يتاح لسنك . وقد كنت صديقا للمرحوم نامق كمال الشير وهو أشهر الشعراء وأكث

الكتاب غير منازع . فأخلصت له النصيحة في ترك اللجساج والرجوع الى طاعة أولى الأمر . فلم يحفل بمقال وسخر من نصحي . فلما خاب في مساعيه وعثرت جدوده ندم حين لا يجدى الندم . وقد رآني في أيام نكبته مرة فقال لي : صدقت يا ممدوح فيما قلت لي وليتني كنت تبعت رأيك وعملت بمشورتك فكفيت ما ألاقه اليوم . وانما أبدوك بهذا الكلام لتجعله عظة لك . اني أتاني أنك تناضل قوما من المقرين عند السلطان وهذا مالا أرضاه لك . مالنا نحن ولهم . هم خاصة رجل نحن من رعيته ولا يطمع عاقل في أن يعاقب السلطان أحد خاصته اكرا ما لمن ليس من أئداهم . اذا كنت تريد من السلطان شيئا فبالرفق والحسنى تناله . ولقد قال الحكماء : يدرك بالحكمة مالا يدرك بالقوة . هذا كلام لم يأمرني به السلطان ولا طلبه مني أحد من مقريه . ولكني أقوله لك متوسما فيك الرأي والسداد . واذا شئت أن تكتب فاكتب ما ينفع بلادك والدم لا ينفعها . ألف روايات وترسل فيها ببيانك المعلوم أو فاكتب كتباً في التاريخ والأدب . واذا كانت لك عند السلطان حاجة فتمال الي بيتي ولك علي أن أكون رسولك اليه . واذا لم أرضك فاشتغني وذمني ما شئت . أنا لا أؤأخذك وأهل منك ذلك علي فتنة الشباب . أما غيري فيؤأخذك ويطالبك بحقه . والسلطان لا يذل خاصته ولا غني له عنهم . والآن وقد سمعت كلام أب يغار علي أهل الفضل والحسب أن يصيبهم مكروه فهل أنت واعدى بترك نضالك !

— مائم من نضال . شتموني ثم اعتذروا : وسمعت الشتم أولا وقبلت المذرة ثانيا . فلا أنا مغبون ولا الدهر غابن .

... . قد رضيت منك بما تمهدت أما رجوعك الى مصر فلا أراه صوابا . ولا يضيع العاقل خيرا هو بيده جريا وراء أهوائه . فشكرت كلام الرجل كما يوجبه الأدب وخرجت من عنده . وما أطربنى من كلامه الا لفظه دون معناه . فان ممدوحا من رجال الأدب الذين عاشروا كالا وأصحابه وأوتوا البيان وفصل الخطاب . غير أنه فتنه ذهب عبد الحميد وقلت قيمة الوطن عنده . فحسب الذهب يبتى والوطن يفنى . فكان من الأخسرين أعمالا . هذه الزيارة فذة لاثانية لها . وما سرنى أن يكون لى بمودة ممدوح مالك الدنيا وهو رجل لم تطلع الشمس على ألام منه . وأعلم أنه خاطب كثيرين بمثل ما خاطبني ليستجلب قلوبهم ويشترى نفوسهم ويلقى بهم في هلكات العار .

وقد أطلت الكلام في هذه الفصول حتي كدت أخرج عن الصدد . بل خرجت عن الصدد . وانما أردت بذكر هاته المحادثات أن يقف القراء على عقول أركان الاستبداد وعلى تنوع أهوائهم فهي منقولة اليهم بغير زيادة ولا نقص وكأن كاتبها كان يكتب ما يدور بيني وبين هؤلاء الناس . وربما يخيل لبعض القراء أن بعض الأخبار مبالغة فلا يصدقون وقوعها . فيقولون كيف يكتب ولي الدين كذا وكيف يتجاسر أن يقول كذا وهو في قصر عبد الحميد . بين يدي خاصته ولكن هذه الوقائع يعلمها كثير من الناس وهم لا يزالون بالآستانة ومنهم من جاء مصر وأقام بها . فان كانوا يعلمون فيما ذكرت شيئا يخالف الصواب فليتنفضلوا بذكره ولينشروه بالجرائد واذا هم لم يستطيعوا نشرها نشرتها أنا لهم باية جريدة يريدونها .

﴿ شتم وضرب وقتل ﴾

« عاصمة ملك أم مرسح ملعب ١١١ »

كل بلد فيها من الفضائح ما يظنه الناس لا يتحصل في غيرها وكل معشر لهم من المثالب ما يخاله المرء لا ينشأ إلا منهم . ولو تأمل حال الدنيا لبين رأى عواصمها مكان الأسواء ومعاشرها صناديق الأعيوب . فلست أريد أن أذم ماضى فروق من هذه الوجهة . وما ذنب فروق وهى روضة غناء زهرها ابتسامها ومزنها بكاؤها . جنة أراد قوم أن تكون جهنم فلم تكن . وانما الذنب ذنب فقة باغية تقدمها عبد الحميد . فكانت كالسيل اذا دهم والطامة اذا حلت .

دخلت الآستانة وبها شاب اسمه عبد الفنى بك . كان ميراً لا يا بالحرس السلطاني . نال من ثقة مولاه ما لم ينله أحد غيره ومن الخطوة شأوا بعيدا وقفت دونه الهمم . استبطر عبد الحميد هذا الشاب فتركه يمتدى على الناس ولم يقبل فيه وشاية ولا سمع فيه شكاية . فلو قيل له ان عبد الفنى أضرم النار بالآستانة وأخذ يرمى بالناس في لهيبها مثنى وفرادى لقال : دعوه . أنا امرته بذلك . ولم أعاشر عبد الفنى ولم أخالطه كثيراً ولا قليلاً فأقول في حقيقته ذمماً أو مدحاً . وما رأيته منذ نزلت بالآستانة الى يوم مقتله غير مرة واحدة والمادحون له من أفادهم وده والقادحون له من أضرم بغضه ولا يعتد بشهادة فريق منهما . غير أنه تجاوز الحد في اقدامه فلم يرحم صغيراً ولم يوقر كبيراً

وحيث رمى به حمره سمى بقدره . وكان لهذا الشاب آخر يفايره ويعانده .
وكان دون عبد الغنى شجاعة ولم يكن دونه قدرة . وقد فاق عبد الغنى طولاً بما
أوتي من المال . وهذا الخصم الألد هو جاويد بك ابن المرحوم خليل رفعت
باشا الصدر الأعظم . ولما بلغ الشر مبلغه بين المتحاسدين وسعى أناس بينهما
بالغيبية والخيمة دهم عبد الغنى جاويداً بأحد المنازل فسبه وشتمه وطرده على
أسوأ حال . فأسرها له جاويد في نفسه وكان له صديق حميم اسمه حافظ باشا
وهو أحد أعضاء أمانة البلدة بالاستانة . فأخذ يتودد الى عبد الغنى حتى
استحكمت بينهما اللفة . ثم رماه برصاصة أصابت جبهته في خبر طويل وفر
حافظ وأرسل بمسد ذلك جماعة من قبيلة عبد الغنى بك رجلاً اسمه الحاج
مصطفى قتل جاويداً بجسر غلطة في رابعة النهار .

وكان لعبد الحميد كاتب خاص من قبل عاصم بك اسمه كامل بك .
دخل عليه جاويد يوماً وكله في شؤون بينهما لا يعلمها سوى الله . فعظم الخلاف
وكبر الشر وآل الكلام الى الملاكمة ففاز جاويد على خصمه وضربه حتى
أوجعه . فلما بلغ الأمر عبد الحميد أنهم على كامل بك برتبة البالا وعلى جاويد
بوسام وأمر لهما بجائزة سنوية .

واشته غضب الصيادى على آل بدر خان الا اثنين منهم . وهما بدرى
بك وعثمان باشا . فسلط على بك البدرخان جماعة من الجمالين هاجموا ذات
يوم ولكنه أدخل يده في جيبه فأخرج مسدساً كان معه ورمى به في الهواء
ثلاث رميات . فأسرع البوليس الى المكان الذى دوت منه الرصاصات .
وقبضوا المعتدين واستاقوهم الى نظارة الضابطة وخلص الله البدرخان من

أعدائه . وأراد على شامل باشا وهو أيضاً من كبار أولاد بدرخان الشهير أن يعاقب أخاه عثمان باشا على صداقته للصيادي . فقابلته في يوم من أيام رمضان إحدى السنين وهو خارج من الجامع . فضرب على شامل أخاه ضربة على وجهه هشت أنفه ووقع على الأرض صريعاً فنقلوه إلى البيت . ولما كان يوم العيد قابل عثمان أخاه في حجرة التشريفات بسراي (طولمه بفجه) فرماه بنظرة ماؤها وعيد وخرج من بين صفوف المهنيين وأشار بيده إلى السلطان مسلماً . فأنفذ السلطان ورائه حسن باشا محافظ بشكطاش الفاتك الشهير ينذره بأنه لن يعود إلى التشريفات بعد ذلك أبداً .

وكان حسن باشا الذي أتى ذكره في هذا الفصل عرضاً من أكبر أنصار الاستبداد . يضرب ويقتل ولا يمارضه أحد . ويروى البعض أن السبب في هذه المنزلة أن بعض الأحرار كانوا مهاجوا قصر (جراغان) التي كان السلطان مراد الخامس مسجوناً بها وحاولوا اخراج السلطان المعتقل واعادته على كرسي الملك وجعل عبد الحميد مكانه . وقاد هؤلاء الأحرار السماوي الشهير . ففتحوا أبواب القصر عنوة حتى وصلوا إلى السلطان مراد . وكان الخبر وصل إلى حسن باشا محافظ بشكطاش فأسرع إلى المهاجرين في جماعة من الجنود ووقعت عينه على السماوي فضربه ضربة ألقته على الأرض قتيلاً . والقصة معروفة عند العثمانيين كافة وهم يسمون هذه الواقعة واقعة السماوي . ومن ذلك اليوم أعجب عبد الحميد بحسن باشا وركن إليه في المحافظة على حياته . وهذا الرجل ضرب يوماً الحر الشهير المرحوم مانياسي زاده رفيق بك الذي كان ناظر العدلية . فشكاه ولكن لم يسمع شكايته أحد .

والى شامل باشا البدرخانى واقعة أخرى تمجبنى كثيرا ، فقد التقي يوما بحسن خالد الصيادى بجهة الفزار . وكان حسن خالد ذهب الى هناك لينزه ناظريه فى جمال تلك الغايات وقد ملأت الروابى والبطاح . فضربه على شامل أمامهن حتى أسفه التراب .

كذا كانت فروق . يضرب الناس بها بعضهم بعضا . فمن كان ذا قوة وبأس شديد استوجب لنفسه الكرامة وبات ذا منعة لا تتطاول اليه الأَبصار . ومن كان ضعيفا ضيم فى ضعفه ولم يجد له حميا ولا نصيرا . وهنالک عبد الحميد مشرف من أوجه ينظر الى الناس فى اختلاف أهوائهم وتزاحمهم على آرائهم فيسوق فريقا الى حرب فريق . فمن رجحت كفته استندناه من حظيرته واختاره لنفسه . ومن خفت كفته أجهز عليه وعجل له بنقمته .

❦ السياسة الحميدية ❦

ليس فى العثمانيين ولا فى الغربيين من عرف سياسة عبد الحميد حق معرفتها . بلى أقول ليس فى خاصته وأشد الناس قربا منه من استبان مقاصده . لقد كان هذا الرجل انزاعا من الألفاظ حارت فى فهمه العقول وقصرت المدارك . ولا أدعى لقراء كتابى أنى عرفت من عبد الحميد ما لم يعرفه غيرى . فتلك دعوى عريضة لا تقدم نفسى عليها . وإن ما أذكره لهم فى سطورى هذه لضروب من الخدس قد أخطئ فيها وقد أصيب : غير أن أصرأ واحدا لا أخطئ فيه ولا يجادلنى فيه أحد من الناس . وهو أن عبد الحميد كان عدواً ممتة . لم يعرف مقدار جهلها فى أوائل حكمه . فتولى زمامها على حذر منه . فلما

مارسها وعرف من أمرها ما كان مجهل صغرت في عينه عقولا ولم تصغر في عينه قلوبا . وقد شهد لها بالبأس والفتوة واحتقار الموت في سبيل كرامتها وعلم أن هذه الصفات الطيبة يسترعا الجهل فتسلك بالجهل . وأيقن أن سمو المدارك يكون على قدر العلم . ففضى أن لا تزداد الأمة علما لكي لا تزداد فهما .

ورأى بنى الشرق مولعين بتقديمهم . لا يريدون أن يدلوا منه غيره . فمضى على أهوائهم وفتنهم بالهبات . وفتح لهم باب الحسد ففرق بينهم وجعل بعضهم رقباء على بعض . ثم دلته تجاربه أن خير ما يؤيد به عرش في بلاد لم نزل على عهد البداوة أن يبدو من السلطان تعصب للدين . فجعل يستدنى من مجلسه أولى العماثم ويعمر لهم التكايا ويشيد لهم المساجد ويواصل بیره أهل النسك والزاهدين . فيقولون هذا سلطان تقى بار يحب أهل البر والتقوى وهم لا يعلمون ما وراء بره وتقواه . على أنه نال بغيته فجعل لنفسه منزلة في قلوب المسلمين في بلاده وفي البلاد القاصية وأوهم دول أوربا أن له ركنا قويا وجانبا غير هضم .

أما أوربا فكان فيها المصدق وفيها المكذب . فرأى المصدقون أن لا يفتحوا على أنفسهم أبواب الفتنة ويدعوا عبد الحميد في ملكه حتى يقبضه الله . ورأى المكذبون أن يستفيدوا منه بتخوينهم إياه . فقد علموا أنه ضعيف الفؤاد شديد الفرع . فكانوا كلما لاحت لهم بالبلاد العثمانية غنيمة أقبلوا عليها يتراكمون وأمامهم أساطيلهم وجيوشهم تتكلم النيران بأفواه مدافعها . ولا يلبث أن يهبهم حاجتهم فيرجعون ظافرين غانمين .

وقد شاء الله أن يكون في الأمم المتمدنية قوم يرثون سلال العثمانيين
ويستعشون حكموماتهم وأبناء جلدتهم على الأخذ بناصرتهم وافتدائهم من
أسرهم . فلم يفعلوا . وذلك لأن بمضهم لمع له المال في يد الظالم فعى لسانه
وشلت أنامله وبقي البعض الآخر لا نصير له حتى مل النضال وطلب الهدون .
وما ظهر من العثمانيين من يدعو الناس الى نصرتهم وبجدهم بخطبهم الاتقلب
عليه عبد الحميد بالمال واذا لم ينفع في انكايته المال تغلب عليه بالحيل . ورأى
الغريون ذلك . فساعت بنا ظنونهم وصفرت منزلتنا في أعينهم وقالوا هؤلاء
قوم لا ثبات لهم على رأى . فليذوقوا الظالم حتى يتعودوه فيستطيروه أو يملوه
فيغلبوه . وبذا أمكن الله عبد الحميد من رقاب أمة استسلمت اليه امتثالا لا ذلاً
وسكنت عنه صبرا لا عجزاً وأحبه منها من أحبه جهلا لا علما .

ولو اقتصر سياسة أوروبا على التفاضى عن العثمانيين لكان الأمر ولتدبر
العثمانيون لأنفسهم تدبيراً يقصر دون رقابهم يد القتاتل . ولكنهم في حضارتهم
وشغفهم بالانصاف بنى الانسان أقبلوا على خزان عبد الحميد . فبيدنا تجرى دماء
الأرمن أنهاراً في أقطار الأناضولى ويعلو صراخ الثاكلات واليتامى بين
الصخور والوديان وتفتدى أسماك البوسفور بأجساد الفضلاء من الأمة
وتجبي الأموال الى عبد الحميد وأعوان تقمته وهى تسل من كبد القروى
المسكين اذا بزعم قوم يخطب على ضريح صلاح الدين الأيوبى محمياً عدو
الأمة العثمانية فوق عرشه الذى اغتصبه . فيقول لأبناء الحضارة كذب
المتظلمون . ان عبد الحميد سلطان جليل عادل رحيم . ويقول أبناء الحضارة
صدق الزعيم وكذب العثمانيون .

كان أبو الهدي أشد الناس بغضاً لعزت العابد وكان العابد أشد الناس بغضاً لأبي الهدي . وكان عبد الحميد مصطفىاً كليهما وهو يعلم أنهما لا يتفقان في رأى ولا يجتمعان على خطوة . فان كان يظن بأبي الهدي خيراً فقد وجب عليه أن يكتب به ويستغنى عن العابد . وان كان يتوهم بالعابد نقماً فكان من الصواب أن يستخلصه لنفسه وينصرف عن أبي الهدي . ولا يجتمع تقيضان على حق . وبذا يتبين للمتأمل أن عبد الحميد لم يرد من اختيار المتخالفين إلا اتخاذ كل منهما رقيباً على الآخر . علماً منه أنهما سيسهران لياليلهما في رقبة ويرتاح هو بين الرقيبين .

وأشد ما على نفس الحر أن يعيش عبد الحميد في ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة يظلم فيها رعيته ويقتل أبناءها تقتيلاً وأن يجد كثيراً من الناس يضربون بسيفه ويجادلون بحجته . وما ذاك إلا أنه أَرْضَى رجال الدين والعامّة تبع رجال الدين .

هذا هو دهاء عبد الحميد الذي يضرب به الأمثال أكثر المتشيعين له وهذا هو السر في استمرار حكمه طول هذه المدة وأنا أخالف كل من يقول بذلك . فان الرجل فطر على حب نفسه وولد اذ ولد جباناً مستطاراً . فكان همه استطلاع أسرار الناس ليتبين ان كان فيها ما يرجع اليه بمكروه . ولو كان ذا دهاء كما يقولون لتبين الحق من الباطل ولا استطاع أن يحب نفسه الى مبعضيه وذلك ما لا يكلفه شططاً ولا يكسبه اثماً . فقد خرج الآن من ملكه وهو لا يعلم من رعاياه الا ما كان خاصاً بذاته من حب أو بغض وهو علم تتكفئه الشبهات ولا يؤيده الا الوسواس . والرأى السديد لا يقيم بفؤاد

الجبان. فان الخوف يمنع الفكر اذمان التأمل . وكل ما يراه المرء في فزعه من
الرأي يراه على غير حقيقته . وقد وقع ذلك لعبد الحميد في كثير من أموره .
وما اشتهد به أسر الا استدعى وكلاءه وفاوضهم مفاوضة المقيم على جمر الفضا
فتزل قدمه وتزل اقدامهم . وربما أمر أمراً يستحدث شراً . فيتجاهله ويؤمن
أنه لم يأمر به . خوفاً وذلة ولبئست الخلقتان .

وأي دهاء عند رجل كلمة تقيمه وأخرى تقمده . كما وقع له في أمر
المرابي . فوعد الانكليز بأرسال الجنود العثمانية لاختاد الفتنة ثم انصاع لرأي
الشيخ أسعد كما سبقت الإشارة اليه في أحد الفصول المتقدمة . بل أي دهاء
عند رجل يخاف أحقر عبيده وترتد فرأى أنه أمام نسائه ويكاد يميتته الخوف
من طفلة ريبة تقلب مسدساً له . كما جرى له مع تلك المسكينة التي قتلها ظلماً
وعذواناً . أنا لأصدق أن جباناً يكون ذا دهاء . واذا كان المراد بالدهاء
احتياله على الناس وابتزاز أموالهم فذلك مالا أجاد لهم فيه . واذا كان في الناس
من يظن أنه خدع أوروبا فذلك ظن كله خطأ . وان أوروبا لأعقل ان
يتلاعب بساستها عبد الحميد . ولكنهم كانوا معه على ما قال الشاعر الحكيم :

ليس النبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

بلغني أن سفير إيطاليا شدد عليه النكير في إحدى زياراته وجعل يقول
له : ان الدول الأوروبية لم تر من الدولة العلية وفاء بوعدها من وعودها وانها
كلما طالبتها الدول انجاز الاصلاح الذي ضمنته مالت الى الخديعة والمطل
وان هذه الحال قد تضطر الدول يوماً الى ركوب الخشن والرجوع الى الوعيد .
فحاول عبد الحميد اقناع السفير بأنه ساهر ليله مشغول بنهاره سعيًا وراء

ما يرضى الدول وأن الأمة العثمانية جاهلة ومتعصبة فهو يمانى الشدائد في ارشادها الى الخير وأنه لا يلبث أن يتمكن من ذلك قريباً . كل هذا والسفير لا يقتنع . فبحار عبد الحميد ولم يدر ما يصنع . ولما كبر عليه الأمر استدعى عزت العابد وقال له : كلم جناب السفير بشيء يكون له فيه مقنع . وأقام العابد يعالط السفير حتى استرضاه بالرجاء ولم يرضه بالبرهان . فأين كان الدهاء في عبد الحميد يومئذ وفي مثل ذلك يعرف الدهاء . ولا يستنجد الملك الخازم بكاتب من كتابه في معضلة بينه وبين أحد السفراء :

هذا كجوابه لمن قال له : ما السبب في اكثار السلطان من الحراس والجند حين يخرج الى صلاة الجمعة ؟ وكان سائله أوروبياً . فقال له عبد الحميد لا يمكن هيبة الخلافة من قلوب النصارى وقد حرف الكلمة ترجمانه فقال : من قلوب الاوروبيين . فجاءت الاقالة شراً من العثرة .

وأقبح من كل ما تقدم أن عبد الحميد كان كلفاً بالاستقلال . فلم يشأ أن يكون لغيره رأى في كبريات الأمور ولا صغيراتها . وسيان لديه تولية وال وتوظيف أحد رجال الجاندرمة . كل يكون بارادة سلطانية . وقد تولى تدبير حركات الجيش في الحرب الروسية وهو بقصره بين جواريه وعلمائه . فكانت العاقبة أن جاءت الجنود الروسية الى عاصمة ملكه وكادت تطأ سنايك أهوجياتها حجرة نومه لولا فضل الاسطول الانكليزي ووقوف جباله الشم تلقاء (سان استفانو) .

ولينظر القراء من اختارهم لدولته من الصدور والوكلاء . أما والله لم يكن بينهم ذو عقل ولا من يليق به أن يكون من الرعاة . هذا وفي الناس

من يتوهمون أن عبد الحميد كان من الدهاة :

جهل الأمة وأطماع قاداتها ومقاصد أوروبا من منن الدهر التي يشكره عليها عبد الحميد . والآآن وقد أنزله الله من عرشه وجعل مأواه بيتا كان لا يرضى أن يهب مثله لنديم من ندمانه وترك لنا بقية ملك يحاول كل عثمانى أن يرقعها بشغاف فؤاده . فلا يجمل بنا أن نخدع أعقابنا ونوهمهم أن الرجل الذي أبت نعمة الله أن تساكنه كان ملكا من كبار الملوك .

تم الجزء الاول

ويليه الجزء الثانى



مختصر

الجزء الاول من كتاب المعلوم والمجهول

صحيفة

١	اهداء الكتاب
٣	مقدمة
١١	الجرائد المصرية في سنة ١٨٩٢ وما فيها وما بعدها
١٦	السياسة الانكليزية بمصر سنة ١٨٩٢
٢٧	المرخوم عبد الله النديم وأستاذه
٣١	حزب تركيا الفتاة
٤٨	مدائح شهداء الحرية من اخواننا الأرمن
٥٧	فرار مراد الطاغستاني من الآستانة الى مصر وسبب ذلك
٧٨	حال الأحرار وجمعياتهم بعد هرب مراد من الآستانة
٨١	وقع ما كتبه الأحرار على دوائر الظلم بالآستانة
٩٠	أبو الهدى بالآستانة ومصر
٩٨	ماذا كان يريد أبو الهدى
١٠٠	الليورد كرومر وأحرار العثمانيين
١١٢	بين التابع والمتبوع

صحيفة

- ١٣٠ أنا في حزب الأحرار
- ١٥٥ الأميرة الجليلة الفاضلة نازلي هانم
- ١٦١ الجنرال أحمد جلال الدين
- ١٦٩ الشيخ محمد ظافر المدني
- ١٧٧ عزت العابد
- ١٨٢ شر جديد
- ١٩٣ بعض مامرّ عليّ بنظارة المعارف
- ٢٠١ الحرب العوان
- ٢٠٦ محمد باشا اليچركسي المعروف بأبي لحيه
- ٢١٩ شتم وضرب وقتل
- ٢٢٢ السياسة الحميدة

